



دائرة المعارف الفلسطينية

موسوعة علماء فلسطين وأعيانها

الجزء الأول

إعداد: مجموعة من الباحثين

تصدر بإشراف

إ. د. يحيى جبر

أستاذ علم اللغة

عادل زعبيتر

محمد عزة درونة

أحمد الدجاني

عبد القادر الحسيني

شريف صبح

موسوعة علماء فلسطين وأعيانها

الجزء الأول

إعداد وتأليف

مجموعة من الباحثين

تصدر بإشراف

أ. د يحيى جبر

أستاذ علم اللغة بجامعة النجاح الوطنية

التصميم والمونتاج: عبد الهادي جوابرة

تعريف بدائرة المعارف الفلسطينية

- محاور دائرة المعارف الفلسطينية
- موسوعة علماء فلسطين وأعيانها، ويتضمن هذا المحور مادة الموسوعة التربوية الفلسطينية وزيادة
- خزانة فلسطين التاريخية
- خزانة فلسطين الجغرافية
- سلسلة التراث الشعبي الفلسطيني «من الخابية»
- بنك معلومات القدس

المحتوى:

نأمل أن تحتوي هذه الدائرة على كل ما يتصل بفلسطين الأرض والإنسان، مختزقة حدود المكان والزمان. وهي مبوبة في محاور بحسب الموضوعات التي تشتمل عليها، فقسّم لعلماء فلسطين وأعيانها عبر القرون، بغض النظر عن ديانتهم ومذاهبهم وتوجهاتهم الفكرية والحزبية، وآخر يتضمن خزانة فلسطين التاريخية، ندرج فيه وقائع الزمن، والحوادث التي تعاقبت على فلسطين، وثالث يخص لخزانة فلسطين الجغرافية، فلا نترك موقعا ولا بلدا ولا عينا ينتهي إليها علمنا إلا رصدناها فيه، كما تتضمن الدائرة قسما يخص المآثورات والفنون الشعبية الفلسطينية، أسميناه «من الخابية» الوعاء الفلسطيني المشهور في بيوتنا قديما، وسيدرج في هذا الإطار كل ما يتصل بأنماط الحياة الشعبية مما له ارتباط بالقول أو العمل اليدوي أو الحركي. أما القسم الخامس فهو «بنك» للمعلومات المتصلة بالقدس على وجه الخصوص.

ولما كان المشروع على هذا القدر من التشعب والاتساع، فإننا نهيب بكل مطالع أن يبادر إلى تزويدنا بما لديه من معلومات على هيئة مادة إلكترونية، أو أن يرشدنا إلى المصادر التي يمكن أن نجد فيها ما يندرج في هذه الأطر، كما أننا نستأذن الباحثين والناشرين في نشر ما نجده من موادهم الإلكترونية في هذا الموقع. وسنسعى من بعد إلى إصدار المادة مطبوعة في مجلدات نحكم ترتيبها بطريقة تسهل الرجوع إليها.

الهدف:

تهدف جامعة النجاح الوطنية من وراء هذا المشروع إلى توثيق فلسطين الأرض والإنسان انطلاقا من شعورها بالمسؤولية التاريخية تجاه فلسطين وقضيتها ومستقبلها، فلئن حالت الظروف المتعاقبة دون إنجاز المشروع الحضاري الفلسطيني وفقا لما يقتضيه انتماء فلسطين وأهلها؛ فليس أقل من النهوض بما يوثقها ويحفظها من الضياع، ولا سيما أن كل فلسطين مستهدفة أرضا وإنسانا وثقافة وتراثا.

سنبادر إلى رفع ما لدينا من مواد دائرة المعارف الفلسطينية على الشبكة الإلكترونية، وسنبداً في الوقت نفسه بجمع المعلومات المختلفة ومعالجتها لرفعها، راجين من كل متصفح أن يبادر إلى الإسهام في هذا العمل الجليل، وسندرج اسم صاحب المشاركة إزاءها من باب حفظ الحقوق. وستصدر الجامعة مواد دائرة المعارف في كتب تنشر تباعاً بحيث تتضمن المادة الأصلية وما قد يرد إلينا من تعليقات أو نقد أو مداخلات تتصل بها.

حدود المسؤولية:

لا تتحمل الجامعة أي مسؤولية تجاه ما ينشر، وإنما تقع المسؤولية أول ما تقع على عاتق المؤلف يليه في ذلك من يعترض أو ينتقد، لأننا ننشر ما ننشره ونترك للمتصفح حق التعليق والتعقيب، وحق الرد والنقض، فنحن نعلم أن أحكامنا على الأشخاص والأشياء من حولنا تختلف، إذ أن كلاً منا يحكم بحسب ما يتوفر لديه من معلومات، ونعد بنشر كل ما يرد إلينا من مداخلات أو تعليقات دون تدخل. ونأمل بذلك أن يتمخض الحوار عن الحقيقة التي تتكفل الأيام بحفظها بعد أن نعمل على جلائها.

تصدير

انطلاقاً من الدور المنوط بجامعة النجاح الوطنية من حيث هي أكبر المؤسسات الأكاديمية في فلسطين، ومن استعدادها للنهوض بأعباء المشروع الحضاري الفلسطيني، فقد شرعت في إعداد دائرة المعارف الفلسطينية، وبادرت إلى جمع المعلومات التي تتصل بعلماء فلسطين وأعيانها، وبالمواقع الجغرافية، والوقائع التاريخية، إضافة إلى ما وعته الذاكرة وترجمته الحياة الشعبية من مآثورات قولية أو يدوية، إلى جانب ما يتصل بمدينة القدس مما نطمح إلى أن يشكل من بعد بنكا للمعلومات الخاصة بها.

وقد رأت الجامعة أن تكلف الأستاذ الدكتور يحيى جبر بمهمة الإشراف على هذا العمل الضخم، لخبرته في هذا المجال، إذ سبق أن أصدر تراجم لنحو من مائة من أعيان فلسطين وأعلامها، كما أصدر بضعة كتب تتصل بتاريخ فلسطين والمواقع الجغرافية الفلسطينية والأدب الشعبي.

إن جامعة النجاح الوطنية لترجو بهذا العمل أن تحقق مزيداً من التفاعل الحضاري على الساحة الوطنية في جميع مجالات المعرفة، ونحن من هنا نهيب بكل المعنيين أن يبادروا إلى التواصل مع الموقع المخصص لدائرة المعارف الفلسطينية، وأن يزودوه بما لديهم من معلومات، وألا يبخلوا بملاحظاتهم وإبداء آرائهم لما في ذلك من نفع يعود على الجميع، ولا سيما أننا سننشر ما يرد إلينا على مسؤولية مؤلفه؛ تاركين للمتصفح حق الرد والتعليق والنقض، واعددين بأن ننشر ذلك من بعد في كتب تشكل أجزاء دائرة المعارف.

وتمثل هذه الدائرة، في حال إنجازها على الوجه المأمول، نجاحاً وطنياً كبيراً، يسهم في تحقيقه الفلسطينيون هوية وهوى، وإن فلسطين لتستحق منا ذلك وأكثر، ونرجو بهذا العمل أن نوفق إلى توثيق فلسطين وحفظ تراثها والتعريف بأعيانها وعلمائها ونعرف بمواقعها ومآثوراتها، فلا تطلها أيدي المعتدين، ولا يجور عليها الزمن بالعفاء والاندثار.

إن الشعب الفلسطيني، وبالرغم مما تواتر في ساحته من الأحداث، لقادر على النهوض بعزيمة الغير من أبنائه، لتحقيق أهدافه المشروعة، متحدية الاحتلال، ومتمرداً على ظروفه العصيبة، ومن هنا كانت مبادرة جامعة النجاح الوطنية إلى الشروع في إصدار أجزاء دائرة المعارف الفلسطينية، لتكون عوناً للباحثين، ومصدر افتخار لأبناء فلسطين، وهذا أوان الشد.

مقدمة

إن الشعوب التي تحرص على التواصل بين أجيالها المتعاقبة، وتحافظ على ذاكرتها يقظة حاضرة بشكل مستمر، لهي جديرة بالارتقاء في مراتب المجد، وبلوغ آمالها وتحقيق أهدافها؛ وإن أبطأ بها الزمان لما قد يعترض طريقها من عقبات كالاحتلال وتفرق الأسر ونقص الموارد، ولكنها لا تلبث حتى تحطم أغلالها، وتكسر قيدها، وتنطلق في مسيرتها بعزيمة وثبات.

وتسعى جامعة النجاح الوطنية بهذا العمل إلى تقديم أعلام فلسطين وأعيانها الراحلين لهذا الجيل ولمن بعده من الأجيال؛ ليتخذوا منهم قدى يحوكون على منوالها، ومشاعل على طريق تحقيق الذات للنهوض بالمشروع الحضاري الفلسطيني من حيث هو لبنة في ما تسهم به الأمة من دور في تشييد صرح الحضارة العالمية.

وستصدر هذه السلسلة من الأعلام في كتب متتابعة لتشكّل مع سلسلة « من الخابية » للمأثورات الشعبية، وخزانة فلسطين التاريخية، وخزانة فلسطين الجغرافية، وبنك معلومات القدس _ دائرة المعارف الفلسطينية، التي ترجو بها جامعة النجاح أن تخطو بالمجتمع الفلسطيني خطوة جبارة على طريق السؤدد الاجتماعي والمجد.

وسنكرر هذه المقدمة في صدر كل عدد من أعداد السلسلة، كما أننا سنجعل ترقيمها متسلسلاً بحيث يبدأ ترقيم الكتاب التالي من حيث ينتهي هذا الكتاب.

وقد حرصنا في تقديم الأعلام بما تيسر لنا من معلومات عنهم، بغض النظر عن الاختلاف بين مناهج المعدين، وتفاوت الموضوعات التي تغطيها التراجم المختلفة، إذ أننا تركنا المجال مفتوحاً للمعدّين لجمع ما يرونه من المعلومات عن هذا العلم أو ذاك، على نحو ما يجده المطالع في هذه السلسلة من تفاوت. وفي ترتيب الأعلام في أعداد الموسوعة لم نلتزم منهجاً محدداً في تتابعهم على صفحاتها، بل جئنا بهم عشوائياً؛ إذ لا سبيل إلى انتهاج آلية بعينها لتحقيق ذلك؛ لأن العمل لم يتوقف، فقد يدرج علم في موضع ما فنحصل على ترجمة لعلم آخر هو أولى منه به، فيختل بذلك نظامها، ولكننا سنقوم بإعداد فهرس شامل لدى اكتمالها، ونكتفي قبل ذلك بإصدار كشاف يلحق بأعدادها المتوالية؛ يتضمن بيان الموقع الذي ورد فيه كل علم ترجمنا له.

وجدير بالذكر أننا لا نحقق في صحة المعلومات الواردة في تراجم الأعلام، فذلك يحتاج إلى جهود لا سبيل إلى توفيرها، ولكننا، ومن أجل أن يظل الباب مفتوحاً أمام التصويب والتصحيح، لندرج من كل القراء أن يبدوا آراءهم في ما يقرؤونه، وأن يعقبوا عليه _ إن شاؤوا _ سلباً أو إيجاباً، لأننا نعلم أن بعض الأعلام كانوا _ وما زالوا _ يشكلون لغزاً يصعب حله، والتحقيق من أمره، ومرادنا هو أن نقدم للقراء صورة صادقة عن رموز حركة الوعي والنشاط الاجتماعي في فلسطين ملونة بألوانها التي تحملها مرددين مقولة « هذا نحن » بما لنا وما علينا.

كما نرجو من القراء الكرام أن يبادروا إلى الإسهام في إعداد هذه الموسوعة، وفي غيرها من فروع دائرة المعارف الفلسطينية، وألا يألوا جهداً في سبيل إنجازها على أكمل وجه وأوفاه، لأن فلسطين تستحق منا ذلك وأكثر منه، فقد دقت ساعة العمل، وحان الوقت لنفض غبار الزمن، ورفع راية التحدي الحضاري.

وكنيت في العقدين السابقين قد أصدرت نحواً من خمسة وأربعين مطبوعة تضمنت تراجم لكثير من أعيان فلسطين، ولكنني لم أتمكن من مواصلة إصدارها لأسباب مختلفة، حتى كانت مبادرة الأستاذ الدكتور رامي حمد الله حين أبدى رغبة الجامعة في إعادة إصدارها وتقصي سير الأعلام الفلسطينيين على أوسع نطاق ممكن.

وهنا لا بد من كلمة حق أنوّه فيها بجهود الأستاذ الدكتور رامي حمد الله، رئيس الجامعة، وضابط إيقاع أنشطتها المختلفة، وأثني على دوره الفعال في رفع شأن العلم والعلماء، وتشجيع الفعاليات الثقافية والعلمية في الجامعة والمجتمع، إذ لولا ذلك منه لما أتيج لهذا العمل أن يرى النور بصورته العتيدة. والله الموفق للسداد.

أ.د. يحيى جبر

نابلس في ٥/٥/٢٠١٠م

عادل زعيتر
1897 – 1957م

تأليف أ.د. يحيى جبر

عادل زعيتر

١٨٩٧ - ١٩٥٧ م

شيخ المترجمين العرب

(وفاء له في الذكرى الأربعين لرحيله)

تقديم

بقلم : وديع فلسطين

أستاذ علم الصحافة في الجامعة الأمريكية في القاهرة

أربعون سنة تقضت على مغيب علم الضاد المرفوع وحجتها المأمول وإمامها الكبير وعلامتها الجليل عادل زعيتر، الذي أطلعته دنيا العروبة لتفاخر به على مدى الدهر، وأنجبته مدائن المقدس لتزهى به على العالمين. فقد كان اليوم، الحادي والعشرين من شهر نوفمبر لأربعين سنة خلت، يوما أغبر في حياة الفصحى، إذ انطوت فيه صفحة الجهاد الأدبي المضني لهذا العالم الكبير؛ وهو في أوج علمه وقمة نشاطه وذروة آماله المعقودات. فخرست الضاد في عادل زعيتر طودا من المعارف وهرما من غزارة العلم. وحجة لا يقل شأنًا عن العباقرة الغربيين الذين قدّمهم إلينا من خلال مؤلفاتهم، وعرفنا بهم، وأوقفنا على كنوزهم، ودلّنا على تراث كان عنا مغيبًا.

عرف عادل زعيتر منذ باكورة عمره أن دنيا الفكر أعمر الدني جميعا، وأن رسالة الثقافة أخلد الرسائل طرًا، وأن مباحث العلم أقدس المباحث بغير استثناء، فاختار لنفسه هذه القيم الباقيات الفارعات، وهجر المحاماة وهي مقبلة عليه برفدها الوفير ومجدها الميسور، واعتزل التدريس الجامعي وشأوه المعهود، وانصرف عن حياة السياسة بخيرها القليل وغرمها الكثير، وعاش مع الكتب في غرفة تضم صفوة فكر، ويختار منها نفائس النفائس، ثم يعكف على نقلها إلى الضاد بأمانة الرسل وبسالة الجنود في ميادين الاستشهاد، يدين له البيان المجلو مطوعا بين يديه، وتنصاع له العبارة البليغة انصياع الماء في الجدول الثقيف ... ومحصوله يأتي في أوانه دائما؛ كل عام كتابان أو ثلاثة كتب، لا تقوى على إخراج مثلها مجامع بأسرها، وهي تؤوي فحولا من كبار المترجمين ولو عقدوا الخناصر، وقسموا العمل بينهم .

هذا عظيم من عظماء أمتة المخلدين، ازدرى وجاهة الحياة العامة، واستدبر لذات الحياة العارضة، ووأد بين جنيه مطامع الأرض وتُرّهاتها، وحصر دنياه كلها في قرطاس ومحبرة وكتاب ومطبعة، وهي دنيا - لو يعلم الناس - أرحب من أن تسع الدني جميعا، لأن الفكر أزلّي أبديّ سرمديّ باق، ولأن الحياة كانت في

بدئها كلمة، وستكون في خاتمتها كلمة، وكل الحضارات منذ فجر التاريخ، بل قبل مجيء التاريخ، قوامها الكلمة - النيرة الموحية الملهمة الخيرة النافعة، ولولا الكلمة، لجهل الناس حقيقة أنفسهم، ولعز عليهم أن يدركوا شيئاً من ألغاز الكون من حولهم، وبفضل الكلمة، نستشرف إلى عالم أفضل ونرود كل مجهول خفيت عنا معالمة.

مقدمة الطبعة الأولى

يسعد الجمعية العلمية الفلسطينية والدار لوطنية للترجمة والطباعة والنشر والتوزيع أن تتقدما من القراء الأعزاء بهذا السفر القيم «عادل زعيتر». ويستمد هذا الكتاب موقعه الأثير من انتسابه لذلك العالم الجليل، والعلم الراي الذي أتحف العرب والعربية بزبدة الفكر الأوروبي الحديث أملا في أن يسهم بأعماله في رفعة شأن الأمة ويمكنها من تدارك ما فاتها، فتطوّر لخدمتها، ونذر نفسه من أجلها.

عرفته المحافل على اختلافها سياسيا جادا لا يلين وحادا كالسيف، وعرفته المحاكم محاميا بارعا في الدفاع عن الحق والمظلومين، وعرفته معاهد العلم باحثا فذا، ومحاضرا بزا أقارنه بما أوتيته من بسطة في العلم، ومترجما رفد المكتبة العربية بعدد ضخم من الكتب القيمة لا سيما تلك التي أنصف الغربيون فيها العرب والمسلمين إذ كان لا يهدأ له بال حتى يعربها، فكان بذلك جسرا - ولا نقول حلقة وصل - بين العربية والثقافة الأوروبية الحديثة؛ إذ تذكّرنا جهوده المركزة وتخصّصه في النقل عن الفرنسية، والدور الذي نهض به في نقل المعرفة إلى العربية بترجمة العصر العباسي في دور النقل الأول: مثل الحرّاني وابن متى وابن إسحق، وبترجمة الحقبة الأندلسية إلى اللاتينية ممن كانوا أعلام دور النقل الثاني، كجيراردي كرهوني ويوحنا الإشبيلي وغيرهما.

نعم إن عادل زعيتر، شيخ المترجمين العرب في العصر الحديث، ليمثل هو وأعلام الترجمة المحدثين دور النقل الثالث، هذا النقل الذي كان أذانا بنهضة عربية إسلامية جديدة نحن اليوم في حماتها. وقد اجتهدنا في تكريم هذا العالم الجليل في الذكرى السنوية الأربعين لرحيله، فنشرنا على هامش الموسوعة التربوية بحثا تحت عنوان «عادل زعيتر وفن الترجمة» وذلك في مجلة التعريب التي تصدر في دمشق، وراسلنا جهات عدّة لتكريمه، منها اليونسكو، واستعرضنا مترجماته وآثاره، واتصلنا بأبنائه وأصدقائه نسأل عن أخباره، فأمدنا ابنه عمر وابنته نائلة بما مكننا من إنجاز هذا الكتاب.

وفي موعد الذكرى 97/11/21 نظمنا ندوة في مدينة نابلس واصلنا فيها احتفاءنا به، والتنويه بمآثره، وبدوره في رفد الثقافة العربية بما أطلعها على تجارب الغرب، لا سيما الفرنسيين مما ساعد في تجاوز أسباب التعثر والتخلص من أسر التخلف، كما نظم معهد العالم العربي بباريس سنة 1997م ندوة بالمناسبة شارك فيها المؤلف..

وقد قدّمنا لهذا الكتاب بمقالة لوديع فلسطين سبق نشرها، وأردفنا بسيرة حياته مفصّلة في موضوعات متفرقة تعكس مناشطه ومسار حياته، وأتينا عقب ذلك بالبحث الذي نشرناه في مجلة التعريب عن جهوده في الترجمة، وألحقنا ذلك بمقتطفات من أعماله ومما قيل فيه، وبعينات مختارة من مترجماته، وذيلنا الكتاب ببعض الصور والوثائق التي تترجم جوانب شتى من حياته، أملين في أن نكون بذلك قد أدّينا بعض حقه علينا ورحم الله عادلا في الخالدين.

فلا غرو أن يُفني عادل زعيتر المآجد المجيد عمره كلّ في سبيل الكلمة. وأية كلمة؟ إنها الكلمة المثقفة، الكلمة الدالة، الكلمة التي تفتح كوى العقل على مراتع الخير والرخاء، الكلمة التي تمكث في الأرض وتنفع الناس، فقد كان أمام عادل زعيتر صنوف وصنوف من المؤلفات، منها الروايات الرخيصة السريعة الرواج، ومنها الدراسات الرصينة التي تستهوي قلة من زبدة المختصين وأهل الرأي. وكان في وسعه اجتناء ثروات سريعة من ترجمة تلك الروايات الرخيصة التي تطلبها السوق وتلجّ في الاستزادة منها، ولكنه اختار أوعر الطريقين، وعكف على شوامخ الكتب وبواذخها يترجمها إلى الضاد الشريفة: ترجم لمونتسكيو، وجان جاك روسو، وفولتير، وكاراديفو، ولوبون، ورينان، ولودفيغ، ودرمنغم، وسيديو، وحيدر بامات، وأناطول فرانس، وبوتول، وإيسن، وكلها كتب تتناول المباحث الحضارية والتراث الإنساني والتاريخي والديني، والمذاهب الاجتماعية والنفسية للأمم، وتراجم الأعلام وفلسفات الفقهاء واتجاهات التربية. وإذا كنت كقارئ عادي أحمل لعادل زعيتر أسمى آيات الإعظام على فضله العلميّ السخيّ، فإنني كمترجم عانى مشاقّ النقل والتعريب، أرفع عادل زعيتر إلى مراتب قلّ أن يبلغها غيره من عتاة المترجمين في أي لغة، سواء من حيث ضخامة العمل الذي أنجزه ولم يُمهله القدر لإتمامه، أو من حيث الجودة في الاختيار والإبداع في الترجمة والإتقان في إخراج كتبه مشكولة مضبوطة محققة الأعلام والمواقع، بحيث تستعصي على الناقد ولو كان أزرق الناب طويل الباع.

إن ذكرى عادل زعيتر إذ تطوف بنا في هذه الأيام تجدد فينا لوعة الأمس على فقده، وتعيد إلينا صخائف مجده منشورة مرفوعة، وتنبهنا إلى أن هذا الرجل العظيم الذي خلت حياته من كل أسباب التكريم، خليف بأن تتسابق أمم العرب والإسلام جميعا إلى تخليد ذكره وتمجيد أعماله والحفاظ على تراثه المخطوط والمطبوع. فقد كان عادل زعيتر جامعة تؤمها أفواج وأفواج من طلاب العلم، وسيبقى باب هذه الجامعة مفتوحا المصاريع ما دامت بين أيدينا مترجمات عادل زعيتر الفاخرة (حضارة العرب) و(حضارات الهند) و(روح الشرائع) و(البحر المتوسط) و(النيل) و(السنن النفسية لتطور الأمم) و(تاريخ العرب العام) و(تلمك) و(بسمارك) و(نابليون) و(كليوباترة) و(حياة محمد) و(ابن خلدون) و(العقد الاجتماعي) و(ابن رشد والرشدية) وغيرها من المؤلفات التي نيفت على الأربعين، وتعددت أجزاءها وطبعات بعضها.

إن عادل زعيتر بيننا اليوم بروحه، وبيننا بقلمه النضير وفكره البصير ونتاجه الغزير، وبيننا بمآثره المخلّلات ومفاخره الباقيات. فلئن كان قد أبهظ كاهل الأمة العربية بديونه وأفضاله، فلا أقل من أن نذكره يوم وفاته تحية ووفاء وتكريما وإجلالا وإعظاما، وإن نضع على قبره لا وردة تذبل، بل عاطفة من الحب تتجدد وتتأجج، وأن نردد فيه آيات العزاء لأسرته الصغيرة ولأسرة الضاد الكبرى في أمصارها وأقطارها، ورحم الله نابغة العرب عادل زعيتر وأنزله أكرم المنازل في بساتين جناته.

العلامة عادل زعيتر

ولد عادل ابن الشيخ عمر زعيتر⁽¹⁾ في مدينة نابلس سنة 1897 وأتم فيها دراسته الابتدائية ثم انتقل إلى المدرسة الإعدادية في بيروت، وحصل على شهادة الآداب في الكلية السلطانية بالآستانة، وكان الأول في صفوفه، دُعي إلى الجندية في الحرب العالمية الأولى سنة 1916 وعُيّن ضابطاً احتياطياً في الجيش التركي، ولما اضطهد الترك العرب، ونشبت الثورة العربية هرب من الجيش العثماني، واجتاز جبل الدروز إلى قبيلة الرّولة فقبيلة الحويطات التي كان يتزعمها عودة أبو تايه. ولقي الهول⁽²⁾ حتى استطاع الانضمام إلى الأمير فيصل بن الحسين، وقد حكم الأتراك عليه بالإعدام غيابياً سنة 1917م.

وناب في عام 1919 عن مدينة نابلس في المؤتمر السوري بدمشق، وهو المؤتمر الذي أعلن استقلال سورية بحدودها الطبيعية، وأسهم في وضع دستور المملكة السورية لذلك العهد. واحتل الفرنسيون دمشق سنة 1920 فغادرها الفقيه مع أحرار العرب، وما لبث حتى دخل في كلية السوربون بجامعة باريس⁽³⁾ وفي أثناء الدراسة شرع يترجم بعض كتب الفيلسوف الفرنسي «غوستاف لوبون». ونال سنة 1925 شهادة الحقوق، وعاد إلى فلسطين ليصبح محامياً من أقدر محاميها وألمعهم، ودرّس من سنة 1927 إلى سنة 1936 الفقه الدستوري والدولي والاقتصاد السياسي والمالي وقانون المرافعات المدنية والجزائية في معهد الحقوق بالقدس، وكثيرون من أعلام المحاماة في فلسطين والأردن هم من تلاميذه، وله في محاضراته الحقوقية مؤلفات مخطوطة كان فيها الفقيه المتمكن من مواضيعه، وقد رافع متطوعاً عن المتهمين السياسيين في قضايا ثورة سنة 1929 بنابلس وصفد واضطرابات سنة 1930 وسنة 1933 وثورة 1936 وغيرها. ومثّل نابلس في جميع المؤتمرات الفلسطينية وناب عنها في لجنّتها التنفيذية، وكانت له في الصحف جولات سياسية بارعة عالج فيها القضايا الوطنية بقلم المفكر الوطني الناضج، كما عُرف بقوة الحجة في ردوده على ما كتبه السير آرثر واكهوب المندوب السامي بفلسطين في كتاب «حاضر الإسلام» وعلى المستر «ولكي» في كتابه «عالم واحد». واستقال من التدريس في معهد الحقوق وانقطع إلى العلم والأدب والسياسة المثالية وانكبّ على أداء أضخم رسالة ثقافية يمكن لإنسان أن يقدمها إلى أمته فنقل ثمانية وثلاثين مجلداً من روائع الفكر العالمي.

وحين نزلت بالأمة العربية كارثة فلسطين، وقامت الهدنة الرودسية، انبرى الفقيه إلى إعداد المذكرات والبيانات السياسية، ودعا إلى وحدة الصف الوطني والوقوف في وجه الكوارث، واتسمت تلك المذكرات بمصارحة ولادة الأمر في الأقطار العربية.

وانتُخبَ في سنة 1953 عضواً في المجمع العلمي العراقي، وانتُخبَ في سنة 1955 عضواً مراسلاً للمجمع العلمي العربي في دمشق، وأصيب - رحمه الله - بالنوبة القلبية وهو مُكبّ على نقل كتاب «مفكر الإسلام» للعلامة الفرنسي «كرادوفو» وقضى في اليوم الواحد والعشرين من تشرين الثاني سنة 1957 فشيعته نابلس ووفود الأردن باحتفال مهيب.

عُرف الفقيد في جميع أدوار حياته بالمثالية، والصدق والاستقامة، وبكل ما يدخل في المتانة الخلقية التي لا تُعرف في غير أئمة التصوف، إلى نزعة قومية مدرّكة واعية، إلى إيمان روعي عظيم، إلى أنفة تسمو به عن كل تبذل، إلى زهد في جميع شهوات الدنيا.

فقد حنان أمه السيدة «مهية بكر حماد» التي توفاهها الله وهو في الثانية عشرة من عمره، لكن اسمها والحديث عنها كان مستديماً، كما كان يتحدث بذكاؤها وقوة شخصيتها وفطنتها وخفة دمها، ويضرب في ذلك مثلاً حين قال: «..... كان في منزل والدي - أي الشيخ عمر - ضيوف أراد أن يقدم لهم عصير الرمان فأرسل لها يطلب ذلك، وللأسف لم تكن لديها تلك الساعة الفاخرة المطلوبة، فعاد «القهوجي» بسذاجته يردد أمام الوالد وضيفه: تقول عمتي أم عادل.... آسفة، وامان امان ما في رمان. فكانت نكتة ضحك لها الحاضرون».

وعلى ذكر آل حماد «أخواله» فقد كان رحمه الله يُكنّى لهم الاحترام كلّ، فخاله الحاج «نهر حماد⁽⁴⁾» الذي طالما استمتع الناس بمناقشاتهما، التي كانت تدور في مجملها حول الفقه والأمور الدينية والسياسية. كذلك كان إعجابه شديداً بعم والدته الحاج «توفيق حماد»⁽⁵⁾ الذي كان كثير التردد عليه. يقول عمر عادل: أذكر أنني سمعت منه أن جدي الشيخ عمر⁽⁶⁾ عندما أصبح رئيساً لبلدية نابلس توجه والحاج توفيق إلى الجامع، وأقسما فيه ويدهما على القرآن الكريم أن يعملوا جاهدين على قمع الغش والفساد ومحاربة الرشوة، والله على ما يقولان شهيد.

كما ذكرنا فقد حنان أمه وهو صغير، ولكن والده الشيخ عمر، ورغم مشاغله الكثيرة، عوض عليه ذلك الحنان بحنان ربما كان أكبر، وقد ملح فيه الذكاء وشغف المطالعة والاستعداد الذاتي للنبوغ، فبعث به من مدرسة إلى أخرى في نابلس وبيروت وإسطنبول حتى نال شهادة الآداب فيها، وكان يعامله منذ الصغر معاملة الكبار، ويصحبه في أغلب زيارته ليستفيد مما يدور فيها من نقاش وحديث. كما كان ديناً؛ يحثه على تلاوة القرآن الكريم، كما يساعده في تفهم معانيه، وكان يصحبه دوماً إلى المسجد للصلاة، ومن هنا نشأت فيه نزعة التدين والإيمان، ولازمته متانة خلقية رفيعة.

يقول ابنه عمر: لطالما سمعته وأشقائي يقول لنا «بأن الله هياً للمسلمين بالقرآن الكريم كتاباً ما فرط فيه من شيء، وبهذا التدبير حقق المسلمون في صدر الإسلام الفتوح والمجد والقوة، ولكنهم، مع الأسف، حين أهملوه ولم يعملوا به، وجعلوه لمجرد التزّم فقط، أخذوا بالانهيار إلى درجة الخطورة».

في بلاد الأناضول

إن التربية البيتية والمحيط العائلي والاستعداد الشخصي وحب العلم كلها أمور ساعدت في تكوين شخصيته الثقافية والدينية والوطنية، فما أن ذهب للاستانة والتحقيق بجامعة حتى غدا الأول في صفوفه، وما أن انتهى من تحصيله حتى برز اسمه وقد كتب على لوحة الشرف، ولكن انكباه على العلم لم يشته قط عن التحسس الوطني، فعمل جهاراً وسراً مع زملاء الدراسة من أجل أمته العربية، وهو القائل في حديث له نُشر في مجلة «العالم العربي» التي تصدر في القاهرة آنذاك «إن الدور الذي تمثله الأمة على مسرح التاريخ إنما يكون بنسبة قوة المثل العليا التي تخالطها، فإذا كان مثل الأمة الأعلى ضعيفاً أو مفقوداً،

فإن هذه تفسح لغيرها مجالاً للسيادة عليها، ولا سيما الأمم صاحبة المثل الأعلى. وإني أرى أن يكون المثل الأعلى للعرب في مختلف أقطارهم، هو الإيمان بالوحدة العربية، ومثل هذا الإيمان لكي يكمل، على العرب أن يستعدوا لأداء ما يتطلبه من بذل وتضحية تناسب جلال أهميته، فإذا اعتنقت الأمة العربية هذا المثل الأعلى، ولم تتخل عنه فلن يذهب جهدها سدىً، بل يظل مثلها الأعلى المنارة التي تهتدي بها».

الثورة العربية الكبرى

كان يشعر بمرارة لما كانت تعانيه الأمة العربية من تخلف وهي رازحة تحت مظلة الحكم التركي، ولكن ما أن أتم تحصيله العلمي حتى تم استدعاؤه للجندية، فعين ضابطاً احتياطياً في الجيش العثماني، ولا تمر فترة قصيرة على عمله هذا إلا ويشعر بأن الترك قد أخذوا باضطهاد العرب أكثر من ذي قبل، وكانت الثورة العربية قد بدأت بقيادة الشريف حسين بن علي، وهنا نورد حول هذا الموضوع فقرة من رسالة بعث بها إلى والده يقول فيها «..... وبينما كنت في تلك الحالة إذ طرق سمعي خبر قيام أمير مكة وخروجه على الدولة العثمانية وانتصاره للعرب وتلقيه بملكها، فطربت لهذا الأمر، وحصل لي من الوجد والفرح ما الله عالم به، وصارت نفسي تتوق للانضمام إليه».

بعدها بفترة وجيزة تجده يهرب من الجيش التركي للالتحاق بالثورة رغم ما في ذلك من خطر شديد على حياته وحياة عائلته المتواجدة في مدينة نابلس، ولهذا يحكم الترك عليه بالإعدام غيابياً...وقد واجهته أهوال كادت تميتة من شدة العطش، وهو في طريقه إلى قائد القوات الشمالية الأمير فيصل بن الحسين، وقد خاض مع قوات الأمير فيصل عدة معارك ناجحة أهمها معركة «أبي اللسن» غربي معان، وهناك قامت صداقات بينه وبين إخوان له يذكر منهم..مرزوق الخيمي، عبد الله الدليمي، صبحي العمري، نسيب البكري، عطا الأيوبي، محمد كرد علي، عبد الفتاح اليافي، مولود مخلص، صبحي الخضرا⁽⁷⁾ الذي تعاضمت صداقته وإياه إلى ما بعد الثورة وخلال العمل القومي إبان الانتداب البريطاني على فلسطين.

رحيله إلى مصر

في تاريخ 16 أكتوبر 1918 أرسل رسالة إلى والده، يؤذنه فيها بتوجهه إلى مصر بعد موافقة الأمير فيصل على ذلك فيقول: «.....توجهت نحو صاحب السمو الملكي الأمير فيصل قائد الجيوش العربية الشمالية بأبي اللسن، وشرحت له تطلعاتي للمستقبل، ورجوته أن يسمح لي بالذهاب إلى مصر «بلد الطهاوي والإمام محمد عبده الداعية الإصلاحية المتجدد وعبد الله النديم صاحب التنكيت والتبكيك واللطائف» كي أكتسب من العلوم ما يؤهلني لخدمة أمتي الخدمة الحقيقية بشكل أوسع وأفسح، فكان لي ذلك، ووصلتها ومعني من النقود ثلث ما بعثت به إلي. فاستأجرت غرفة واشترت ملبوساً وكتباً وغير ذلك من الحوائج الضرورية، ثم عكفت على الدرس بإرادة حديدية لا يثنيني عنها شيء، وشرعت أدرس كل يوم أكثر من عشر ساعات، فلما أن أدرك ما أطلبه من العلوم، أو أن أفنى وأكون من الهالكين. هذا وقد اتصلت بمن أؤمن بعلمهم ووطنيتهم حتى أستزيد منهم علماً ومعرفة...»

بعد شهر أرسل له والده الشيخ عمر رسالة هذا نصها: « ولدنا الأعز، وفقه الله آمين ... بعد الدعاء لكم والرضاء عليكم، أخذت كتابين منكم تاريخ 16 تشرين أول و 26 تشرين أول أيضا وبالنظر لوجود مرض سخونة معي تأخرت عن الجواب. أخوكم حسن منذ أربعة أيام أرسلناه للكلية في بيروت عن طريق حيفا. ولأن لم نأخذ خبرا عن وصوله، نسأل الله أن يوفقه ويرزقه المعونة. أما أكرم آخرنا إرساله للسنة الآتية، وقد وضعناه في مدرسة أهلية هنا. الكتابان اللذان أرسلتموهما وصلا لأربابهما. بقاؤكم بمصر بدون دخول جامعة ولا مدرسة بل لمجرد المطالعة أظن لا لزوم له، فإنه يتهيأ لكم المطالعة هنا في محل خالي كيفما كان الحال، وبهذه الصورة نتخلص من المصروف الزائد، أما إذا كنتم مصريين على انتخاب مدرسة أو كلية أو جامعة تدخلونها وتستفيدون منها فنعم المطلوب، أو التوجه لإحدى الجامعات في الخارج ... أو خلافها ... وهذا ما نود ونرغب. أما بقاؤكم في مصر لمجرد المطالعة وتوفر أسباب الانزواء وهذوء البال، فهذا يتوافق معكم هنا أيضا، ولذلك توقفت عن إرسال كتبكم التي طلبتموها. وبقية الحوادث والأحوال تعلمونها من الأخ الحاج سعيد أفندي كمال، الذي يتوجه غدا للقاهرة لأجل التجارة. الجميع بخير يسلمون عليكم، ودمتم بهناء وتوفيق».

على كل حال، بعد فترة وجيزة عاد إلى بلاد الشام، ومما ينسب إليه أنه قال ذات مرة أنه فوجئ بالأساليب المتبعة «آنذاك» بالأزهر الشريف، وأن أقصى ما يهدفون إليه هو علم الفرائض والمواريث والشريعة... الخ وأنهم لا يهتمون بالعلوم والفنون الأخرى ويعتبرونها من فروض الكفاية، أي إذا قام به البعض سقط عن الآخرين وكان يضرب مثلا بأفكار الشيخ عبد الله الشبراوي والشيخ سليمان المنصوري وغيرهما. كما كان يقارن بين الأزهر ومدارس بغداد عصر المأمون في المشرق ومدارس قرطبة في المغرب، وكان يرى أن أساليب التعليم في الأزهر ذلك الوقت ما هي إلا تحجير للعقول وقيد على حرية التفكير.

فعلم الكيمياء مثلا ما هو إلا سحر للمعادن وخلط للسموم، والفلك كذب وتنجيم، وعلم المنطق جدل بيزنطي وسفسطة، إلى أن ينتهي فيقول: إنه تباحث مع بعض المتبحرين في أمور العلم الحديث فأجابوه أن هذا من بدع أهل البطالة! ... وهذا لا يعني أن مصر لم تتجب الكثير من الأفاضل أمثال المغفور لهم حسن العطار وأحمد الدمنهوري والجبرتي وغيرهم رحمة الله عليهم.

رسالة الرد:

سيدي الوالد المحترم

شرفني أمركم، وقد قرأته أولا وثانيا وثالثا، فحمدته جل جلاله على آلائه التي عودنا عليها، ودعوته أن يعم بالخير بلادا أفضلها على غيرها، إنه على ما يشاء قدير. سألتكم عن أناس وماذا حل بهم أيام الفوضى فأخبرتموني أنه لم يمسسهم سوء، وقد بلغني أن الخال حسن أفندي حماد⁽⁸⁾ قد قر من نابلس ولا يعرف الآن مكانه، فهل لكم أن تنبؤني؛ صحيح الخبر؟ أفهمتموني أنكم وليتم نابلس عند انجلاء الترك عنها فقلدتكم من الحكام من تشاؤون⁽⁹⁾ ولم تبحثوا ماذا فعلتم بعد دخول الإنجليز الممقوتين، وتصورون حالة بلدنا كأني فيها وإن كنت بعيدا عنها، حيث تعلمون أن حرصي على مصير بلادي أكثر من حرصي على نفسي، كما أظن أنكم تقدرون مقدار اهتمامي الزائد بشؤون عمي⁽¹⁰⁾ كما وتعلمون مدى احترامي له وتقديري إليه.

تسألونني عن أحوالي وتستشيرونني بخصوص أخي حسن، فترددت في بادئ الأمر إبداء ما يتعلق بشخصي، لكنني ونزولا عند رغبتكم، سأبين ما هو مضطرب بين أحشائي وكامن بين جوانحي قائلا: إن لم أستطع أن أبين كله لم أترك جله، وها أنا أبدأ كلامي متوسلا إلى الله تعالى أن يرينا الحق حقا فتنبهه والباطل باطلا فنجتنبه.

خلقت ومعني كغيري من الناس صفتان، إحداهما ما ورثته من آبائي وهو السجية⁽¹¹⁾ والثانية الاستعداد. فأما الأولى فهي تظل في الإنسان من مهده إلى لحدته لا يغيرها طارئ من طوارئ الدهر، ولا حادث من حوادثه كالعصبية، والاعتدال في السير وغيره بل تعدلها الصفة الأخرى بعض التعديل، وذلك بما يرى المرء ما عليه أبواه، وأقاربه ثم أهل جنسه، وما يدرسه في مدرسته من خير وشر، فيأخذ ما يهوى إليه. ولكوني نشأت بين يدي والد عابد في بلد دين فقد غرس في نفسي محبة الإيمان منذ صغري، وطفقت أجوب المساجد علني أشعر بزلة في نفسي فأقبلها وأهتدي إلى فضيلة فأقتنصها، وقد مضى علي وأنا في تلك الحالة أعوام، تنقلت فيها من مدرسة إلى مدرسة، تظهر لي بعض حقائق نورتي قلبي، وثبتت عقيدتي، وجعلتني أميل كل الميل في تنمية ما ربيت عليه فأنشره، وبذلك أقوم بواجبي نحو ربي الذي يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم. وقد أبنت ما في قلبي بكتاب أرسلته لكم قبل سبع سنين، وكنت وقتئذ في الآستانة، فأوجب جدالا كانت نتيجته سلبية، ولهذا عوّلت على الاكتفاء بما درسته من علوم الشرع والانتساب إلى شعبة من شعب الفنون الأخرى. ولما كانت دروس الحكمة والتاريخ من أعظم ما تطيب له نفسي، وتهدأ لأجله روحي، فقد أخذتها لتكون لي مسلكا في مستقبل الأيام، فأستضيء من نورها وأستمد من غيثها. وما هي إلا جولة أو جولتان جلتها في صحائف هذه العلوم إلا وانكشف لي ما كان مستورا، فعرفت العالم القديم والحديث، واطلعت على آثارها، وعلى ما شيده أبنائها من قصور المجد وآطام الفخار، وصرت عندما أقرأ تاريخ اليونانيين أو المصريين القدماء مثلا، أخال أنني موجود بينهما، أعيش كما يعيشون وافكر كما يفكرون، وأرى كما يرون، وأسمع كما يسمعون، حتى وصلت إلى البحث الخاص بالأمة العربية فرأيت ما رأيت.... رأيت أمة سمت إلى ذرى العلياء، ثم انخفضت إلى أحط الدرجات، فطربت لرقبها وبكيت لانحطاطها، كيف لا أسرّ لارتفاعها وقد كانت تائهة في تلك القفار المظلمة، لا رائد لها سوى ذكاء كانت تستعين به لأكل بعضها بعضا، حتى ظهر النبي صلى الله عليه وسلم، وحاول إصلاح بينها بما أوحى إليه ربه، فلاقى في سبيل ذلك من الاضطهاد ما جعل عمه أبو طالب ينصحه بترك الدعوة، وقد أجابه بقوله: « والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت هذا الأمر » وظل يدعوها إلى النهج القويم حتى رجعت عن غيها واتحدت، فكانت كأنها بنيان مرصوص، سخرت المشرق والمغرب، ولم يغير بذلك أميرها؛ عمر بن الخطاب، إذ كان لا يفرق نفسه في المعاش واللباس من أفقر الناس، حتى قال في حقه رسول كسرى، وقد رآه مستغرقا في نومه بأحد مساجد المدينة « أمنت لما أقمت العدل بينهم، فنمت نوم قرير العين ». بل لم تردد إلا قوة على قوة، وقد ترجم عما يخالج صدرها من العنفوان، ذلك القائد العظيم، عقبة بن نافع بعدما دوخ بلاد الغرب بقوله: « والله رب محمد لولا أن أمواج هذا البحر تعوقني، لذهبت أنشر اسمك العظيم في أقصى حدود الدنيا ». ولم يمنع ذلك الإمام مالكا، عن الامتناع عن إلقاء درسه في الحرم النبوي، عندما رأى الخليفة هارون الرشيد جالسا على كرسي أمامه، لأجل استماع وعظه وهو يقول: « لا فرق عندي في الدرس بين الغني والفقير، ولا بين الملك والمملوك » فاضطر هارون الرشيد، بأن ينزل عنه ويجلس بين الناس، ولم يقابل مالكا إلا بالإعجاب والغبطة، والرشيد معلوم عند الملأ

ما كان عليه من شدة البأس وقوة السلطان، فكانت تدوي لكلامه صدور الملوك، وتخرّ من هيبته الجبال الراسيات، وكان فعله يسبق قوله، وذلك ظاهر في كتابه الذي أرسله إلى ملك الروم في القسطنطينية، عند امتناعه عن تأدية الخراج وهو «بسم الله الرحمن الرحيم: من هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى الملك نففور كلب الروم: قرأت كتابك يا ابن الكافر، والجواب ما ترى لا ما تسمع».

ثم كيف لا أبكي ولا أفجع من اندثارها وقد كانت تملاً الخافقين فخارا، فانتقلت من أعظم العز والشرف إلى أدنى درجة الذل والهوان، وصار العبد سيّدا والسيد عبدا. فالأتراك الذين جلبهم خلفاء بني العباس في حروبهم من بلاد المشرق، وأنعموا عليهم وقربوهم، وجعلوا منهم الحرس والولاة والأمراء، لم يقابلوا من أسدى إليهم هذا الإحسان إلا بالكفران، فخرّبوا ما كان قائما، وأذلّوا من كان رفيعا، ورفعوا من كان سفيها، فقتلوا الأمراء وأماتوا الفقراء، وطغوا في البلاد فأكثرُوا فيها الفساد، حتى صار الخليفة إذا قصر في العطوة يثورون عليه، ويخلعون، ثم يقلعون عينيه، ويبقرون بطنه، ويجرونه في الأسواق مضرّجا، لا يلقي نحوه إلا عيوناً باكيات، وأفواها نائحات، وقد ظلّ الأمر يجري على هذا المنوال حتى استفاد من هذه الفرصة قبائل المغول والتتار، وهم من جنس الترك، فهجموا على المملكة العربية تحت قيادة جنكيز خان وولده هولاكو من بعده، فأهلكوا الحرث والنسل، وقتلوا ما يزيد عن عشرين مليوناً، من نساء وأطفال وشيوخ، وكانوا إذا أتوا بلده يهدمون مبانيها ومساجدها، ويحرقون كتبها، ويقطعون نباتها، فصارت هذه الوحشية مثلاً بين الناس بقولهم «لا ينبت نبات على أرض داسها تركي» ثم جاؤوا إلى بغداد، فقتلوا الخليفة المستعصم بالله مع كل الساكنين فيها الذين يربو عددهم على مليوني نسمة، ورموا كتبها في نهر دجلة، فشكلوا منها قناطر مرّت عليها جيوشهم إلى ضفة النهر الأخرى، وبذلك أزالوا ما أبدعه العالم من الآثار والمدنية في عدة قرون بأسبوع واحد.

هذا في الشرق، وأما الغرب فقد حدث فيه ما يفتت الأكباد حزناً، وتهوي له الأفلاك عجباً، وغاية ما يمكنني أن أقوله في هذا الأمر، أن الأندلسيين العرب، الذين مدّنوا العالم الغربي، قد وثب عليهم الإشبانيون وثبة الوحش المفترس، فقتلوا منهم ما يزيد على أربعة ملايين رجل، وطردوا آخر ملوكهم؛ أبا عبد الله الصغير، الذي كانت قاعدة ملكه غرناطة، فودّع ما شيّده أجداده من صروح المدنية بعبرات، وأمه تخاطبه بقولها:

ابك مثل النساء ملكاً مضاعاً
لم تحافظ عليه مثل الرجال

وإنكم لتروني منذ اطلعت على هذه الكلمة أكرها كل يوم مرة أو مرتين، فتتقد في قلبي نار لا أطفئها بنشيج آخر، ولكن بقوله تعالى: «ولا تقنطوا من رحمة الله» وقد عزمت على الجد قدر استطاعتي، علني أصبح ممن هداهم الله، فأخدم أمتي وأكون من المخلصين، فصرت أرى ما يقربني من ذلك سعادة، وما يبعدني عنه شقاء وآلاماً.

هذا، وتروني منكبا الآن على مطالعة كتب ابن حزم الأندلسي، وابن خلدون وابن تيمية وابن رشد، والغزالي وأرسطو وغوته ونيتشه وغيرها، كما لا يفوتني مطالعة شعر المتنبي وأبي العلاء المعري، وهما لدي الأفضل.

هذا ما يخصني، وأما ما يخص أخي حسن فما هو رأيي في ذلك: تعلمون أن لكم أربعة أولاد ذكور، فأما كبيرهم «يعني نفسه» فقد وقف نفسه لربّه وأمتّه، وأما ثانيهم نبيه فلا كلام لي في حقه، وأما ثالثهم ورابعهم، فهما اللذان يمكن أن يكون فيهما كل صلاح يرجى منه الخير لهما. إن حسنا لم يتجاوز سنّه الخامسة عشرة، وأكرم لا يتجاوز سنّه الإحدى عشرة، وكلاهما ذو ذكاء فطري، يؤهلها من اكتساب الشيء الحسن وفهمه والابتعاد عن الرذيل وطرده.

إن العلوم وحدها لا تكفي المرء، فيلزمه أخلاق مرضية بجنب علمه، وإلا ظلّ ما تعلمه وبالا عليه، وكان من الخاسرين، ولذا وجب علينا أن نجد لهما مدرسة تزيّنهما خلقاً وعلماً. ولا يمكننا أن نحكم أن التربية الفلانية جيدة، والأخرى رديئة، والثالثة بين هذا وذاك إلا إذا فحصنا نتائجها، فیتجلى أمام عيوننا حلوها ومرّها. من المعلوم أن لكل أمة بحث عنها التاريخ طبائع وعادات مختصة بها، فما هو مقبول عندها في بعض الأوقات منفور منه عند الآخرين.....»

إلى هنا ينتهي ما توفر من الرسالة المفقودة وتكملتها، مما لا شك فيه أنها تضمنت وأوضحت الكثير من آرائه وأفكاره وأحاسيسه دون تكلف.

المؤتمر السوري

بعد فترة وجيزة عاد إلى حلب فنابلس، ولما يمض بعض وقت قصير حتى تراه في آذار من عام 1919 يمثل نابلس في المؤتمر السوري، الذي أعلن استقلال سورية بحدودها الطبيعية، ورفض كل وصاية أو حماية أو انتداب، وأسهم في وضع دستور المملكة السورية لذلك العهد، ومذ تلك السنة نشأت علاقة صداقة بينه وبين العالم والمصلح الديني «محمد رشيد رضا» رئيس المؤتمر السوري، صاحب مجلة «المنار» ومؤلف «تفسير القرآن الكريم».

وقد تسلّم بتاريخ 2 آذار 1920 رسالة من الأمير فيصل الذي كان لا يزال قائداً للجيش العربية الشمالية، ثم غدا بعد ستة أيام ملكاً على سورية... هذا نصّها.

الأستاذ عادل زعيتر

أيها السيد الكريم،

إن الأمة العربية لتفخر برجالها المخلصين، الذين يجاهدون في سبيل تحريرها وإعادة مجدها. وقد بلغنا ما قمتم وتقومون به من الأعمال الجليلة، في تحقيق هذه الأمنية الشريفة، الأمر الذي يستدعي الشكر والتقدير، وإننا لنأمل من همّتكم المثابرة على هذه الخطة الحميدة. ولا ريب أن مستقبل كل أمة هو بأيدي أبنائها. فعلينا أن لا نفتر عن المطالبة بحقوقنا والدفاع عن وحدتنا. والله يتولاكم بتوفيقه. 12 جمادى الآخر سنة 338 و 2 مارس سنة 920.

فيصل بن الحسين

ولا بد من الإشارة إلى رسالة بعث بها والده إليه، وهو التلميذ في الآستانة، ولما يتجاوز السابعة عشرة من عمره يقول في نهايتها «.....» ثم عندما تذكرون أحد الإخوان في تحريككم تذكرونهم بدون تكريم ولا

احترام مثل لفظة «أفندي»، فهذا مُنافٍ للآداب والإنسانية وحرمان صاحب الحقّ حقه، فلو رأيْت واحداً خاطبني بلفظة عمر فقط، أو كتب ذلك بتحريره أيضاً، بالطبع أتكدّر، وتكون من أنواع الغيبة فاجتنبوا ذلك. أما قضاء فرض بدلا عن السنّة المؤكدة إن لم يكن الجمع بينهما فأقول: المكلف إذا كان عليه فروض يلزمه أدائها، فتسديد الحق أولى من النافلة، وقضاء الفرض أمر لازم، لأن تركه يستلزم العقاب، وتأخيره كذلك، وهو الأفضل، مثلاً إذا كان عليكم دين لإنسان فمن الأفضل إيفاء الدين أم الصدقة؟ بالطبع وفاء الدين أمر لازم شرعاً، والله الموفق للصواب.

24 ذي الحجة سنة 331

التوقيع

والدكم عمر زعيتر

لقد وُفق أثناء وجوده في مصر، واتصاله بالعديد من العلماء ورجال الفكر، للوقوف على مختلف الآراء الثقافية، فوجد منهم فئة مؤمنة، ومقتنعة بآراء الشيخ الشبراوي والمنصوري وغيرهما، التي تقوم على الخصوص في التركيز، والاهتمام المطلق بعلم الفرائض والمواثيق الخ..... واعتبار العلوم والفنون الأخرى «فروض كفاية» أي إذا قام بها البعض سقطت عن الآخرين. وأخرى تعارضها وتبشّر بآراء العلماء: العطار ورفاعة الطهطاوي ومحمد عبده والأفغاني الداعية للإصلاح والتطور.

وكم كان يردد بألم قول الإمام محمد عبده «الأديب في الشرق يموت حياً ويحيا ميتاً». وقد رأى بأن المدرسة الأولى ما هي إلا تحجير للعقول، وقيد على حرية التفكير، وأما الثانية ففيها اعتناق ثقافي بشكل موضوعي قد يؤدي إلى انبعاث جديد في حيوية الأمة، وهذا يطابق أفكاره وآراءه التي نشأ عليها وآمن بها. كما آمن بحتمية التفاعل الحضاري، فما من أمة تريد أن تجاري تطورات العصر، وتصبح لها حضارة مرموقة، إلا كان عليها التفاعل مع الحضارات الأخرى، فتأخذ منها وتعطيها، وكيف أن الغرب لأجل بناء حضارته، اقتبس من الحضارات التي سبقت، كالعربية واليونانية والرومانية الشيء الكثير الكثير في مختلف العلوم والفنون، فنقلها واستفاد منها وانطلق، بينما المؤسف في الحضارة العربية، أنها أخذت في التثاؤب والركون إلى الاسترخاء، بل تهادت إلى ابعاد من ذلك في السير بخطى حثيثة نحو التخلف إلى درجة خطيرة، تهدد وجودها كأمة. من هنا تجده يذكر في رسالته «المنشورة» لولده الشيخ عمر «..... رأيْت أمتي سمت إلى ذرى العلياء، ثم انخفضت إلى أحط الدرجات، فطربت لرقيها، وبكيت لانحطاطها» ومن هذا الإحساس يستطرد في الرسالة نفسها «..... إما أن أدرك ما أطلبه من العلوم، وإما أن أفنى وأكون من الهالكين» إلى أن يقول: «وقد عزمت على الجدّ قدر استطاعتي، علني أصبح ممن هداهم الله، فأخدم أمتي وأكون من المخلصين». من هذا الإحساس القومي انكبّ «عادل زعيتر» على دراسة اللغات الأخرى من فرنسية إلى إنجليزية؛ حتى يقف بنفسه على ما أنتجه الفكر الأوروبي الحديث من علوم، وقد أسهب في التركيز على اللغة الفرنسية بشكل خاص، حتى أجادها وأتقنها إجادته وإتقانه للغة العربية. وكما بيّنا ذهب إلى نابلس ومنها توجه في آذار سنة 1919 إلى دمشق ليمثلها في المؤتمر السوري، الذي أعلن استقلال سورية بحدودها الطبيعية. وفي دمشق 29 مايو سنة 1921 مثل نابلس في المؤتمر الفلسطيني الرابع المنعقد في القدس، برئاسة موسى كاظم باشا الحسيني.

بعد هذا المؤتمر مباشرة توجه إلى فرنسا، للالتحاق بكلية الحقوق في جامعة باريس، وما إن استقرّ به

الأمر هناك، حتى غدا ركناً من أركان الجمعية السورية العربية بباريس. كما أخذ في الاتصال والتعرف إلى بعض علماء فرنسا وفلاسفتها، فيحضر مجالسهم وندواتهم، ويذكر منهم على الخصوص الفرنسي الدكتور «غوستاف لوبون»⁽¹²⁾ الذي رأى فيه الأكثر بين علماء الغرب إنصافاً للعرب، وقد أعجب به الإعجاب كله واعتبره أستاذاً له.

بدء إنتاجه الثقافي

بدأ إنتاجه الثقافي وهو تلميذ، كما ظهر ذلك في رسالة بعث بها من باريس، إلى والده الشيخ عمر زعيتر مؤرخة في 5 شباط 1923 حيث يقول «... ربما يمرّ بخاطركم وأنتم تنفقون علي عن الصورة التي قضيت بها عطلتي الصيفية التي امتدت أربعة أشهر، وعن الطريقة التي أسير عليها بعد مباشرتنا الدروس فأقول: لقد أقلعت بعد الفحص عن المطالعة أياماً، حتى زال عني شيء من التعب، ثم فكرت فيما أعمله لأخدم أمتي التي نذرت نفسي لها، فتذكرت أن المرحوم فتحي باشا زغلول، أخا الزعيم المشهور سعد باشا زغلول، قد ترجم للعلامة الفرنسي الشهير، الدكتور غوستاف لوبون كتابين، وهما «روح الجماعات» و«سرّ تطور الأمم» ووعدني هذا الأخير أن ينقل إلى العربية كتابين آخرين للعلامة المذكور وهما «روح السياسة» و«روح الاشتراكية»، وإن المنون حالت دون إنجاز وعده، فتمنيت لو أتم عمل المرحوم المشار إليه، فطلعت هذين الكتابين، وإن كنت قرأتها قبل مجيئي إلى باريس، فرأيت نفسي قادراً على ترجمتهما، فباشرت بأصغرهما وهو «روح السياسة».

وبعد أن ترجمت منه ما يزيد على خمسين صفحة، بلغني أحد أصدقائي أن أحد كتّاب الأمة سبقني إلى ترجمته، وهو يترقب فرصة لطبعه، فصرفت النظر عن ذلك، وشرعت في ترجمة الكتاب الثاني وهو «روح الاشتراكية» وإن كان مؤلفاً من خمسمائة صفحة كبيرة، أي أنه يزيد على مجموع صفحات كتابي روح الجماعات وسرّ تطور الأمم بمائة صفحة، وعلى ذلك أكون ترجمت كل يوم خمس صفحات، وقد كانت ترجمة الصفحة الواحدة مع تبويضها تستغرق معي ساعة ونصف الساعة، وإني أؤكد لكم بأنني لم أذق طعم الراحة أيام الترجمة، وقد صادف اليوم الأخير من الترجمة، اليوم العاشر من شرونا في الدروس الحقوقية، وقد شهد لي من اطلع في باريس على ترجمته، من الواقفين على اللغتين، بأنه لا يقل عن ترجمة كتابي فتحي باشا زغلول أسلوباً، ويفوقهما سهولة وسلاسة.

وللدكتور لوبون كتابان آخران وهما «روح التربية» وله قصة و«روح الثورات» وقد عدّهما العلماء خير ما كتب في موضوعهما، وما أن الواجب يقضي عليّ بأن أترجمهما إلى العربية فإنني شرعت في ذلك. ولن يمضي عام حتى أكون أكملت ترجمتهما إن شاء الله. ولا تستدلوا من هذا القول على أن قيامي بمثل هذه الأعمال يعنني من الالتفات إلى الدروس الحقوقية، فروح الاشتراكية الذي ترجمته، هو كتاب يبحث في علم الاجتماع والإدارة والاقتصاد السياسي والسياسة، وإنا لندرس جميع هذه العلوم في الجامعة الباريسية، وكذلك روح التربية وروح الثورات. وأما دروسنا الرسمية فإنني قد خصصت لمزاوتها كل يوم ثماني ساعات، وهذا وقت كاف على ما اعتقد.

بينه وبين عبد الله السنو

نشأت صداقة قوية بين عادل زعيتر والأستاذ عبد الله المشنوق (13) منذ ترافقا في الدراسة في جامعة باريس، واستمرت هذه الصداقة حتى انتقال المرحوم زعيتر إلى جوار ربه، فرثاه الأستاذ المشنوق بتاريخ 12 كانون ثاني 1957 في صحيفة «بيروت المساء» بمقال افتتاحي تحت عنوان «الوسيط الأول» يقول في بعضه «.....ولكي نقدر هول الخسارة التي نزلت بالمكتبة العربية، بوفاة فارس ميدانها الأول، يحسن بنا أن نستعرض ما أخرجته الهيئات الرسمية، في مختلف الأقطار العربية من ترجمات ... ونقارن بينها وبين ما أخرجها عادل زعيتر وحده - من حيث العدد والنوع والمثانة، لنعلم أن خسارتنا في عادل هيئات أن تعوّض.

- كنا ندرس الحقوق معا في باريس، وكان يطلعني على ترجماته لغوستاف لوبونوما أنسى أنني انتقدت ذات ليلة جملة من جمل كتابه، وكنا في غرفته بالفندق فوافقني على رأيي. وذهبت إلى فندقي منتصف الليل.
- حوالي الساعة الواحدة - وأنا أغط في نومي - يُقرع باب غرفتي، فأستيقظ مذعورا .. من هذا الطارق؟ فإذا بعادل يطل عليّ بابتسامة الظافر ويقول:
- - أنت مخطئ وأنا مصيب.
- قلت له معاتبا: ألم يكن بوسعك أن تترك هذا التصويب إلى الصباح؟.
- وأعدنا قراءة الجملة الفرنسية والترجمة العربية... وأقنعتني، رحمه الله، بأنه ما يزال مخطئا وأني ما أزال مصيبا» إلى أن يقول:
- « كان حجة في القانون، ولكنه انصرف عن دنيا المحاماة إلى دنيا التأليف والترجمة، فقام بمهمة التأليف والترجمة بمفرده، بالنيابة عن الدول العربية العشر، وأنتج وحده أكثر مما أنتجت متضامنة جامعة الدول العربية من ترجمات للروائع.
- عاش بين الورق والحبر، ورأى الحياة كلها ورقا وحبرا....ولكنه ما خط على القرطاس بقلمه إلا ما يرفع به رأسه عاليا، ورأس الأمة العربية ورأس الثقافة الإنسانية.
- وإذا كانت الترجمة وسيلة من وسائل التقارب بين الأمم، فقد كان عادل زعيتر الوسيط الأول في العالم - بأسره - رحمه الله عدد صفحات كتبه، بل عدد سطورها وألفاظها ... فقد كان نسيج وحده في دنيا التأليف والترجمة» .

بينه وبين طه حسين

أما قصته والدكتور طه حسين، فقد أثرت من جديد في أوائل الخمسينيات، حين ظهرت في القاهرة، وفي آن واحد، ترجمتان لكتاب «نابليون» للعالم الألماني إميل لودفيغ⁽¹⁴⁾ إحداهما نقلها إلى العربية الأستاذ عادل زعيتر، والأخرى الأستاذ محمود الدسوقي، تلميذ الدكتور طه حسين، الذي كان يرأس آنذاك تحرير مجلة «الكاتب المصري» فنشر طه حسين في مجلته مقالا قُرْط فيه ترجمة الدسوقي، وغمز من ترجمة زعيتر، فتألم من ذلك كثيرا، لشعوره بأن طه حسين كان متجنبا فيما ذهب إليه، وخلافا لما ينتظر من مثله، وعلى الفور تذكر قصة ما حدث له وبعض زملائه في باريس « أوائل العشرينات» عندما ظهرت ترجمة

الأستاذ طه حسين لكتاب «روح التربية» للدكتور غوستاف لوبون، وكثر التردد عليه، فقد حمل الكتاب المترجم مع زملاء له في الدراسة هم السادة: عبد الله اليافي وعبد الله المشنوق وموفق الألوسي ونجيب الأرمنازي، وقدموه للدكتور لوبون مزهوين وفخورين بالأديب العربي طه حسين، متوقعين بأن يُسرّ لوبون بأن كتبه قد أصبحت تنقل إلى العربية، ولكن ما حصل كان العكس تماما، إذ ما أمسك لوبون بالكتاب المترجم حتى أخذ يروّزه روزا بيديه، وقال : « يظهر أن لغتكم مختصرة جدا لدرجة الاختزال! ... أو يظهر أن هذا الكتيب تلخيص لروح التربية! »

ويقول ابنه عمر : سمعته وهو يروي ذلك الخبر سنة 1949 لبعض زائريه في فندق شبرد بالقاهرة، ويستطرد والذي قائلا: « تصورون كم كان ذلك محرّجا لنا، وكما تلعثنا في الرد عليه، وما أن شربنا الشاي حتى خرجنا من لدنه مسرعين متعثرين، وصممت في نفسي أن أعيد ترجمته بشكل أمين ... لكن ظروف في الدراسة في باريس حالت دون ذلك . »

ولكن لم يمض عام حتى نقل الأستاذ زعيتر كتاب روح التربية بأمانته المعهودة، ويخرج الكتاب بحجمه الحقيقي الذي يربو على الثمانمائة وخمسين صفحة، أي ضعف حجم الكتاب الذي ترجمه طه حسين تقريبا، وقد أشار في مقدمته إلى ما حدث مع الدكتور لوبون، وبهذا يكون قد انتصر لنفسه بما يفيد أمته والمكتبة العربية.

برقية رسالة

في الثامن والعشرين من يوليو سنة 1924 أرسل لوالده برقية، ينبئه فيها بأنه أنهى دراساته الحقوقية بنجاح، وبأقل من الوقت المقرر، ويستأذنه في متابعة تحصيله العلمي لنيل شهادة الدكتوراه ... وفي 6 أغسطس 1924 أجابه الشيخ عمر برسالة بين فيها رأيه؛ وهذا نصها :

ولدا الأعز، وفقه الله آمين ..

السلام عليك ورحمة الله وبركاته. أخذت «تلغرافك» المنبئ بنجاحك، فسررت جدا لهذه الموفقية، وشكرا لله على نعمائه، أما الستة عشر درسا التي أشرت إليها، والذي يقتضي تحصيلهم في سنة وشهرين من الأستاذ لتحوز على لقب دكتور ليصبح التحصيل كاملا هذا صحيح، ويقتضي على كل إنسان أن يسعى لذلك. أنا الآن في ضائقة مالية شديدة، وعلاوة على ذلك أخوكم أكرم أكمل دراسته هذه السنة، ويلزم إرساله للكلية التي لا يقل مصروفها السنوي عن التسعين جنيها تقريبا فكيف العمل؟كل هذه المدة ما ذكرت أنني في ضائقة ولا أشرت إشارة، خوفا عليك من التشويش، وحرصا على سلامة فكرك وراحتك، فما العمل يا ترى؟ وهل يمكن دراسة تلك الدروس في فلسطين بهذه المدة وتعود إلى باريس لأداء الامتحانات؟ فإن أمكن ذلك كان بها، وإلا فلتبق هناك، وتحمل المصاريف، ونطلب من الله العون. فعلى كل حال أقول إليك .. أنت حر فيما تريد من الإقامة في باريس أو العودة لنابلس، وأنا أسأل الله أن يوفقك لما فيه خير أمتك وخيرك، فأريد أن تكون على كل مرتاح البال، ولا تدع شيئا يخطر على بالك ويمنعك من التحصيل.

العموم بخير، يسلمون عليك، والله الموفق 6 أغسطس 1924م.

التوقيع

والدكم - عمر زعيتر

بعد هذه الرسالة التي تنم عن عاطفة كبيرة، وحرص شديد على مستقبل نجله لما فيه خير أمته وخيره، ارتأى زعيتر البقاء في باريس والتحضير لنيل شهادة الدكتوراه، لكنه لم يدر أنها ستكون الرسالة الأخيرة.. في أواخر أكتوبر رأى أثناء نومه حلما مزعجا، وهو أن ضرس عقله قد خلع، فنهض مذعورا، وبقي صاحيا حتى الصباح، ليذهب ويرسل برقية لوالده، يستفسر فيها عن صحته.. وما هي إلا أيام، حتى يستلم الخبر المفجع الحزين، المنبئ بحادث الوفاة «في التاسع عشر من أكتوبر سنة 1924» يقول ابنه عمر: «وهكذا نزل عليه الخبر «كما روى ذلك لنا» نزول الصاعقة، لما كان يكتنه لوالده من احترام وتقدير عظيمين، واعتبر أن وفاته خسارة فادحة للوطن».

وما من شك أن وفاة الشيخ عمر (52 سنة) كانت، وهو في قمة عطائه، صدمة للفلسطينيين، وهذا ما أبرزته الصحف والمجلات العربية، منها جريدة الشورى «القاهرة»، الكرمل «حيفا» وصوت الشعب «بيت لحم» ولسان العرب «القدس» واليرموك «حيفا» ومجلة الإخاء «القاهرة».. ونكتفي هنا بنقل النص الحرفي لما نشر بتاريخ 22 أكتوبر في جريدة الشورى القاهرية لصاحبها ورئيس تحريرها الأستاذ محمد علي الطاهر⁽¹⁵⁾ تحت عنوان:

«وفاة زعيم فلسطيني»

نُعي إلينا من مراسلنا النابلسي بالبرق أول أمس، سري من سُراة فلسطين، وزعيم كبير من زعماء نابلس، هو المرحوم المبرور الشيخ عمر أفندي زعيتر رئيس المجلس البلدي.. توفي رحمه الله بعد مرض قيل إنه السرطان في العنق، وقيل إنه قرحة في الأمعاء، فسهر الأطباء على معالجهته شهرا وبضعة أيام، لم تنقطع في أثنائها وفود البلاد عن عيادته والسؤال عنه، ولكن حيل الأطباء لم تنفع، ودعوات الإخوان والأصدقاء لم تشفع.. ففاضت روحه الكريمة عصر الأحد الماضي، فقبول خبر نعيه بحزن عميق في سائر أنحاء البلاد، وقد جاءنا بعد ذلك من مراسلنا النابلسي، أن جنازته شُيّعت بمشهد حافل، مشته فيه مدينة نابلس بأسرها، وقد أقفلت تماما، وشهدت الجنازة الوفود التي جاءت لهذا الغرض من سائر أنحاء فلسطين.

كان الشيخ عمر من العصاميين الذين سادوا بعبقريتهم وشخصيتهم الممتازة، فكان قبلة أنظار الناس في الرجوع إليه لفصّ مشاكلهم، وخدمتهم بنفسه وماله ونفوذه.

وكان رحمه الله في مجالسه للناس أنيس العشرة، حلو الحديث، لين الجانب من غير ضعف، وكان مع ذلك كثير الصمت قليل الكلام، أما مع الحكام، وبالأخص الحكومة المحتلة، فكان وطنيا غيوراً، وحكيماً رزيناً، أكسبته هذه الصفات المحمودة محبة الأهلين واحترام الحكام في وقت واحد. ولعل خير ما تركه من الآثار النافعة، إنشاء مدرسة الأيتام في نابلس، فكان، رحمه الله، يسهر عليها ويشملها بعطفه وعنايته. وإننا ونحن نبكي فقيدنا الكبير نتقدم إلى آلِه وأنجاله الكرام بواجب التعزية، ونعزي نابلس بفقد عميدها، والوطن الفلسطيني الذي فجع بأخلص بنيهِ. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

الجنازة

وهكذا انتقل إلى جوار ربه، المغفور له الشيخ «عمر زعيتر» فشييعته نابلس والوفود الفلسطينية بالحزن والتقدير إلى مثواه الأخير، وقد رثاه الأستاذ الشيخ محمد تفاحة «مفتي نابلس» بقصيدة ألقاها أمام جثمانه في المسجد، يقول في بيت منها مخاطباً:

لا بل فلسطين غدوت فقيدها
إذ أنت من أبطالها الصيد الغرر

كما رثاه فضيلة الشيخ أحمد البسطامي في المقبرة حين دفنه بقصيدة مؤثرة قال في مطلعها:

فجع العلاء بك يا عمر
ولموتك القلب انقطر

قال عمر عادل: قيل لي من الأهل والأقارب أن المنظر المؤلم الذي يفتت الأكباد، هو منظر تلامذة مدرسة الأيتام، التي كانت تضم ما يزيد على مئة يتيم ویتيمة، وهم يسرون أمام النعش يحملون الأكاليل وينشدون⁽¹⁶⁾:

مولاي يا ربّ البشر
بالعفو والغفران جد
ندعوك والقلب انكسر
لفقيد نابلس عمر

عودته إلى فلسطين

بعد وفاة المغفور له والده اضطر عادل زعيتر لترك باريس، والعودة إلى فلسطين، لتحمل مسؤولياته العائلية والوطنية، رغم قطعه شوطاً في التحضير لرسالة الدكتوراه. وبعد فترة وجيزة، راح يزاول مهنة المحاماة، ليصبح محامياً من أقدر محاميها وألمعهم، ولهذا اختير سنة 1927 أستاذاً لتدريس الفقه الدستوري والاقتصاد السياسي والمالي وقانون المرافعات المدنية والجزائية في معهد الحقوق بالقدس، ويعتبر كثيرون من أعلام المحاماة في فلسطين والأردن من تلاميذه. وله في محاضراته الحقوقية مؤلفات مخطوطة، كان فيها الفقيه المتمكن من مواضعه.

أستاذي

وللتدليل على مكانته هذه، نجد أحد تلامذته المحامي الأستاذ «أنس الخمرة» يرثيه إثر وفاته في جريدة فلسطين «القدس» بعددها الصادر في 29 كانون الأول 1957 بمقال تحت عنوان «أستاذي» يقول في بعضه: «كان فقيدنا المحامي الكبير أستاذاً - لي ولكثير من الزملاء المحامين إن لم يكن لأكثرهم - بالمعرفة والخلق، ومن قادة الفكر العربي المعاصر. أبت عصاميته أن تخلد للحياة الوادعة الناعمة بعد أن انتهت مهمته بجيش الثورة العربية - فالتحق بجامعة باريس حيث درس الحقوق، وغادر باريس مدينة اللهو والمرح دون أن يذوق الخمر. إن الكثيرين من عظماء الأدباء، لم يكونوا يشربون الخمر، مثل ألكسندر دوماس و برناردشو و شارل ديكنس وغيرهم، وعادل زعيتر من هؤلاء الخالدين. كان يتحمل المسؤولية، ويحاول أن يؤدي عمله على خير وجه، وهذه صفة المبدعين، حدثني - رحمه الله - أنه لم يكن يتناول

الرعاية الفكاية

يقول المرحوم أكرم زعيتر في ذكرياته عن شقيقه « كان عادل على ما اتسم به من جد، يأنس بالنكتة الباردة ويطرب للبديهة السريعة، ويُعجب بالأدب الساخر، وأنا أتول فرانس⁽²⁴⁾ هو - في نظره - صاحب القدر المعلن في الأدب التهكمي المعجب، وإعجابه بأناتول حملته على ترجمة كتابيه «حديقة أبيقور» و «الآلهة عطاش» ويرى عادل أن أبرع ما كتبه الأمير شكيب أرسلان - على ضخامة ما كتب - ترجمته كتاب «أناتول فرانس في مبادئه» لجاك بروسون .. وذاك أمامه برناردشو، اعتبره أمير الأدب الإنجليزي الساخر، ورويت قصة تلك الجميلة التي سألته أن يتزوجها فلعلهما يرزقان مولودا في جمالها وعقله فأجابها « إنما أخشى أن يأتي المولود الجديد في جمالي أنا وفي عقلك أنت وهنا الطامة! » فنهض عادل إلى أحد كتب الأدب، وروى قول الأصمعي « كان أعراي طويلا قبيحا، فخطب امرأة وقال أريدها قصيرة جميلة ليأخذ الولد طويلا وجمالها، قال : وتزوجها على تلك الصفة، فجاء ولده على قبحه وقصرها » .

وسأل موظف الجمر المصري ذات مرة عادلا عما في حقيقته الكبيرة المليئة فأجاب « البحر والنهر وملكتكم » فهت الموظيف، ورغب في فتح الحقيقة، فلما فتحت، وجدها تحتوي نسخا من الكتب « البحر المتوسط » و « النيل » و « كليوباترة » فطرب لنكتته ورجا عادلا أن يسارع في إقفال الحقيقة خشية من أن يغرق المطار في مياه البحر والنهر .

كان عادل يتقبل الدعاية على أن تكون مهذبة، ويستنكرها عامية غير راقية، وقد أطربته رسالة بعث بها إليه صديقه الأستاذ عادل الغضبان مليئة بالغريب غير المأنوس من الكلمات وأجابه بمثلا مداعبا. وكان يحتفظ ببيتين من الشعر و ارتجلهما صديقه الأديب المرحوم «حسن بيهم» حين قلع عادل طاحونته وهما :

ذهبت طواحين عادل فاعتاض عنها بالبيان
يعري ويطن كل بطل بالفصح من البيان

ويتابع أكرم قائلا: وكثيرا ما كان البعض يخلط بين اسمي واسمه؛ فإذا عرفت إليهم باسمي قالوا : إننا نعرفك من مترجماتك العظيمة، وطفقوا يثنون علي بما لست أهله، فإذا لم يكن أخي موجودا، بادرت إلى التصويب، ورددت الفضل إلى صاحبه، ثم حدثته عن ذلك فكان له منه مجال سرور وتفكه، وإذا كان هو موجودا، كان ذلك على مسمع منه سكت، فيكون ذلك مثار دعاية، إلى أن يقول الأستاذ أكرم: قال لي مرة « حين يبلغ ارتفاع كتبي مرصوفة بعضها فوق بعض قامتي، ينتهي أجلي. » فأجبت : على أن تطبع على ورق رقيق رقة ورق السجارة .. فسرّه الجواب، ولكنه كان يتحسّر أن ينقضي العمر ولا يحقق ما يصبو إليه مرددا

لنا في الدهر آمال طوال ترجيها وأعمار قصار

وحول ذات الموضوع في عام 1945، يقول ابنه عمر: أذكر أنني كنت معه يوم الجمعة في البيرة، وأرادا أن يمر بأحد أصدقائه «أبي حاتم» في مزرعته بقرية «قاقون» ليستشيره في أمور زراعية، عند وصولنا طلب

غداه في اليوم الذي يلقي محاضراته في معهد الدراسات الحقوقية، ليحتفظ بصفاء ذهنه. كان ناصع الجبين، طاهر القلب واليد، لم يرتكب دنبة رغم الظروف المادية المغرية التي كانت تواكبه، كان قفازا للمكارم، فكان المساهم الصامت بالحركة الوطنية، والمحامي المدافع بدون جلبه أو تبجح أو ضوضاء، إلى أن يقول « وحبذا لو أن اسم عادل زعيتر أطلق على شارع بالعاصمة⁽¹⁷⁾ وبنابلس وبالقدس، اعترافا بفضلته، وتشجيعا لأبناء هذه الأمة لأن يقتدوا بسيرته، ويسيروا على نهجه..أيها الثاوي في ترابك، لن غاب رسمك فلن يضيع اسمك، وقد خطه قلمك بين عداد الخالدين ».

أبنائه

أنجب عادل زعيتر ستة أبناء؛ ثلاثة ذكور وثلاث إناث، إحداهن ربيعة؛ توفيت - رحمها الله - وعمرها ثمانية أشهر، فبقي له خمسة هم .. عمر⁽¹⁸⁾ وائل الذي اغتاله الموساد الإسرائيلي في روما⁽¹⁹⁾ ونائلة⁽²⁰⁾ وضاح⁽²¹⁾ وسلمى⁽²²⁾، وقد أولاهم اهتماما كبيرا رغم مشاغله الكثيرة. يقول عمر: أذكر أنه كان يصطحبني وواثلا إلى صلاة الجمعة، وإذا ألم به عارض مرضي، يطلب منّا الذهاب وحدنا، وعند العودة كان يسألنا .. من صادفتما؟ ومن خطيب الجامع؟ وماذا قال في خطبته؟ ليطمئن أننا استوعبنا مضمون الخطبة جيدا، وهذا يدفعنا للانتباه الشديد والانتباه الجيد؛ إذ سنواجه بعدها امتحانا صعبا. كما كان في كل رمضان، يطلب إلينا تلاوة القرآن الكريم بصوت مسموع نوعا من غرفة مجاورة لمكتبته المنزلي، وهذا أكثر ما كان يرضيه، وما دمت أتحدث حول علاقته بأبنائه، فأذكر - يقول عمر - أنني عندما التحقت متطوعا في جيش الإنقاذ عام 1948 أبلغني برسالة حملها صديقه الشاعر الوطني عبد الرحيم محمود⁽²³⁾ وكان أستاذاً وصديقي وزميلي في الجيش ذاته .. يطلب إلي فيها عدم استلام راتب من جيش الإنقاذ حيث هو يتكفل الإنفاق علي .. وهكذا كان.

الرسالة الوصية

ويتابع عمر قائلا: عند التحاقني مباشرة بالجيش الأردني، أرسل رسالة يحثني فيها على التمسك بالإنسانية والأخلاق والاستقامة الخ ... جاء فيها « ...أوصيك يا عمر بثلاث: الأخلاق ثم الأخلاق. إن القيادة الحقّة هي التي تجمع بين قوة الكفاءة وقوة الخلق؛ فلا خير بقائد مهما أوتي من كفاءة، إذا كانت تعوزه الأخلاق. يجب أن تكون لديك إنسانية حقّة مجردة من كل تعصب أو تمييز أو تحيز، ودعوة دائمة إلى الخير والفضيلة والصدق، والتمسك التام بالمبادئ والمثل الأخلاقية، كما عليك أن توازن بين القوى الفردية والاجتماعية، وإياك ثم إياك إثارة مصلحتك الشخصية على المصلحة العامة والخير العام .. أدعو الله أن يوفقك إلى سواء السبيل.

الجميع بخير يسألون عنك والسلام عليك ورحمة الله.

والدك

عادل زعيتر

يقول ابنه عمر: ما من شك، أن هذه الرسالة الأبوية التوجيهية «الوصية» الكبيرة في محتواها، العظيمة في معناها، قد أثرت التأثير كلّ، وأضحت بالنسبة لي دستورا أضعه نصب عيني في جميع أعمالي وتصرفاتي، فحمدا لله على ذلك

تحفيرة للجواسيس

يقول ابنه عمر: وعلى ذكر دفاعه عن المتهمين السياسيين، سمعت منه وغيره قصة هذه المرافعة التي حدثت سنة 1931 حيث الجميع في فلسطين يتندرون بها ويستتهزون من رجال المباحث العرب المتعاونين مع الإنجليز.. وباختصار، كان عادل زعيتر يدافع أمام محكمة جنابات القدس عن ثلاثة وطنيين أتهموا في قضية سياسية، وهم الدكتور صدقي ملحس، والشيخ صبري عابدين، والسيد جمال القاسم، وكان الحضور كثيفا، وعندما استدعي شاهد الإثبات العربي المدعو (ش ع) للشهادة ضد المتهمين بدأ محامي التاج «النيابة» في سؤاله عن كل ما يثبت التهمة، فقاطعه الوالد طالبا إثبات نوع أو ماهية عمله بالضبط، أجاب الشاهد «مخبر»... رأسا قال له يعني «جاسوس»... جاسوس إنجليزي، فاحمر وجه الشاهد واصفر وأجاب «لا: أنا مخبر» فقال له: كلا أنت جاسوس للإنجليز، أنت جاسوس نعم جاسوس على أبناء وطنك، وطلب من هيئة المحكمة تثبيت ذلك، وأراد محامي التاج الاحتجاج، فضجت قاعة المحكمة بالتصفيق، وهم يرددون جاسوس، إنه اعترف بأنه جاسوس، فاضطر رئيس المحكمة لرفع الجلسة، وتأجيلها، خاصة وان الشاهد قد بدا عليه الإعياء وعلامات الترنج، وانتشر الخبر في أنحاء فلسطين.. بعدها علم أن الجاسوس (شين عين) مرض وقدم استقالته من عمله، وانزوى في بيته لا يرى أحدا خجلا من نفسه، وفي الجلسة الثانية لم تجد النيابة شاهدا للإثبات، فبرأت ساحة المتهمين الأحرار، وقد حدث مثل ذلك مع زميله؛ المحامي عوني عبد الهادي، وهو يدافع متطوعا عن المعتقلين السياسيين.

زواجه

في عام 1929 أشارت عليه عائلته بالزواج، وأخذت شقيقته «عدلة وابتهاج» تبحثان له عن فتاة مناسبة، فاستقر الرأي على ترشيح «ميسون» ابنة التاجر المعروف صديق والده، الحاج سعيد عبد المجيد، وعندما فاتحته أجاب بأنه يذكرها وهي صغيرة، إذ شاهدها مع والدها في مصر، حيث كان الحاج سعيد مقيما لفترة في القاهرة، واستمهلهم حتى يستشير أشقاءه نبيها وحسنا، وأكرم الذي كان مبعدا سياسيا إلى عكا، حيث عمل أستاذا في ثانويتها «أما أخواه هشام وزيد فكانا صغيرين، فزيد مثلا كان عمره آنذاك أربع سنوات» وبعد مباركتهما له تم الزواج باحتفال كبير في منزل خاله الحاج (نمر حماد)، ومما يذكر أن الأستاذ أكرم زعيتر⁽²⁵⁾ تزوج أيضا فيما بعد ابنة الحاج سعيد «زينة».

صداقة صالية

وللتدليل على الصداقة المثالية، التي كانت تربط الشيخ عمر بالحاج سعيد، نذكر هذه القصة التي جرت بينهما، نقلًا عن عمر عن أبيه عادل، حتى نظهر للقارئ والجيل الحاضر كيف كانت تقوم بين الناس صداقات حقيقية، ذات معانٍ خلقية سامية، لا أثر للمادة بها.. كان الشيخ عمر زعيتر رئيسا لبلدية نابلس، مصاريفه كثيرة، والتزاماته بحكم عمله كبيرة، لذا كان لزاما عليه أن يعطي بعض أصدقائه من التجار نقودا كي يتاجروا له بها، فذات يوم مر على صديقه الحاج سعيد عبد المجيد (أبي حلمي) في مكتبه بالمصنبة (مصنع الصابون) وسلمه صرّه من النقود، بها خمسون ليرة ذهبًا (50 عثمالية) كأمانة،

إليّ أن أقرع الباب «بقي الوالد بالسيارة» فنزلت.. لكن كلبا ضخما شرسا منعني من الاقتراب، فأخرج الوالد من جيبه ورقة، وكتب يبلغه أنه حضر لزيارته، ويعاتبه على وضع الكلب المسعور أمام باب المزرعة، وسرد له هذه القصة وقال: «أيام عصر السلطان الغوري، توجه الشاعر جمال الدين السلمي لزيارة قاضي القضاة شهاب الدين، فمنعه الجارس من الدخول.. فنظم فيه بيتي شعر قال فيهما:

بأبكم كلب عقور مسلط
عديم الحياء والعقل في البعد والقرب
ومن يربط الكلب العقور بابه
فإن بلاء الناس من رابط الكلب

وتركنا له الرسالة عند الباب، وفي صباح اليوم التالي، توجه «أبو حاتم» إلى طولكرم واتصل هاتفيا بالوالد معتذرا عما حدث، أخذ عتابه عن طيب خاطر، وقد ضحك لذلك كثيرا.

الحامي التالي

لنقرأ بعض ما ذكره نقيب المحامين، الأستاذ فؤاد عبد الهادي ممثلا عن نقابة المحامين الأردنيين في مهرجان تأبينه سنة 1958 الذي حضرته وفود عربية: «.. كان إذا دخل في قضية تنبأ عارفوه والواقفون على طباعه، لهذه القضية بالنجاح، لا اطمئنانا إلى كفايته الممتازة وتدقيقاته فحسب، ولكن اعتقادا منهم أنه لم يقدم على المرافعة فيها إلا بعدما درسها واطمأن إلى جانب الحق فيها.. رُشح الفقيه عضوا في المجلس الإسلامي، ومما ورد في تقرير حاكم اللواء البريطاني إلى المندوب السامي «إن عادل زعيتر أصدق من عرفت، ومن أكثرهم استقامة ومعرفة، ولكن الفقيه كان زاهدا في مناصب الدنيا، ومن منّا لا يذكر محاضراته في الفقه الدستوري الذي ترجمه عن أستاذه «ايسمن» المرجع الأول في هذا الموضوع لدى حقوقي العرب، وحسبه مجددا أنه هو الذي نقل إلى العربية، الكتاب العظيم الضخم الخالد (روح الشرائع لمونتسكيو). كان الفقيه يعرف قيمة نفسه، فيصونها عن رخيص القدر، وكان القضاة بدورهم يلقونه بمزيد من الاحترام والتقدير، كان رحمه الله مجاهدا في سبيل أمته ووطنه، وعونا للأحرار والمجاهدين، فقد تولى المرافعات تطوعا في اضطرابات سنة 1929 ومظاهرات التسليح سنة 1931 وسنة 1933 وثورة 1936 ويذكر شباب فلسطين وغيرهم يومذاك، وكهولهم اليوم، ما بذل عادل زعيتر من جهود في الدفاع عنهم بنابلس والقدس وصفد، وكيف خلص كثيرين من حبال المشائق، وحادثته مع الحاكم العسكري «المستريلي» الذي داس القوانين حتى قانون الطوارئ في إحدى قضاياها السياسية - معروفة - إلى أن يقول: واليوم هو يوم من أيام أحزاننا، وبه ذكرى لعظيم فقدناه لأيام مضت، وبفقدته فقدنا علما من أعلام الوطنية الصادقة، وركنا من أركان المحاماة والتشريع والقانون، على شدة حاجتنا إلى الوطنيين كشعب، وإلى العلماء العاملين كأمة، أجل، في هذا اليوم الذي نؤبّن فيه قائدا من قدامى قادة الحركة الفكرية في هذا البلد، ومناضلا قاوم الاستعمار والظلم والطغيان، وعالما من علمائنا الأفاضل، ومحاميا فقيها شريفا، ترك في نفس كل منّا أثرا لا يمحي، وهذا اليوم سيسجل حتما في سجل أحزان الأمة، وسيكون له ذكرى بارزة على كثرة أحزاننا، ووفرة كوارثنا. بَمَ نؤبّنك، أنتكلم عن عملك وفضلك في الأدب والاجتماع والتشريع والقانون وكلنا يعرف ذلك، لقد عرفناك زعيما مخلصا من زعماء الحركة الوطنية والعلمية، وعرفناك دائما أستاذا وعالما وقائدا، ما طلبت إلينا ولا وجهتنا إلا إلى ما يحب الله وما يقتضيه وطننا، وما ترتضيه مصلحة أمتنا، فحسبك أيها الفقيه في حياتك، شرف المبدأ وعزة النفس ونقاء الضمير، وحسبك أنك عشت فينا كريما صادقا لم تمار ولم تتملق، ولم تأخذك في الحق لومة لائم... الخ».

بعض نصائحه

ورد فيما تقدم نص الرسالة «الوصية» التي بعث بها إلى ابنه عمر، في مستهل حياته العملية، ونذكر فيما يلي بعضاً من نصائحه وما أكثرها... عليها تلقي بعض الضوء حول شخصيته.

■ كان يتكلم الفصحى، يحرص على صحة لغته حديثاً وكتابة، قال لابنه عمر وهو صغير لما يتجاوز الخامسة عشرة من عمره: «ألاحظ أنك تلحن في كلامك!» أجابه وهو خجل من نفسه.. إذا حصل هذا فليس بيدي، وجلّ من لا يخطئ.. أجابه بحده «انتبه يا عمر، إذا حدث خطأ في كلامك، حدث خطأ في عقلك وشخصيتك». قال عمر: ومنذ ذلك الوقت وأنا أحاول تجنب الحديث بالعامية قدر المستطاع.

■ وقال: دخلت عليه صباح يوم في مكتبه وقلت «صباح الخير» فغضب عليّ وأنبني كثيراً وقال «حينما تدخل عند أبيك أو من في سنّه، يجب عليك القول.. السلام عليكم.. أما صباح الخير فتقولها للشباب من عمرك.. فهمت؟» قلت: فهمت. ومنذ ذلك الوقت وأنا ألزم نفسي بذلك.

■ ذات يوم ذهبت في إجازة إلى نابلس، وحملت إلى أشقائي بعض الهدايا البسيطة، فاكهه ووجهه، وأخذ يعطيني محاضرة حول البخل والكرم، وخلص إلى القول: «صحيح أن الهدية رمز، لكن يجب أن تكون لائقة ضمن الإمكانيات، فالبخل يعتبر نقصاً في الأخلاق، ويؤثر على شخصية الإنسان».

■ وقال سنة 1955 فكرت جدياً بالزواج من فتاة أمريكية «تدرس في قسم الدراسات العليا بجامعة لندن» إذ تعرفت عليها عندما كنت ضابطاً في الجيش الأردني، حين أتت إلى أريحا مع بعثة الجامعة، للتنقيب عن الآثار هناك.. وعندما فاتحت الوالد بالموضوع، أبدى معارضة شديدة لدرجة التهديد بالتبرؤ مني، وحجته أن كيف تربي الأجنبية أبناءها التربية القومية الصحيحة؟ وللأم دور كبير في تنشئة الأبناء، وبهذه الحجة ثنائي عن عزمي، واقتنعت بأنني مخطئ تماماً.

وفاءه

كان عادل زعيتراً وفياً لأصدقائه وأصدقاء أبيه وفاءه لأمته، وكان يحيط أصدقاء أبيه بالإجلال البنوي، وكان يرى من البرّ بأمته، ومن الوفاء لأبيه، أن يزور مقبرة الشهداء كلما زار بيروت، وأن يتلو خاشعاً فاتحة الكتاب لأرواحهم، وروح الشهيد سليم الأحمد عبد الهادي⁽²⁶⁾ الصديق الأول لأبيه، ناقماً على جمال باشا السفاح الذي أمر بإعدامهم الحياة، آسفاً ألا تقدّرهم أمتهم كما ينبغي أن يُقدّر الأولون، ولبيان العلاقة المثينة، التي كانت تقوم بين والده المرحوم، الشيخ عمر، والشهيد سليم؛ فإن الشيخ عمر عندما استلم رئاسة بلدية نابلس، ذهب وصديقه الوطني الكبير، سليم الأحمد إلى الجامع، ووضع يديهما على القرآن الكريم، وأقسما على قمع الغش والفساد ومحاربة الرشوة، وأشهدا الله على ذلك.

- نعود إلى زيارة عادل زعيتراً لمقبرة الشهداء - ففي أول زيارة لها، أخذ يبحث عن قبر الشهيد سليم عبد الهادي، فلم يجده مبنياً، فأرسل تحريراً إلى صديق عمره وزميله في باريس، الأستاذ عوني عبد الهادي يحثه فيه على بناء ضريح، فأرسل تحريراً آخر، يحثه فيه على ضرورة إنجاز البناء، وللحقيقة أن عوني بك لم يتوان في ذلك، لكن الفرصة لم تسنح له بعد ذلك بزيارة بيروت، فأرسل إلى صديقه الأستاذ أكرم زعيتراً يكلفه ببناء الضريح، ويرجوه لفت نظر شقيقه عادل، إلى عدم إرسال تحارير أخرى، لأنها تثير أشجان زوجته السيدة «طرب» فتأخذ في البكاء الشديد. وبالفعل اتصل الأستاذ أكرم برئيس بلدية بيروت

وإذا سنحت الفرصة يتاجر له بها في زيت الزيتون، فأخذها الحاج سعيد برحابة صدر، ووضعها في خزانة الحديد الموجودة بجانبه، وللمصادفة لم يكن المحاسب موجوداً تلك اللحظة، حتى يسجلها في الدفتر، لذا لم تُسجل الأمانة، بعد قليل توادعا.. ونسي الحاج سعيد إبلاغ المحاسب تسجيلها.. بعد شهرين تقريباً اضطر الشيخ عمر للمبلغ، فمرّ على صديقه يطلب منه الأمانة، لكن الحاج سعيد كان قد نسيها نهائياً، وقال: أية أمانة، فأوضح له الشيخ عمر الأمر، لكن الحاج سعيد أيضاً لم يتذكر، وفتح خزانة الحديد (ذات الأوراق والمستندات الكثيرة المبعثرة) فلم يرها، وقال لا توجد أية صرة، عندها، وبسرعة خاطر قال الشيخ عمر (المحتاج للمبلغ): آسف جداً أبا حلمي.. الآن تذكرت أنني سلمت الأمانة لصديق آخر، ولم يشعره إطلاقاً بأية إشارة قد تذكره.. وتمر الأيام والأشهر، وتبقى الصداقة بينهما كما كانت عليه، إلى أن يأتي يوم (جرد الموجودات) وإذا بالصرّة الأمانة موجودة.. فحملها الحاج سعيد مسرعاً لمكتب الشيخ عمر معتذراً بشدة لما حصل، ويعاتبه كيف يقول له أنه لم يسلمه إياها بل سلمها لغيره، فأجابه الشيخ عمر: حاج سعيد، أنا متأكد من حسن النية، وأنت قد نسيت ذلك فعلاً.. وهل المادة تؤثر على صداقتنا؟! إن صداقتنا أهم وأقوى من المادة.. وهكذا كان.. فعلاً إنها ذات معان عظيمة.

المرأة العربية

كان عادل زعيتراً يحترم المرأة، يجلها ويقدرها، ويعتبرها المصنع الأول للرجال، كما كان يدعو إلى مشاركتها في جميع مرافق الحياة البناءة، من ثقافية ووطنية وتربوية، وأن الكثير من نساء العالم كان لهنّ دور مهم في التاريخ.. ومن هذا الإحساس، أن قدرت له المرأة العربية هذا التوجه الحضاري، فترى الهيئات النسائية في الأردن أن تشارك في تخليد ذكراه.

ولنستمع إلى ما قالته عام 1958 المجاهدة السيّدة (عصام عبد الهادي) أمينة سرّ الاتحاد النسائي آنذاك، في مهرجان تأبينه.. إن المرأة العربية إذ تشترك بإحياء ذكرى العاقرة الأعلام، والمجاهدين الأبرار من الوطنيين من وطننا العربي، إنما تقوم بأداء واجب مقدس يفرضه الواجب، ويدعو إليه الوفاء نحو أولئك، الذين قضوا وهم يعملون لرفع شأن الأمة والوطن، وإنه لشرف عظيم لي، أن أمثل الهيئات النسائية، لتكريم ذكرى مكافح فدّ، ومناضل وهب حياته لبلاده، وعبقريّ قلما يوجد الزمن بمثله - حتى تقول - عرفناه أستاذاً محامياً غزير المعرفة، جَمّ الاطلاع، نقيّ اليد، عف اللسان، مثلاً أعلى للنزاهة والإخلاص، يقصده المظلوم الملهوف، فيجد في رحابه الأمن والطمأنينة والسلام، وكان موثلاً وملاذاً للمتهمين السياسيين، والأحرار الثائرين في شتّى الانتفاضات الشعبية، والحركات الوطنية إبان الانتداب البريطاني البغيض، وله مواقف دفاعية في هذا المجال، انبثقت عن نفس مؤمنة بعروبيتها، مؤمنة بوطنها، معروفة مشهودة، إلى أن تقول في النهاية:

ما مات من حاز الثرى آثاره واستولت الدنيا على آثاره
وسلام عليه في الخالدين.

آنذاك «عادل بك الصلح» يحثه على بناء ضريح الشهيد سليم بما يناسب منزلته. وعلى الأثر استصدر عادل بك قرارا من المجلس البلدي بتشديد الضريح، وإصلاح المقبرة على نفقة البلدية، بما يتناسب وجلال تضحياته

عوني عبد الرهادي

وما دمنا بصدد صديقه المجاهد الأستاذ عوني عبد الهادي، لا بدّ لنا من الإشارة إلى أنه هو الذي نعاه يوم وفاته إلى الصحافة المصرية.. كما أرسل برقية تعزية قال فيها «.. ما عسائي أقول في علامتنا الفدّ، ووطنيتنا المجاهد الكبير فخر العروبة؟ وإذا جاز الإجمال قلت : أدينا الكبير من الخالدين، الذين هم جمال الكون حيناً بعد حين». كما نذكر باختصار هذه الحادثة التي وقعت بين عادل زعيتر وزوجة (عوني بك) السيدة «طرب» حيث كانت ذات يوم في زيارة لأسرة عادل في منزله في نابلس، وأثناء الحديث احتدم نقاش بينها وبينه فالتفتت إليه قائلة «أبا عمر» لماذا ترفع صوتك علي وبأي حق يجوز لك ذلك؟! «أجابها على الفور « أم مازن .. بكل تأكيد يحق لي ذلك، ألا تعلمين أنك ابنة الشهيد سليم الأحمد عبد الهادي، وزوجة عوني عبد الهادي» هنا أخذت في البكاء وهي تردد .. يحق لك أبا عمر، يحق لك هذا وأكثر من هذا! ما من شك أن هذه القصة تنم عن الصلات الشريفة، والعلاقات المثالية التي كانت تربط الناس فيما بينهم، والتي يندر وجودها في هذا الزمن.

■ وحول الوفاء يقول الشاعر الأستاذ عادل الغضبان ⁽²⁸⁾ في جزء من مرثيته لعادل زعيتر:

مضى الموت بالحلّ الوفيّ فلوّعت
بكوأ صاحباً لم يخلف العمر عهدَه
بنار الشجى خلانَه ومعاشرَه
ولا عرفت إلا الوفاء سرانَه

اعتزازه بنفسه

■ يقول شقيقه الأستاذ أكرم في ذكرياته عنه « كان يعتز بنفسه أقصى حدود الاعتزاز، وقد لقيه الأستاذ إميل البستاني في طائرة من بيروت إلى القاهرة، وكان يجلس إلى جانبه فسأله: هو أنت أخو أكرم زعيتر؟ فأجابه: كلا إن أكرم زعيتر أخو عادل زعيتر، وهو يعرف بي ولا أعرف به .. ثم تبادلوا الدعابة والأحاديث المستملحة!

■ في عام 1951 دُعي من قبل وزير الدفاع الأردني لحضور استعراض للجيش يقام في عمان .. وقد تألم لما اعتبره تجاهلاً لمكانته العلمية، فأرسل إلى وزير الدفاع رسالة اعتذار (29) مؤرخة في 7/ 4/ 1951 هذا نصها « شكراً لحضرة وزير الدفاع دعوتي لحضور استعراض الجيش في 11 نيسان سنة 1951، وذلك وفق البطاقة البيضاء (الصف 33)، فيما أنني لا أستطيع الحضور، رأيت أن أقدم اعتذاري، فلعل غيري يشغل المقعد المذكور.. وختاماً أقدم وافر الاحترام - عادل زعيتر».

■ يقول الأستاذ وديع فلسطين ⁽³⁰⁾ في مقال نشرته مجلة الرسالة «بيروت» يناير 1958 تحت عنوان، كان جامعاً ومجمعاً: « وكان عادل زعيتر عازفاً عن الدنيا، منطوياً على نفسه في تواضع حبيب، ولكنه كان معتزاً بذاته وبكرامته إلى أبعد الحدود. وكان بعيداً عن الأضواء، يهرب من مناسبات التكريم، ويمجّ

عبارات المديح الجوفاء، ولكنه كان في قرارة نفسه، يشعر بأن أهله ومواطنيه والعرب أجمعين، لا يقدرّون له كفاحه الدؤوب في سبيل رفعة الضاد والثقافة العربية - إلى أن يقول - وصفته ذات مرّة بأنه الأديب النابلسي» فثار غضباً، وأردت تصحيح ما وقعت فيه من خطأ؛ فقلت عنه إنه «الأديب الفلسطيني» فهاج وماج وأرعد وأزبد وقال لي «إنني أديب عربي» نعم، لقد كان عادل زعيتر أديباً عربياً عرقاً ونبأ، وثقافة وعقيدة ومنهاجاً، ورسالة وقلماً ووجداناً، ومثله في هذا شقيقه أكرم زعيتر، الخطيب المفوّه، والداعية المبرز، والمحامي المدبر في الدفاع عن حقوق العرب السليبة.

أحكام جائرة

بتاريخ 23/ 10/ 1936 أجازت محكمة الاستئناف العليا برئاسة القاضي كوبلاند، حكم الإعدام على السيدين الوطنيين عادل فتح الله المصري ومحمد يوسف الحاج أسعد، المتهمين بإطلاق النار على الجند البريطانيين؛ فهتفا «نحن فداء الوطن» فأرسلت الهيئات تطلب من المندوب السامي البريطاني تخفيض الحكم، فرفض وأصرّ على التنفيذ، وصدّقه بتاريخ 11 نوفمبر رغم كل المحاولات التي بُذلت، وتقرر شنقهما بتاريخ 17 نوفمبر وكان شهر رمضان، فثار عادل زعيتر غضباً، واتصل بالصحف، وأملى عليها البيان التالي «ألقت نظر السلطة ومحامي السيدين عادل المصري ورفيقه محمد الحاج أسعد إلى المادة 22 من قانون الجزاء العثماني، التي لا تزال معمولاً بها في فلسطين، وهي تنص على أن عقوبة الإعدام لا تُنفذ في الأيام المخصصة بدين المحكوم عليه ومذهبه، وبما أن شهر رمضان المبارك هو من الأيام المخصصة بدين السيدين المذكورين، فإن تنفيذ الحكم الصادر بحقهما مخالف للقانون بما يوجب على السلطة أن تتجنّبه، وعلى وكيل الدفاع أن يلفت نظر السلطة إليه، أو يرفع قضية مستعجلة لدى محكمة العدل العليا بهذا الشأن». وفي صباح يوم 14/ 11/ 36 صدرت الجرائد الصباحية وفيها البيان، وفي اليوم التالي قرر المندوب السامي، تأجيل تنفيذ الحكم إلى أجل غير مسمى .. ومما يتعلق بذات الموضوع، فإن الشيخين عبد الله الجزار «مفتي عكا» وأسعد الشقيري، قد أبرقا إلى أحد المسؤولين العرب، حول تصديق المندوب بالموت على هذين الشابين بالبرقية التالية: « يا أيها العزيز مسناً وأهلنا الضّر وجننا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إن الله يجزي المتصدقين» فردّ عليهما بالآية التالية برقياً : إلى حضرات أصحاب السماحة «من يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله» ثم قال ومن لم يحن أجله سينتظر أجله الموعود» على كل حال سيسجل التاريخ لفلسطين بطولات أبنائها، ولبريطانيا «العظيمة» جرائمها.

بعض رسائله (٢٢)

نورد فيما يلي جزءاً من رسالتين متبادلتين بينه وبين شقيقه الأستاذ أكرم زعيتر تتعلقان بالقضايا العربية ورأيه فيها:-

■ كتب الأستاذ أكرم مقالة بعنوان «مصطفى كمال وإسكندرون - عبد العزيز وفلسطين» فقرأها أخوه وكتب بتاريخ 29/ 8/ 1938 تحريراً إلى شقيقه يقول فيه «..فالحقيقة أنها ممتعة، والفائدة في الإكثار

من طرق مثل هذه المواضع، مع السعي إلى إيصالها إلى الملك عبد العزيز، ولكن علاقة إسكندرون أيضا بالملك عبد العزيز كعلاقته بفلسطين من حيث المثل الأعلى العربي المطلق، وهو المتأخم ملكه لسورية ولشرق الأردن والعقبة، وهي أهم نقطة دفاع للبلدان العربية والاتحاد العربي المقبل».

■ سنة 1938 أخذت الفوضى تدب بين صفوف الثائرين على قوات الاحتلال البريطاني، وكان أكرم يعمل موجها قوميا في العراق، والرسائل بينه وبين شقيقه عادل كثيرة، خاصة ما يتعلق منها بفلسطين وشؤون الثورة، وقد أبلغه في إحداها ضيقه الشديد من الفوضى بين فصائل الثائرين، فأجابه أكرم بقوله «ربما كانت معالجة بعض الفوضى بحضور عناصر جديدة إلى فلسطين لدرس الحال وإبداء المشورة في كيفية القضاء على الفوضى ...» فأجابه برسالة قال في بعضها «.. إن المسألة لا تعالج بالمسكنات، والفوضى بعد السكون قد تعود إلى أشد مما كانت عليه، فلا بد إذا من المعالجة الأساسية الجذرية التي تقتل جذور الداء. وهذا لا يكون إلا بتوحيد القيادة وجمعها في قبضة قائد قدير ذي حنكة، عالم، بصير، محيط بجميع أطراف المسألة، لا يرد له قول، فإذا قال قولا أجابه الكل بالسمع والطاعة، وإذا كان لديكم رجل جامع لهذه الصفات فأهلا وسهلا، ولو كان من العراق أو من سورية أو من الهند والسند، حينئذ تتوجه الجهود نحو الغاية السامية، ولا تتجاوز نطاقها وتنحصر في دائرة عملها - إلى أن يقول - إن المسألة لا تحتاج إلى تسويق، فليحضر القائد المسموع الكلمة، الموحد للمجهودات، المواطن لنفسه على أن يفنى قبل أن يمس العمل القومي بسوء .. الخ». ويقول أكرم في يومياته «قرأت هذا الكتاب كثيرا. ما أظن أن أحدا ممن عرفت تتوافر فيه الصفات المطلوبة!».

نكبة فلسطين

كان عادل زعيتر صريحا واضحا، وصلبا إلى أبعد الحدود فيما يتعلق بمصير الأمة ومستقبلها، ففي مذكرة أعدها على أثر وقوع نكبة فلسطين يوجز فيها أسباب النكبة، وواجب الأمة إزاءها، فدعا إلى بيته في نابلس بتاريخ 1948/11/5 نخبة من رجالات اللواء للاطلاع عليها، فأقروها ورفعوها إلى رؤساء الوزارات المصرية والعراقية والسورية واللبنانية والأردنية ووزير خارجية السعودية وأمين سر الجامعة العربية ورئيس وفد اليمن لدى الجامعة وإلى عموم رؤساء المجالس النيابية في الدول العربية ورئيس مجلس الشيوخ المصري ورئيس مجلس الأعيان العراقي، وقد وقّع عليها عادل زعيتر السادة سليمان طوقان، فريد عنبتاوي، حكمة المصري، هاشم الجيوسي، عبد الحميد السائح، الدكتور مصطفى بشناق، فائق عنبتاوي، حلمي العبوشي، فضل الطاهر. ولضيق المكان أكتفي بذكر فقرة واحدة منها؛ «...ويظهر أن العوامل الإقليمية تحتل المكان الأول لدى طائفة الدول العربية، فلا نرى هذه الدول أن تتخذ أي تدبير حازم تجاه ما للدول الأجنبية التي تؤازر اليهود من المصالح الاقتصادية في بلاد العرب، وإن كانت تلوح في الحين بعد الحين بتهديدات لا تجوز حتى على الولدان، والعرب قد بلغوا من الخور في الانتصار لقضيتهم الكبرى، ما صاروا يطالبون مجلس الأمن بالانتصاف لهم من اليهود ودرء اعتداء هؤلاء عنهم !! ..

الوحدة العربية

ومن حديث لعادل زعيتر في مجلة العالم العربي التي كانت تصدر في القاهرة آنذاك؛ يقول فيه «... إن الدور الذي تمثله الأمة على مسرح التاريخ، إنما يكون بنسبة قوة المثل العليا التي تخالطها، فإذا كان مثل الأمة الأعلى ضعيفا أو مفقودا، فإن هذه الأمة تفسح لغيرها مجالا للسيادة عليها، لا سيما الأمم صاحبة المثل الأعلى. وإني أرى أن يكون المثل الأعلى للعرب في مختلف أقطارهم هو الإيمان بالوحدة العربية، ومثل هذا الإيمان لكي يكمل، على العرب أن يستعدوا لأداء ما يتطلبه من بذل وتضحية تناسب جلاله وأهميته، فإذا اعتنقت الأمة العربية هذا المثل الأعلى ولم تتخل عنه، فلن يذهب جهدها سدى، بل يظل مثلها الأعلى المنارة التي تهديهم ..»

الجامعة العربية

عند إنشاء الجامعة العربية وتوقيع ميثاقها، أخذ البعض يتهمك عليها، ويغمز من قناتها، باعتبار بريطانيا وراء قيامها، مشيرا إلى تصريح وزير خارجيتها في مجلس العموم البريطاني في 24 شباط 1943 بأن بريطانيا تنظر بعين العطف إلى قيام وحدة عربية اقتصادية أو ثقافية أو سياسية؛ فنشر عادل زعيتر مقالا في جريدة فلسطين «يافا» يبين رأيه في الميثاق واعتراض البعض عليه. جاء في جزء منه «...إن ميثاق جامعة الدول العربية هو مقدمة لميثاق الوحدة في المستقبل، وإن شئت فقل الخطوة المباركة الأولى، في سبيل جهاد العرب لتحقيق وحدتهم، وبالشعوب لا بالحكومات تتم الوحدات، والسييل إذا طغى لم يقف أمامه حائل، ولا يجزعن العربي من أن الأجنبي هو الذي حفزه إلى تلك الخطوة المباركة، ما دام هو العربي مستعدا لتحقيق هدفه الأسمى، ولا يخافن العربي من رجوع الأجنبي عما أحبه له، فالوحدة العربية إذا تمت، وأراد الأجنبي أن يصرف العربي عنها، حدث مثلما وقع بين فانوس وتاييس⁽³⁴⁾ كما قصه أناطول فرانس ...»

حديث مع فائزة عبد المجيد

كان من أسعد أوقات راحته على قتلها، تلك التي يزوره فيها مثقف مطلع، يتذوق العلم والأدب، وكان منهم الأدبية المعروفة الآنسة فائزة عبد المجيد⁽³⁵⁾ ففي مقال لها نشرته جريدة الدفاع «القدس» بتاريخ 13 ديسمبر 1957 تحت عنوان «عادل زعيتر .. ظاهرة قومية خالدة» أجتزئ منه ما يتعلق برأي عادل زعيتر في الأمة العربية إثر نكبتها في فلسطين، تقول: الإيمان والمثاشر هي عماد الشعوب في حركاتها التحررية، فتحت ظلال الإيمان والعاطفة الوطنية العميقة تسير الشعوب، وكانت هذه عقيدته. جئت أسأله - والكلام لا يزال لفائزة عبد المجيد - إثر نكبة فلسطين عن الأمة العربية وهل هي فعلا «أمة» وهي التي تمتهن بكرامتها وتهدد بوجودها؟ فأجاب في ألم بالغ: «وددت لو أعفيتني من سؤالك.. ألا لو كان العرب اليوم أمة لها مقومات الأمم الحية، من إيمان وعاطفة وروح جامعة، إذا لانصهرت خلافاتهم وتوحدت صفوفهم، ولو وجدت الأمة العربية ذات الشعوب الواعية، لزلزلت لكارثة فلسطين... وفرضت مشيئتها، لقد كان في كارثة الأندلس محو حضارة وتاريخ، ولكن في نكبة فلسطين تهديد كيان لأمة بأكملها

.. إنه لن يكون خلاص لهذه الأمة، إلا بجيل جديد يجهر بالحق، ويضحى بالمناصب والمظاهر في سبيلها، ويحمل آمالها وتبعاتها» - وتتابع الأدبية فائزة القول: وحلت الكارثة في الوطن، وسقطت الراية العربية عن مدنه العامرة وسبعمائة قرية، فإذا هو يشتعل حزنا، ويهب يوم معاهدة رودس، فيدعو إلى عقد اجتماع في بيته، كان منه تلك الوثيقة التاريخية التي وضعها بقلمه بالاشتراك مع زعماء ووجهاء المثلث. وهذا هو «عادل زعيتر» يوم يشهد جموع اللاجئين تتجاوب أطراف الأرض والسماء بظلاماتهم وصرخاتهم يهيب بالمرأة وبكل فرد للجهد، ويردد، ونفسه تتقطع حسرات، في القادة المستسلمين «إنهم لا إيمان لهم!»... قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم» .

درس في الأخلاق

يقول ابنه عمر: ذات يوم استدعاني وشقيقي وائل إلى مكتبه، وكنا يافعين، وسلمنا ورقة كتبها، وطلب منا استنساخها كل على حدة، مع تشكيلها وعرضها عليه، وكانت في معظمها تدور حول الأخلاق، أذكر منها ما قاله المتنبي:

وما الحسنُ في وجه الفتى شرفاً له
وقول عدي بن زيد:

عن المرء لا تسأل وأبصر قرينه
وقول السموأل:

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه
وقول شوقي:

إذا أصيب القوم في أخلاقهم
فأقم عليهم مأثماً وعويلاً

وقوله كذلك ..

وليس بعامرٍ بُنيان قوم
وقوله أيضاً .

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت
فإن هم ذهب أخلاقهم ذهبوا

بعد أن نفذنا رغبته توجهنا إليه، فاطلع عليها، وصحح لنا بعض الأخطاء في التشكيل «وللأمانة كانت الأخطاء في إجابتي أكثر قليلاً، مما في تشكيلات إجابة وائل .. طلب منا حفظها وأعطانا مهلة ساعتين، ومن يليقها أمامه بشكل جيد دون خطأ فله مكافأة، وبالفعل عدنا إليه وألقيناها فنجحنا بالامتحان، ووعدي بكرة قدم، حيث كنت أعشق الرياضة، أما وائل فكافأه بسمفونية لبتهوفن، حيث كان يعشق الموسيقى. في اليوم التالي استدعانا و طلب منا الأصعب وهو «إعراب» تلك الأبيات، وأمهلنا يوماً كاملاً! .. وللحقيقة أخفقنا في الامتحان، فأخذ يوجهنا إلى ضرورة الاهتمام والتركيز على القواعد العربية والشعر الجيد، وأن الشعر الجاهلي هو أحد مقومات التراث العربي .. ومن بعض أبيات الشعر التي وجدت ضمن أوراقه، حيث تدلنا على ما كان يشعر به ويؤمله من جحود الأمة نحوه، قول المتنبي:

لما وزنت بك الدنيا رجحت بها
وبالورى قلّ عندي كثرة العدد

وقوله كذلك :

قطعتهم حسداً أراهم ما بهم
وكتيرا ما سمعته يردد قول المتنبي :

أنا في أمة تداركها الله
وتراه حيناً يعزّي نفسه ويردد في تواضع شديد قول الشافعي :

كلما أدبني الدهر
وأذا ما ازددتُ علماً

أراني ضعف عقلي
زادني علماً بجهلي

بينه وبين زوجته

كان عادل زعيتر يعيش بنابلس في بيت جميل كثير الأعمدة، يعتز به لأنه بناه على الطراز العربي الأندلسي، وكانت زوجته «ميسون» أم عمر تماحكه بين الحين والآخر، فتردد أمامه ما كانت تردد سميتها «ميسون البحدلية» أمام زوجها معاوية بن أبي سفيان:

لبيت تخفق الأرياح فيه
أحب إليّ من قصر منيف

ولبس عباءة وتقرّ عيني
أحب إليّ من لبس الشفوف

فيجيبها ضاحكا ومماحكا وهي الشهيرة بإعداد الطعام المتقن:

وأكل كسيرة في كسر بيتي
أحب إليّ من أكل الرغيف

ذكريات أكرم زعيتر

يقول شقيقه المؤرخ الأستاذ أكرم، وما أكثر ذكرياته عنه «... كان عادل يطرب للشعر الرائع .. وقد يحفظه غيباً، وهو يُكرّر المتنبي، ومما حفظه غيباً قصيدة «البردة» للبوصيري، وما أكثر ما تغنى بأبياتها، وكان يؤثرها على معارضة شوقي لها، مع بالغ إعجابه بشوقي، وقد جادلته ذات مرة في هذا، فراح يوازن بين القصيدتين، ولما وصل إلى قول البوصيري في وصف الصحابة :

كانهم في ظهور الخيل نبت رُئي
من شدة الحزم لا من شدة الحزم

قال: هذا البيت وحده يعدل قصيدة رائعة! ومما حفظه في مستهل شبابه، قصيدة رثاء الأندلس المنسوبة إلى أبي البقاء صالح الرندي ومطلعها :

لكل شيء إذا ما تم نقصان
وعمرية حافظ إبراهيم ومطلعها:

وحسب التوافي وحسبي حين أقيها
أنني إلى ساحة الفاروق أهديها

يقول ابنه عمر: وقد أغراني بمكافأة كي أحفظها، وأنا لا أزال طالبا في الابتدائية ففعلت، وما أكثر ما سمعته يردد قول الإمام الغزالي :

غرلت لهم غزلاً رفيقاً فلم أجد
لغزلي نسا جاً فكسرت مغزلي

ولست أنسى أنه كان يردد في مرضه الأخير :
وان تسأل الأيام عني ما درت

وأين مكاني ما عَرَفَ مكاني

مهرجان ابن سينا (٢٧)

ويستطرد الأستاذ أكرم قائلا: « وجئته يوما وقد ركم أمامه عشرات المؤلفات بالعربية وغيرها عن الفيلسوف ابن سينا ويغوص فيها باحثا، دارسا، منقبا، وحدث أن كان يُقام في ذلك الحين المهرجان الألفي لابن سينا في بغداد، ودُعي إليه كثيرون من الأقطار العربية، وأغفلت دعوة عادل، وقلت له في تحليل ذلك: إن عزوفك عن الشهرة، وزهدك في الإعلان، هما سرٌّ ما ترى، فسخر بهذه الحجة ثم قال: إن الجواب تجده عند ابن سينا نفسه في قوله:

لما عَظُمْتُ فليس مصرٌ واسعي
لما غلا ثمني عدمتُ المشتري

ولم تمض أيام قليلة حتى جاءت جريدة «لواء الاستقلال» العراقية، تحمل مقالا للأستاذ «فائق السامرائي» يندد فيه بالقائمين على الاحتفال، لأمر جعل في مقدمتها، إغفال دعوة عادل زعيتر إغفالا هو منقصة للاحتفال، واطلع عادل على الكلمة، فرأها أكرم من الدعوة وقال « ربّ كلمة يقولها مفضل، خير من ألف وسام ووسام».

شعراء الترك

ويضيف الأستاذ أكرم « وعادل واسع الاطلاع على الآداب التركية، وله في شعرائها وكتّابها آراء، وكثيرا ما كان يفاضل بينهم، فيضع الشاعر التركي الأعظم «عبد الحق حامد» في الذروة، وأذكر انه كان يتحسر على فقدان ديوان الشاعر التركي «توفيق فكرة» واسمه «رباب شكسته» أي القيثارة المحطمة، وفي الديوان قصيدة رائعة بعنوان «سيس»⁽³⁸⁾ أي الضباب، وكان عادل مفتونا بها يردد كثيرا من أبياتها، حتى إذا علم أن السري العراقي محمود صبحي الدفترلي، ضليح في الآداب التركية، بعث إليه يرجوه بأن يتحفه بصورة عنها، فأرسلها إليه مصحوبة بأخرى لتوفيق فكرة عنوانها «رجوع» والقصيدة الأولى يتحدث فيها الشاعر عن الآستانة المتوارية وراء ضباب من الشرور في العهد الاستبدادي، وكان عادل يرجو أن يترجمها إلى العربية، وكنت أحدث الأستاذ محمد الشريقي في هذا، فسمعتة يتلوها غيبا في نشوة غامرة، وقال لي إنه ترجمها في مطلع صباه، ولكنه يرجو أن يترجمها ثانية ليطلع عليها أبناء العربية، ولعله يقدمها إلى روح صديقه عادل زعيتر» .

تركه العامة

على أثر إجهاض الثورات والانتفاضات التي قامت ضد الانتداب البريطاني، ووعده بلفور المشؤوم، والهجرة اليهودية إلى فلسطين، والتنكيل الإجرامي بالعرب أبناء البلاد ... دون نجدة حقيقية مخلصة من الدول العربية «الشقيقة»، وجد عادل زعيتر أن السبب الرئيس لبدء انحسار راية العرب هما «التخلف» و «التشردم» ! وأن طريق الأمة الوحيد لإيقاف هذا التدهور والنهوض بنفسها لن يكون بغير «العلم»

والإيمان بمثل أعلى هو «الوحدة العربية» . ومن هنا تجده يرسل رسالة إلى شقيقه الأستاذ أكرم مؤرخة في 19 فبراير يقول فيها «... بلغت التاسعة والأربعين من عمري، وأصبحت بذلك على أبواب الخمسين، ولا أدري ماذا بقي لي من العمر، ويكاد قلبي يتحرّق من أنني لم أقم بشيء تجاه أمتي مما تطمئن إليه نفسي في عالم العلم والسياسة، فترونني عازما على تطبيق المحاماة، وسلوك السبيل الذي كتبت لك عنه في العمل الدؤوب لإنقاذ كرامة الأمة واستعادة مكانتها المرجوة» .

ناسك العبد الثقافي

وهكذا انقطع عادل زعيتر إلى العلم والأدب والسياسة المثالية، فاعتكف، وانكبّ على إكمال أضخم رسالة ثقافية يمكن لإنسان «فرد» أن يقدمها لأمته. علما أن هذا الاعتكاف لم يمنعه من المشاركة قدر المستطاع في السياسة، والدفاع بقوة عن حقوق الأمة القومية، فتجده حين حلت بالأمة العربية كارثة فلسطين، وقامت الهدن الروديسية، انبرى إلى إعداد المذكرات والبيانات السياسية داعيا إلى وحدة الصف الوطني والقومي، والوقوف بصلابة في وجه الكوارث، وكلما سأل سائل حول عزلته التي اختارها لنفسه، وانكباه على نقل الفكر العالمي المبدع إلى العربية أجاب: أمتي بحاجة إلى العلم البناء الذي يخدمها ويخدم البشرية، وللحاق السريع بركب الحضارات التي سبقتها .. والأعمار قصيرة، فلا مجال لإضاعة الوقت فيما لا يجدي أو ينفع» . أما حول اعتكافه عن الناس وإحساسه بالجهود، فيردد قول الشاعر:

لما عَدَمْتُ مؤانسا وجليسا
ناديتُ بقراطاً وجالينوساً (٣٩)
وجعلتُ كُتُبها شفاً تُفَرِّدي
وهما الشفاء لكل جرح يُسى

وما أوقع وأجمل ما وصفه به الأستاذ الأديب المعروف «وديع فلسطين» حول اعتكافه هذا قوله «عادل زعيتر .. راهب القلم والفكر، وناسك المعبد الثقافي» .
وقول الشاعر العربي الكبير الأستاذ محمد عبد الغني حسن⁽⁴⁰⁾ حول ذات المعنى في صديقه عادل زعيتر :

ينام الوري ملء العيون وأنت لا
وتحمل منظارا كأنك كاشف
تصوغ معاني الخالدين بلاغة
تري النوم إلا ساهراً مترقبا
به ما اختفى خلف السطور وما اختبا
وتسكبها للضاد لحنا معربا

كذلك قول الشاعر الكبير عادل الغضبان:

إذا سَمِعْتَ في هجعة الليل همسة
وهبت نؤوم الطير من وكاتها
تنبّ أن الصوت صوتُ يراعة
تبارك من أهدى كريم يراعه
فوقف مأخوذاً على الدرب عابره
ينافرها حلوى الكرى وتنافره
تمرّ بها فوق الطروس خناصره
إلى العرب كنزا لا تُعدُّ ذخائره

كلية التربية والتعليم في بغداد، فإدارة كلية المقاصد الإسلامية في بيروت. أسس سنة 1962 جريدة المساء ورأس تحريرها، انتخب سنة 1960 نائبا عن بيروت، فوزيرا للبلديات ووزيرا للدخالية والأعلام، وله مؤلفات مهمة جملة في التربية وتاريخها وفلسفتها، توفي عام 1948.

14. أميل لودفيج: عالم ألماني اشتهر بما وضع من سير العظماء رجالا ونساء، وقد نقل له المرحوم زعيتر سبعة مؤلفات منها النيل، البحر المتوسط، بسمارك، نابليون، كليوباترة، توفي عام 1948.
15. المجاهد محمد علي الطاهر، أحد رجالات الرعيل الأول في فلسطين، وكنيته «أبو الحسن» صاحب ورئيس تحرير جريدة «الشورى» القاهرية، شهيم وصلب في آرائه ومعتقداته. ناضل ضد الصهيونية والانتداب البريطاني، ولقي في سبيل ذلك السجن والنفي. اتخذ من القاهرة مقرا، حيث اعتبر المعتمد الأول للحركة الوطنية الفلسطينية فيها، وكان مكتبه يعج دوما برجال الأدب والسياسة وقادة التحرر الوطني من المشرق العربي ومغربه. من مؤلفاته «نظرات الشورى» و«ظلام السجن» و«معتقل هاكستب» تربطه صلات بنو الشيخ عمر، وصداقة حميمة مع عادل وأكرم زعيتر، وكذلك صلات أبوية مع عمر عادل وشقيقه الشهيد وائل، توفي في بيروت سنة 1974.
16. الشهيد من نظم فضيلة الشيخ أحمد البسطامي.
17. سمي شارع باسمه في جبل اللويدية بالعاصمة الأردنية.
18. عمر عادل زعيتر: لواء ركن متقاعد، درس في النجاح بنابلس، والفرنندز برام الله، وحصل على الثانوية من مصر، والتحق ضابطا في الجيش الأردني عام 1951 ودرس في معاهده وكنيته، كان آخرها كلية القيادة والأركان 1974 وتخرج في جامعة مؤتة. شارك كمتطوع بوحدة المغاوير في جيش الإنقاذ عام 48 وجرح في معركة مستعمرة «النيقب» على بحيرة طبريا، كما شارك في حرب 67 على الجبهة المصرية في سيناء، وحرب 73 على الجبهة السورية في الجولان. أهم أوسمته الواجب العسكري من الدرجة الأولى، والممتازة من أمير دولة الكويت، وسام الشجاعة من الرئيس جمال عبد الناصر، وسام الشجاعة من الرئيس حافظ الأسد، عمل في الجيش الكويتي ثلاثين عاما، رأس عدة وفود عسكرية، أهمها إلى الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وفرنسا وبريطانيا، كان آخر منصب له «قائد ل سلاح المدفعية» تقاعد بناء على طلبه سنة 1986، وله دراسات عسكرية منشورة، ومقالات فكرية وسياسية.
19. الشهيد وائل زعيتر: مفكر ومناضل وأديب، أثنى الإنجليزية والإيطالية ونوعا ما الألمانية والأردو، عمل في الكويت والعراق وألمانيا وإيطاليا، أخيرا نمثلا لحركة فتح في إيطاليا. اغتالته الصهيونية في روما سنة 1972، صدر عنه كتاب بالإيطالية «إلى فلسطيني في ذكرى عادل زعيتر» وترجم ونشر بالإنجليزية، أهم أصدقائه الكاتب العالمي ألبرتو مورافيا الذي رثاه بحرقه.
20. نائلة زعيتر: درست الثانوية في نابلس ودار المعلمين برام الله، وحصلت على بكالوريوس في الأدب الإنجليزي من جامعة القاهرة، والماجستير من جامعة لندن، وتدرّس حاليا في جامعة النجاح بنابلس.
21. وضاح زعيتر: مهندس مدني، درس في نابلس والكويت، وحصل على البكالوريوس والماجستير من جامعة «دار مشقات» بألمانيا الغربية، وعمل 12 عاما مع شركة «هوكيف» عام 1972 أبعدته السلطات الألمانية تعسفا لنشاطاته الوطنية، ثم كسب قضية ضدها وعاد إلى عمله هناك، يعمل حاليا في السعودية.
22. سلمى زعيتر: حصلت على الثانوية العامة من نابلس، وبكالوريوس علم الاجتماع من الجامعة الأردنية، متزوجة تسكن حاليا في دبي.
23. الشهيد عبد الرحيم محمود: شاعر مناضل وأديب، شارك في ثورة 1936، ولجأ بعدها إلى العراق، ودرس وتخرج في الكلية العسكرية عام 41، شارك في ثورة رشيد عالي، وعاد بعدها إلى فلسطين ليعمل مدرسا في النجاح بنابلس، عمل سنة 48 ضابطا في جيش الإنقاذ، واستشهد في معركة «الشجرة» قرب الناصرة، من آثاره قصائد شعرية تدل على روح وطنية متوقدة، ومن أهم شعره الذي يدور على الألسنة قوله:

ساحمل روحي على راحتي والقي بها في مهاوي الردى
فإما حياة تسرّ الصديق وإما ممات يغيب العدا

24. أناتول فرانس: كاتب فرنسي كبير وروائي عظيم، كان عادل زعيتر يزوره في آخر سني حياته، وقد أعجب بعلمه وثقافته أيما إعجاب، مُنح جائزة نوبل في الأدب عام 1921.
25. المؤرخ المجاهد أكرم زعيتر: مجاهد كبير ومؤرخ ومؤرخ مؤرخ وخطيب مفوه، وحدوي وأحد قادة النضال الوطني ضد الاستعمار والصهيونية، اعتقل وسجن وأبعد عن دياره أربعة عشر عاما، اشترك في معظم المؤتمرات الوطنية والإسلامية المناصرة لفلسطين، بالإضافة إلى شهادته العلمية، تتلمذ على يد عادل زعيتر والنشاشيبي والسكاكيني، ورشيد رضا وشكيب أرسلان، وله مؤلفات عدة أهمها، القضية الفلسطينية، وثائق الحركة الفلسطينية، الحركة الوطنية الفلسطينية بواكير النضال، من أجل أمتي، بدوي الجيل وإخاء أربعين عاما، ولد في نابلس سنة 1909 وتوفي -رحمه الله- في عمان 1996، وستصدر هيئة الموسوعة التربوية كتابا خاصا يتضمن سيرته وآثاره.
26. الشهيد سليم الأحمد عبد الهادي: من رجالات فلسطين المناضلين، وواحد من الشهداء الذين أعدمهم جمال السفاح، اختارته اللجنة العليا لحزب اللامركزية في القاهرة معتمدا لها في جبين وحيفا، فأسس لها مكاتب في كلا المدينتين، ونشط في الدعوة لمبادئها، ولهذا سجن في عاليه عشرين يوما اقتاده الترك بعدها أي في 8/2/1915 إلى دائرة الشرطة ببيروت حيث أعدم، اشتهر بوطنيته ومروءته ورباطة جأشه، وسجل تلك اللحظة وصيته المشهورة التي يقول في بعضها «... إني أكتب هذه قبل موتي بنصف ساعة،

1. ملخص لسيرة الفقيه عن «مجلة المجمع العلمي العربي» بدمشق مؤرخة في كانون الثاني 1958 وقد نعتته بوصفه عضوا فيه .. وعن جريدة «الحياة» البيروتية المؤرخة في 10 كانون الأول 1957
2. جاء في رسالة بعث بها الفقيه إلى والده فور الاحتلال البريطاني بنابلس «ولكن القافلة التي كنت فيها ضلّت السبيل في البادية التي بين هاتين القبيلتين، فقدنا الماء، ولحقنا من العطش الشديد ما جعلنا مشرفين على الموت ولا أمل لنا في الحياة، ثم ذهب منا فارسان أحدهما إلى الشرق والآخر إلى الغرب، عليهما يعثران على منبع ماء فتشقى غلطنا، وما هي إلا أربع ساعات حتى جاء الخبر بالاهتداء إلى بئر، فركعت لله ساجدا، وعددت نفسي خلقت من جديد، وعزمت على وقفها على أمتي، وعاهدت الله على ذلك، ثم أقبلنا على الماء وارتويتنا، ثم توجهنا نحو صاحب السمو الملكي، الأمير فيصل، قائد الجيوش العربية الشمالية بأبي اللسل».
3. كان من أركان الجمعية السورية العربية بباريس، وكان من زملائه في جامعة باريس السادة: عبد الله البافي، حبيب أبو شهلا، محسن البرزي، محيي الدين النصولي، عمر الفاخوري، نجيب الأرمنازي، إحسان الشريف، راشد طيارة، عبد الله المشنوق، كمال عيتاني، جميل صليبا، جعفر الجزائري، موفق الألويسي، أنيس الصغير، عبد الحميد القشطيني، وغيرهم، وكان الشهيدان الدكتور صالح قنباز وعادل نكد والدكتور يوسف ميرز من أصدقائه الحميمين.
4. الحاج نمر حماد.. درس في إسطنبول والأزهر. كان مديرا لأوقاف نابلس، ومن ثم رئيسا لبلديتها، وعضوا في اللجنة التنفيذية لحزب الإصلاح النابلسي إلى الفكر الحدودي. له دراسات منشورة في الفقه الإسلامي توفي عام 1941.
5. الحاج توفيق حماد.. أحد رجالات الرعيل الأول في فلسطين، ولد في مدينة نابلس، وكان ذا شخصية قوية، فرضت زعامتها على أبناء جيله، انتخب رئيسا للبلدية من 1902 - 1908 فأنشأ المستشفى الوطني، انتخب عضوا في الوفد الفلسطيني إلى لندن، كما انتخب نائبا لرئيس المؤتمر السوري الفلسطيني الذي عقد في جنيف عام 1921 ثم عضوا باللجنة التنفيذية للمؤتمر الإسلامي عام 1931 وتوفي عام 1934.
6. الشيخ عمر زعيتر.. عمل مدرسا بالمدرسة الرشيدية ثم عضوا في محكمة الحقوق بنابلس فعضوا في المجلس البلدي عام 1914 فممثلا بنابلس في المجلس العمومي لولاية بيروت سنة 1915 التي كانت نابلس تابعة لها. ثم رئيسا للجنة الأشغال «النافعة» والزراعة ثم عين رئيسا لبلدية نابلس عام 1917. كلفه الترك عام 1918 حال رحيلهم من المدينة بتأليف حكومة مؤقتة لإدارة شؤون المنطقة، وظلت الحكومة تمارس أعمالها إلى ما بعد دخول القوات البريطانية إلى فلسطين بشهر وعدة أيام. قام بإنشاء دار للأيتام ومدرسة العرفان. توفي عام 1924.
7. المجاهد صبحي الخضرا.. من رجالات الرعيل الأول في فلسطين، تخرج في الكلية العسكرية في الآستانة، التحق بالثورة العربية الكبرى وشارك في عدة معارك منها «أبو اللسل» حيث جرح، عهد إليه بمديرية الأمن العام في بداية الحكم العربي الفيصلي بدمشق سنة 1918 واشترك في معركة ميسلون بقيادة المجاهد يوسف العظمة، درس في معهد الحقوق بالقدس، عمل محاميا مرموقا، واختير عضوا في اللجنة التنفيذية العربية برئاسة موسى كاظم باشا، فمديرا لمكتبها عام 1929 كما شارك في تأسيس حزب الاستقلال الذي كان يرأسه الأستاذ عوني عبد الهادي. توفي عام 1954.
8. عندما نفذ جمال باشا السفاح حكمه بإعدام بعض أحرار العرب سنة 1915 كان من المفترض أن يكون معهم الوطني السيد حسن حماد، لكنه لم ينجأ بأعجوبة، إذ لم يستلم إشعار استدعائه للمحاكمة بسبب تأخر في إجراءات التبليغ، فلم يحضر الجلسة، فحكم عليه بالإعدام غيابيا، وحين وصله إشعار الاستدعاء، سافر للمثول أمام المحكمة العسكرية في عاليه، وصدفة جنحت العربية «الخنزور» التي كان يستقلها على جانب طريق عاليه، وفي طريقه إلى أحد الفنادق اشترى صحيفة وإذا به يفاجأ بخبر حكم الإعدام. فهرول بحقيقته إلى دمشق، حيث اختبأ في منزل السيد «أبو الخير الموقع» حيث أطلق خيته، وتزوج من ابنة الرجل الشجاع، وعاد سالما إلى نابلس بعد انتهاء الحرب.
9. بتاريخ 3 تشرين الأول 1918 ونتيجة لإحساس القوات التركية بالخطر البريطاني.. كلف متصرف لواء نابلس «فائق بك» وبكتاب رسمي رئيس البلدية الشيخ عمر زعيتر بتشكيل حكومة للمحافظة على حقوق الأهالي في المنطقة فشكّلها على النحو التالي:
الحاج نمر حماد مدير تحريات، ورئيس ديوان، الشيخ رشيد البيطار قاضيا شرعيا، الدكتور البشناق رئيسا للصحة، شاعر أفندي الجوهري رئيسا للمالية، شريف أفندي صبوح رئيسا للمعارف، الشيخ نمر الداري رئيسا للمحاكم النظامية، وفائق أفندي العنتياوي، وزهدي أفندي العنتياوي، وجميل أفندي كمال مديري أمن. بعد شهر وعدة أيام من مجيء الحاكم البريطاني، استلم العمل من الشيخ عمر الذي عاد لرئاسة المجلس البلدي.
10. الحاج أحمد حسن زعيتر.
11. السجّية: مجموعة من مقومات عقلية وعاطفية وشخصية.
12. الدكتور غوستاف لوبون: فيلسوف فرنسي وعالم اجتماعي، يعتبر أكثر من أنصف العرب من علماء الغرب، نقل له المرحوم زعيتر اثني عشر مؤلفا، منها حضارة العرب، حضارات الهند، روح الجماعات، السنن النفسية لتطور الأمم، فلسفة التاريخ، روح التربية، الآراء والمعتقدات وحياة الحقائق، توفي عام 1934.
13. الأستاذ عبد الله المشنوق: من أعلام الأمة، تخرج في الجامعة الأمريكية في بيروت، درس الحقوق في جامعة بارييس، ثم تولى إدارة

قالوا في عادل زعيتر

كان في «عادل زعيتر» قوة على العمل، وصبر على السهر، وقدرة على الدأب، قل أن يعد جهده بالساعات والدقائق، فنجعل من ذلك مادة للتفكك والمعبأة، وهو يضيق بهذه المفاهكة أحياناً، ويغضي عنها حيناً، وما كنا نعلم أن القضاء راصد له ليتخطفه منا في خلسة المختلس ...

رسالة من الرئيس شكري القوتلي في تأبين المرحوم:

من الرئيس القوتلي

رئاسة الجمهورية السورية

حضرة الأخ الأستاذ أكرم زعيتر المحترم

أبعث إليكم بخالص التحية، راجياً أن تكونوا بتمام الصحة والعافية وبعد، فقد نمتي إلي أنكم أجريتم بعض العمليات الجراحية التي تمت ولله الحمد بنجاح، فسررت لهذه النتائج الطيبة ولتمتعكم بالصحة والعافية التي أرجو لكم دوامها واطراد التوفيق والنجاح.

ولقد ألمني غاية الألم أن أسمع بالنبا الفاجع، نبأ وفاة أخيكم الكاتب الكبير المرحوم عادل، ولشدة ما حز في نفسي أن تنطفئ هذه الشعلة الفكرية التي كرسّت أجمل سني حياتها لخدمة لغتنا الأم ونقل روائع الفكر الغربي وتزويد المكتبات العربية ب ذخائر العقل وكنوز المعرفة الإنسانية.

ولا شك أن البلاد العربية التي أدى الفقيد الكبير لها هذه الخدمات الجليلة ستذكر بالخير والعرفان أيادي الأديب الجليل على اللغة والفكر العربيين.

وإني إذ أبعث بأصدق تحياتي، وخالص تعازي أرجو أن يتمتعكم الله بالصحة التامة ويتولاكم برعايته وعنايته. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

دمشق في 16 جمادى الثانية 1977

8 كانون الثاني 1958

شكري القوتلي

وكان في عادل دقة في الترجمة - إلا ما تحدثه الترجمة عن لغة ثانية من فروق - كما كان فيه أصالة في التعبير، وفحولة في التركيب، وضلاعة في اللغة، وميل إلى إحياء الفظة الغريبة، لا استكراها في جلبها، ولكن إشاعة لاستعمالها.

(عبد الغني حسن، كتاب التأبين ص ٤٦)

- أكتب هذه وأحد رفاقي المحكمين معي، محمد الخمصاني، أخذ (ليصلب) وإني مسرور بلقاء الله سبحانه وتعالى» وبعد أن يقسم عنه حافظ باشا وصيا على طفلة طرب، وكان عمرها أربع سنوات، وعلى زوجته يقول «... ليصرف عمي وولي نعمتي حافظ باشا من مالي الخاص ثلاثين ألف قرش، منها خمسة آلاف إلى الفقراء والمحتاجين، وعشرون ألفاً يشتري بها قطعة ملك توقف على المعارف، ويصرف ريعها على تعليم أبناء المستقبل - إلى أن يقول - كتبت هذه بقلم حديد، ومن التدقيق بالخط يعلم أنه كتب جيداً، مما يدل أنني أستقبل الموت بصدر رحب، ذلك لأنني خرجت من هذه الدنيا ناصح الجبين طاهر الذليل، مسلماً مؤمناً بالله واليوم الآخر.» وبعد إعدامه نقلت جثته وجثث إخوانه عبد الكريم الخليل ومحمد ومحمود الخمصاني وصالح حيدر وعبد القادر الخرسا ونور الدين.
27. عوني عبد الهادي: مجاهد كبير، وأحد رجالات العرب البارزين الذين ناضلوا ضد الاستعمار والصهيونية فاعتقل عدة مرات، درس في نابلس واسطنبول، وتخرج في السوربون بباريس، وشارك هناك في تأسيس جمعية العربية الفتاة، لمع في الخمامة وفي الدفاع عن القضايا العربية، فحكم عليه الفرنسيون بالإعدام غيابياً، شارك في معظم الوفود الفلسطينية إلى الخارج، وفي عام 1932 عمل مع آخرين على إعادة تشكيل حزب الاستقلال، وقد انتخب عميداً له. عام 1948 وقع على ميثاق حكومة عموم فلسطين، وكان أحد أعضائها، لكنه استقال بعد فترة وجيزة. آخر عمل له نشر في جريدة الفجر الجديد «بغداد» العدد 862 تاريخ 26 تشرين الثاني 1964
28. عادل الغضبان: أديب عربي وشاعر كبير، كان مديراً عاماً لدار المعارف بمصر ورئيساً لتحرير مجلة «الكاتب» الأدبية الشهيرة. توفي أوائل الثمانينات.
29. الرسالة منشورة بالنزكفراف ص 245 «الجزء الثالث» من قاموس تراجم الأعلام لأشهر الرجال والنساء العرب - تأليف خير الدين الزركلي.
30. وديع فلسطين: أديب عربي وأستاذ علم الصحافة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، كان رئيساً لتحرير جريدة المقطم المصرية، وحالياً المشرف على موسوعة تاريخ الصحافة العربية.
31. المرجع: الحركة الوطنية الفلسطينية / يوميات أكرم زعيتر
32. المصدر نفسه
33. المرجع: كتاب ذكرى عادل زعيتر
34. كان بافانوس تقياً وكانت تاييس بغياً، فاهتدت تاييس بمواعظ بافانوس، فأصبحت قديسة، ثم أراد بافانوس أن يصرف تاييس عن تقواها لنفسه فلم يقدر على ذلك.
35. الأنسة فائزة عبد المجيد: أديبة وكاتبة معروفة، كرسَتْ نفسها لخدمة القضية والدفاع عن المعتقلين السياسيين. لها نشاط كبير في الحقل النسائي الوطني الفلسطيني والعمل الخيري، لها مؤلفات أهمها المرأة في ميادين الكفاح، الليل والفجر العظيم، الطفولة الفلسطينية في الميدان، توفيت 1996.
36. تداركها الله: بمعنى أصلح الله حالها.
37. نقل عادل زعيتر إلى العربية ككتاب ابن سينا للعالم الفيلسوف كرادفو.
38. يقول ابنه عمر: كثيراً ما كنت أسمع الوالد يردد هذا البيت، وأعتقد أنه من نفس القصيدة «أنكوسوسوز ديشماندر لوسيز كوتمايز ... كوتمايز» مع الاعتذار عن التهجئة إذ أنني لا أعرف التركية.
39. جالينوس: طبيب وحكيم روماني
40. الأستاذ محمد عبد الغني حسن: شاعر كبير وأديب وعالم، عضو في المجمع اللغوي بالقاهرة والمجمع العلمي العربي بدمشق والمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب. له أكثر من أربعين كتاباً بين مؤلف ومحقق ومترجم منها: حياة مي، الترجمة في الأدب العربي، الشعر العربي في المهجر، جوانب مضيئة من الشعر العربي، ابن الرومي، الشريف الرضي، وعلم التاريخ عند العرب. لقب بشاعر الأهرام وله خمسة دواوين منشورة، توفي عام 1985.

عاش أيام حياته كلها بين الحبر والورق، ولفظ أنفاسه الأخيرة - بين الحبر والورق - وهو يمسك بيده قلمًا ويكتب .. ويكتب .. كانت حياته كلها كتابة - تأليفاً وترجمة - وكانت حياته حافلة بالروائع التي نقلها إلى العربية .. حقا إنه حصاد ضخم .. هذا الحصاد الذي تركه لدنيا العلم والأدب والفلسفة في عالمنا العربي، المغفور له الطيب الذكر عادل زعيتر.

خمس وثلاثون مجلدا تضم روائع الفكر الغربي في نواحي التاريخ والفلسفة والاجتماع والسياسة والسيرة والحقوق .. هذا هو التراث الغني الذي خلفه لنا عادل زعيتر.

• مؤلفات غوستاف لوبون - كلها - ترجمها بدقة وأمانة وأناقة وفصاحة وإخلاص ما بعده ولا فوقه إخلاص .

• كان حجة في القانون ولكنه انصرف عن المحاماة إلى دنيا التأليف والترجمة بمفرده بالنيابة عن الدول العربية العشر، وأنتج وحده أكثر ما أنتجت متضامنة في جامعة الدول العربية من ترجمات للروائع.

• عاش بين الورق والحبر ورأى الحياة كلها ورقا وحبرا .. ولكنه ما خط على القرطاس بقلمه إلا ما يرفع به رأسه عاليا، ورأس الأمة العربية، ورأس الثقافة الإنسانية.

• وإذا كانت الترجمة وسيلة من وسائل التقارب بين الأمم، فقد كان عادل زعيتر الوسيط الأول في العالم - بأسره - رحمه الله عدد صفحات كتبه، بل عدد سطورها وألفاظها .. فقد كان نسيج وحدة في دنيا التأليف والترجمة.

عبد الله المشنوق، بيروت المساء (بيروت): ١٢، (كانون الأول) ١٩٥٧

أخي! كُت أَرَجُو أن أراك على الحمى
وتفتح من حب ذراعيك باسطا
تصارحنا. ألا بما أنت منتج.
تروح وتغدو للمطابع دأبا
فكم شهدتك الضمئان من الحمى
وتحمل أثقال (التجارب) راضيا
وما عملوا ماذا بذلت لأجلها
وكيف أذبت العين فيها قريحة

تبادلي بالود أهلا ومرحبا
جناحيك، وضاح الثنايا مرحبا
فيبقى على الكتمان سرا محببا
أشد من السهم انطلاقا وأدأبا
تدب رفيقا بالثرى متوثبا
كأنك قد حملت غنما ومكسبا
وكيف قضيت العمر فيهن والصبا
وكيف صبيت القلب فيها مذوبا

أخي! قد نعوا لما نعوك محامدا
فما كُت إلا واحدا فاق أمة
نهضت بعبء آد غيرك حملة
ينام الوري ملء العيون وأنت لا
تدير على القرطاس لحظك دأبا
وتحمل منظارا كأنك كاشف به

كما شيعوا جيلا من العلم غنيّا
وفردا، ولكن كُت جهدا مركبا
تخذت له الإكباب والبر مركبا
لا ترى النوم إلا ساهرا مترقبا
مصعد جولات العيون مصوبا
ما اختفى خلف السطور وما اختبا

تصوغ معاني الخالدين .. بلاغة
وتضفي عليها من بيانك حلة
وتنقلها نقل الأمين .. كأنما
وتؤثر في النقل الفصيح وتنقي
حفاظا على الأصل الذي أنت ناقل
ومن عبق من جهل موارث قومه

فقدانك فقدان الربيع موليّا
وأجذبت الآمال منك وافقوت
وكُت على ما فيك من غضبة، تُرى
تجاوز عن لؤم اللثيم تكوما
وتلقاه، لم تذكر ذنوبا، ولم تعثر
وما عرفت النفس إلا مغاضبا
تؤدي حقوق الله، لا متحيفا
ومن طاب في الله الكريم علاقا

وتسكبها للضاد لحنا معربا
وتلبسها ثوبا قشيبا مذهبّا
خلعت عليها من صفاتك أضربا
من اللغة اللفظ الفصيح المهذبّا
وصونا لعدنان، وحفظا ليعربا
فقد عبق في الحق الأمومة والأبا

وقد كان منصور المراع مخصبا
وقد كُت روضا موق الزهر معجبا
رفيق الحواشي، صافي القلب، طيبا
وتصفح عن ذنب المسيء تأدبا
عيوبا، وتنسى أنه كان مذنبّا
لدنك مشبوب اللظى متلها
وتحفظ حق الناس لا متكبّا
يكون مع الإنسان أبقى وأطيبا

يعد بيننا إلا خيالا تأوبا
ولم تدفنوا ذكرا جميلا محببا
تقلب في أعطافها من قلبا
من الفكر يهدى والحضارات تجبى
تحاول منه في ربي الخلد مأربا

نفضنا الألف اليوم من عادل فلم
دفتنم غداة البين جسما مذوبا
وما مات من أسدى إلى قومه يدا
وليس هناك اليوم من أسنى عطية
لك الله من ضخم التراث كأنما

(محمد عبد الغني حسن، كتاب التأبين ص ١٦٥، ١٦٤)

عجاج نويهض-في «الحياة»

« وآل زعيتر في نابلس هم من السلسلة الفقارية في البلد، وكان عمر زعيتر شخصية راجحة الوزن، من شخصيات فلسطين الذين نشأوا في العهد العثماني، ونفخوا في الأفق العربي نفحات الحياة الوطنية.»

ولنعد إلى الفقيد عادل زعيتر: ففي ربيع 1920 انعقد المؤتمر السوري العربي في دمشق، وبإيعاز هذا المؤتمر فيصلا ملكا على سورية، وكان أعضاء هذا المؤتمر من جميع الأقطار الشامية الداخلية والساحلية والجنوبية، يمثلون جميع سورية، شمالا وجنوبا، داخلا وساحلا، أي مع لبنان رغم وجود الاحتلال الفرنسي فيه، وفلسطين رغم وجود الإنجليز واليهود فيها ووعده بلفور.

وأما «الأردن» فكان وقتئذ، هو القسم الجنوبي التابع للدولة الفيصلية، ولكن تقف حدوده الجنوبية عند «معان». وكان مجموع هؤلاء النواب الممثلين لهذه الرقعة العربية، لا يقل عن 93 نائبا منهم 41 يمثلون سوريا الداخلية، و22 لبنان والساحل باصطلاح ذلك الدور، و23 يمثلون فلسطين، و7 يمثلون

المقاطعات الأردنية، ومعدودون من جملة نواب سورية، فيضافون إلى الواحد والأربعين، وأرسلت نابلس، إحدى مدن فلسطين أربعة ممثلين إلى المؤتمر السوري، وكان الأستاذ عادل زعيتر أحد هؤلاء الأربعة، ولعله كان أصغر أعضاء المؤتمر سناً.

أحببنا الإتيان بهذا الإجمال كله، لتستقر صورة منه في ذهن القارئ، إذا شاء، وليكون الكلام بعد هذا الإجمال على عادل زعيتر، دائراً في إطار واضح الجوانب والأطراف.

ونسوق الحديث كله بعد الآن مساقاً خاصاً بالفقيد، وما كتب له أن يقدمه إلى الأمة العربية من خالد التراث الأدبي الفكري، وفي هذا المضمار، والأمر واضح بين، لا نعلم عربياً آخر في هذا العالم العربي كله، وقد ضارع عادل زعيتر لا في ضخامة الإنتاج الفكري ومقداره، وكفى، بل ولا في نوع هذا الإنتاج ودقة نسيجه وعلو طرازه، مما نأتي على قصته الآن.

درس الأستاذ عادل زعيتر في «سلطاني» بيروت، ثم في «سلطاني» الآستانة، ثم درس الحقوق في باريس وتخرج من جامعتها واتجه فور عودته من فرنسا إلى المحاماة ليتخذها مسلماً له، فكان محامياً قديراً، بارز الضمير النقي، وإذ هو لم ينغمس في الحركة الوطنية انغماساً كلياً، فإنه لم ينقطع عنها مع التصميم، على الشروع في بناء هذا التراث الذي خلده، تراث الأدب والفكر، ولعل العناية التي أخذت بيد عادل إلى مضمار الثقافة مزاجاً بينها وبين المحاماة، هي العناية التي هيأت له هذا المضمار فجنبتة أشواك السياسة، وكان بهذا الخير للأمة العربية كما سترى الآن.

يلوح لي أن عادل زعيتر لما قرر اتجاهه في معركة الثقافة والفكر، لم يفعل ذلك ارتجالاً، ولا ذهاباً مع عابر خاطر والمزاج وهوى النفس، إنما قرّر ما قرر، عن عزيمة مكيّنة، في قرارة نفسه، وعن توطينه النفس على أن يقوم برسالة. فنظر في هذا ملياً، وتدلل نتائج عمله، بعد أن زرع واقتطف وحصد، على أن الرسالة التي اختارها من أبواب الفكر والفلسفة، ليست من نوع تجاري ليملاً جيبه من ورائها في روايات أو أقاصيص أو ما سهل علاجه من الترجمات. بل تعلق رأساً بغرض هو أسمى ما تتطاول إليه عقول نقلة الأفكار من حضارة إلى حضارة.

مترجمات عادل زعيتر هي الآن بأيدي الناس، ولا أحسب أن واحداً من القراء في العالم العربي قد اقتنى في مكتبته الثمانية والثلاثين مجلداً كلها، إلا أن يكون هذا في مكتبات بعض المعاهد، ونفر قليل من عشاق الأستاذ زعيتر.

ولغته في الترجمة هي النقية العالية الطبقة، وقد رسخت قدمه في هذا الفن رسوخاً، يجعل القارئ يؤمن بأنه إنما يقرأ عبارة عربية، كأنها خلقت عربية، ولم تنقل ترجمة بحال، واعتنى بكثير من المصطلحات التاريخية والاجتماعية، نادراً كان معناها أم كثير الشيوخ، فجاء بها محض عربية. وكثيراً ما رأينا أن فرداً من الكتاب تخير لفظاً أو مصطلحاً فوق في أكثر مما يوفق المجمع العلمي بأسره. وأحياناً يثبت في الحاشية اللفظة الأجنبية التي أتاك بتعريب مختار لها.

أما براعته في نقل المعاني، فمتجلية في كل أجزاء المساق. ولا يغربن عن ذهن القارئ في هذا الوطن،

أن هذا النوع من النقل الفلسفي الاجتماعي التاريخي العمراني، هو أدق أبواب الترجمة، إذ العبرة تتعلق بناحية تبدو للقارئ بعد أقل تأمل، وهي أن مجرد معرفة اللغتين المنقول إليها والمنقول منها، معرفة لغوية ولو واسعة، لا يفيد الغرض كاملاً، إلا إذا سبحت معرفة اللغة المنقول إليها بعد ذلك في محيط من الثقافة الغزيرة النيرة، البصيرة الحاذقة، بحيث يجعل الناقل نفسه في هذا المحيط؛ يعلو في مستوى تخيره الصور الجميلة للمعاني في العربية. وهذه الصور إنما هي من هذا المحيط الواسع، وهنا شرف الفن وسموه، ومن هنا ينطلق نوره وإشراقه. كان الأستاذ عادل زعيتر في هذا الباب عبقرياً.

هناك جملة أسباب لإجمال سيرة هذا المنتج الأول من العرب في هذا الجيل. فالسبب الأول أن الشعوب العربية بحاجة إلى أن يظهر فيها فرد يبذل قواه كلها في سبيل النقل الفلسفي، فظهر هذا الفرد وبذل ماله وعلمه وصحته، ونقل هذا النقل، ومات في نابلس وهو بالنسك والعباد أشبه.

وإني على يقين بأن الأمة العربية كلها، كلما هدأت الزعازع السياسية في سمائها، وامتد رواق السكينة فوق أوضاعها، وتلفتت إلى البناة الراحلين من أبنائها، وجدت عادل زعيتر أحد هؤلاء العصبة الذين منحوا أمتهم هذه القطعة النفيسة من المجد الخالد.

« أن سيرة هذا العبقرى الصامت، يجب أن تحفظ للأجيال المقبلة، وما هذه بسيرته كما قلنا في موضوع سابق، وإنما هي إجمال لا أكثر، فنرجو أن تجمع سيرته، وتحفظ آثاره من أوراق وأقلام ومنضدة، حتى وألبسة وأدوات منزلية مختلفة، ومكاتيبه ورسائله ودفاتره، فلقد نسمع بعد قليل من الزمن، محاضراً في معهد أو باحثاً في مجلة أو كتاب ينقب عن آثار عادل زعيتر المتوفى في نابلس سنة 1957.

إن أدباء العرب في دنيا العرب، يحلو لهم أن يعلموا من هو ناقل مونتيسكيو وروسو، وغوستاف لوبون ورينان وغيرهم إلى العربية، فهؤلاء فلاسفة من كبار فلاسفة الغرب، قد أفرغت بضاعة أدمغتهم في رفوف مكاتبنا على يد عادل زعيتر، فأكرم بهذا وأعظم. وفي هذا فليتنافس المتنافسون !

(عجاج نويهض، الحياة / بيروت ١١ كانون الأول ١٩٥٧)

لقد كان المرحوم صديقي في مدرسة إعدادي نابلس، وكان الأول في الصف، وقد حافظ على هذه الأولوية في جميع المعاهد والجامعات التي تلقى علومه فيها. ولد الفقيد في نابلس 1897 وبعد إتمام دراسته في مدرستها الإعدادية، يمم وجهه شطر بيروت، ثم سافر إلى استانبول، وأخذ الشهادة في الآداب من الكلية السلطانية، وفي بدء الحرب الكونية الأولى، دعي إلى الخدمة في الجيش العثماني، فأهلته مواهبه لأن يكون في عداد الضباط المرموقين.

ولما أبصر ما يضمرة الضباط الأتراك من حقد على العرب، وعداء لضباطهم، وعلم بثورة المرحوم صالح الصمادي، الذي كان لا يقل ذكاء وحماساً للعروبة عنه، وكان فرارهما عن طريق جبل الدروز، الذي أطلق عليه أخيراً جبل العرب، لما لأهله من الفضائل على أحرار العرب المجاهدين.

ولما رأى قادة الثورة العربية ميله إلى العلم، أجازوا له السفر إلى مصر ليتم تحصيله، لأن الذي تجنيه العروبة من ثمار عقله وقلمه، أجدى مما يجنيه سيفه، وهناك جنى من العلم ما شاء له الوقت أن يجني، وعندما وضعت الحرب أوزارها، وتم احتلال فلسطين عاد إلى نابلس، وهناك كانت الحركات الوطنية قائمة في دمشق على قدم وساق، وكانت دمشق بوتقة هذه الحركات، تصاغ فيها المعادن العربية التحررية، فرمت إليها البلاد العربية بفلذات أكبادها، ليزوب أبنائها في بوتقة الوحدة، فتألف عليها تحت راية ساكن الجنان؛ فيصل بن الحسين، المؤتمر السوري، الذي انعقد في دمشق 1920 فانتخب نابلس المغفور له فقيدا مع من انتخبته، ليمثلوها في ذلك المؤتمر العتيد، وكان أصغر أعضائه سنا، فبايع المؤتمرين فيصلا، وأعلن تحت رايته استقلال سورية بحدودها الطبيعية، فلم يشأ المستعمرون أن يتم صهر المعادن العربية بهذه الوحدة، فضغطوها وهي طفلة في المهدي، ثم خنقوها .. وكان الاحتلال الفرنسي البغيض سنة 1920 فغادر فقيدا دمشق مع من غادر من أحرار العرب، وسافر إلى باريس حيث درس الحقوق في جامعتها، وتخرج منها حائزا على أكبر شهادة في الحقوق، ومن زملائه فيها السادة مع حفظ الألقاب: حبيب أبي شهلا، عبد الله اليافي، راشد طيارة، نجيب الأرمنازي، إحسان الشريف، محسن البرازي، عبد اله المشنوق، محيي الدين النصولي وغيرهم من الأشخاص الذين لهم موازينهم في البلدان العربية، ثم عاد فقيدا من باريس إلى نابلس، ليصبح ألمع المحامين فيها. وإلى هذا اختير أستاذا للفقهاء الدستوري السياسي وأول المحاكمات المدنية في كلية حقوق القدس.

(من كلمة حسني كنعان، كتاب التأبين ص ٧٠ - ٧١)

لقد كان عادل زعيتر في اعتقادي أعظم وأبلغ مترجم في العصر الحاضر، للأعظم من علماء أوروبا ومفكرها، وقد سئل عادل ذات مرة، لماذا نترجم كتب الغير ولا يؤلف علماء وطننا كتباً مثلها؟ فقال عادل انه في اليوم الذي يصل فيه علمائنا ومفكروننا إلى درجة علماء الغرب في الابتكار والتأليف فلن نترجم كتباً لأحد. وهذا صحيح لأن الناس سيترجمون يومها مؤلفاتنا إلى لغاتهم.

ذلك أن عادل حين تبتل للعلم، كان قد عزف عن مباحج الدنيا وعن السياسة منذ أن رأى الدجاجة يظهر، وأهل «الغوغائية» يبرزون، وأهل الحجى يهملون، فتقرزت نفسه من سوء ما رأى، ونأى بخلقه القويم عما يتهافت عليه أبناء جيله، ولا سيما حين وجد أمتة المعذبة بالاحتلال الأجنبي وتمزيق أوصالها، تسبح فوق جهلها وبؤسها في بحر من الادعاء والغرور، فوق حرمانها نعمة الحرية التي لا ينمو العقل ولا ينصل الفكر بدونها، ولا في غير ظل الاستقلال الظليل..

وسمعت الأستاذ عادل ذات مرة، ونحن نسير في أحد شوارع القاهرة، يتعجب من جريدة معينة، تقرّظ كتابا تافها، وتتحدث عن كثرة رواجه، وتهافت الناس عليه، ثم تهمل كتاب «حضارة العرب» الذي ترجمه عادل وتعجب عليه نحو عامين، مع انه أهدي لتلك الجريدة نسختين منه!

فقلت له: أما اهتمام الجريدة بالكتب التافهة، فهو اهتمام مفتعل لأنه مأجور، وأما شدة رواج الكتاب الذي قرظته الجريدة فلكونه أمّا من الكتب المضحكة أو الكتب المسلية...

محمد علي الطاهر

ومما قاله نظير زيتون أحد أدباء المهجر في حفل التأبين :

ورأيناه في معهد الحقوق في القدس، أستاذا علامة، يلقي الطلبة أمتع الدروس. يروي بها ظمأ كاسفا في النفوس، ويشبع نهما جارفا في الرؤوس، وينسج لهم من العلم خير اللبوس، ويطوف عليهم من نهى العبقريّة بأشهى الكؤوس، فإذا هم والفضل لمن صقلهم وصاغهم، شمس وأي شمس. كنت تبني أمة وديارا. وما همك أن تجمع لؤلؤا ونضارا، ومن كان غنيا بخلقه وعلمه، سخر بالمال وغنمه. فكان على زهادته الزاهدة أغنى الكاسبين، وأكبر الشاكرين.

مع هذا ما اهتديت إلى نفسك ورسالتك. ولا تلمست طريقك في حياتك، ولا قنعت بكل وثباتك، فرحت تجوب عالما كبيرا بعميق نظراتك، ورهيف حصافتك وزكائك، حتى انشق لك الحجاب عن أبعد غاياتك. وكان أن دفعك حبك لأمتك العربية، وللصحى وللعرفان، إلى ما هو أبعد من المحاماة وأوسع من التدريس.

نظير زيتون

كلمة نقابة المحامين للنقيب فؤاد عبد الهادي

كان المرحوم عادل زعيتر خادما للحق والعدالة والقانون، بل يكفي أن أقول الحق، فما العدالة وما القانون إلا صور عملية من صور الحق، وما أجمل الحق وما أروع وأجله، وقد كان الحق الشعلة التي يستنير بها الفقيد في مواقف المحاماة وفي ميادين الجهاد، حين عاد المرحوم من دمشق «وكان عضوا في المؤتمر السوري الذي أعلن استقلال سورية» على أثر معركة ميسلون، عرض عليه منصب كبير في فلسطين العزيزة، التي تأبى إلا أن تظهر في كل حزن وكارثة، لأنه ما ذكرت الأحزان والكوارث، إلا كانت فاجعة العرب بفلسطين، بوطنهم العربي، بقطر من أقطار الشعب العربي بجراحها الدامية، أروع الكوارث.

جرح يصيح على المدى وضحية تلمس الحرية الحمراء

وما ذكرت الكوارث إلا وكانت حرب فلسطين - أو طوشة فلسطين - لست أدري - حرب الدس والخداع والظلم والاستهتار أم الكوارث.

لنا وارد السراب وكل حمل في وليمة الذئب طاعم
قد رجونا من الغنائم حظا ووردنا الوغى فكنا الغنائم

عفوك أيها الفقيد الكبير إذا ما ذكرت فلسطين العربية بحفلة تأبينك، فموقف حزننا عليك أثار في النفس كوامن ألها، لأن اسم فلسطين كان محببا إليك، وهو اسم لاصق بكل قلب من قلوبنا، خالد في ضمير التاريخ.

قلت انه عرض عليه في فلسطين منصب كبير فزهد فيه، وبادر إلى باريس حيث درس الحقوق في جامعتها، وبعدما ظفر بشهادتها متفوقا، عاد إلى وطنه، حيث أثر المحاماة على الوظائف، فلمع نجمه،

فدعي إلى التدريس في معهد القدس، حيث أوى إلى ظله الظليل، جمهرة من أبناء الجيل، هم اليوم محامون وقضاة، مع استمراره بمهنة المحاماة.

عرف في المحاماة مثاليا، فما لجأ في حياته الحقوقية إلا إلى ما يشرف المهنة، وما عرف عنه أنه توكل في جميع حياته الحقوقية، في قضية لا يعتقد أنها عادلة، ولا يرى أن مقتضيات الأخلاق تحتم عليه التوكل فيها.

وما عرفت المحاماة محاميا يُعنى أكثر منه بقضيته، يسهر عليها ويحيط بجميع ملاساتها.

فؤاد عبدالهادي

«ستظل ذكرى عادل زعيتر باقية متصلة ما بقيت الأمة العربية المجيدة.»

(القاهرة، سعيد العريان)

«إنما تفقد الأمة العربية في عادل زعيتر، عالما كبيرا، ووطنيا نقيًا، وكنزا من كنوز المعرفة، وآية من آيات الصبر والجلد.

«فإن بعض الأرواح الصافية، تستشف قرب الأجل فتسارع من خطوها في ميدان الحياة، وتضاعف من جهدها، حتى تترك وراءها أكبر تراث تطمح في بلوغه، وهذا ما كان عليه أستاذنا عادل، وهو مكب على عمله آناء الليل وأطراف النهار.»

(الرياض، أحمد الشقيري)

«خسر الوطن العربي بوفاة عادل زعيتر، وطنيا كبيرا، ومجاهدا فذا، ومحاميا مثاليا، ومحاميا قدم إلى بلاده أضخم تراث علمي يخلده أبد الدهر.»

(نابلس، حكمة المصري)

«لقد كان عادل، يرحمه الله، بمثابة أمة بكاملها، في جميع مواطن العربية، من شواطئ الهادئ حتى ضفاف الخليج.

وفي يقيني، أن واجب كل قطر من هذه الأقطار، أن يوفيه حقه عليه وعلى لغتنا المشتركة، وتراثنا الحضاري الواحد.

وما إقامة الحفلات إلا أضعف ما يرجو المؤمنون أن تقوم به الشعوب الحية، في سبيل تخليد الأفاضل من أبنائها الغر الميامين، وكان عادل زعيتر، واحدا من هؤلاء، الذين تألّى الحياة إلا أن تضن بهم ضنّها بكل نفيس.

ويقيني أن أبناء هذا الجيل، سيحدثون أحفادهم ذات يوم بزهو واعتزاز عما حققه العلم من معجزات، وكشفه الفكر البشري من معميات فيقولون: لقد عاصرنا مكتشفي الطاقة النووية، والأقمار الصناعية، وعادل زعيتر أيضا، ذلك الذي فجر لنا ينابيع المعرفة، ويسر لأمتنا طريق ورودها.»

بيروت، رشاد دارغوث

«لقد خسرت الثقافة العربية عالما عاملا جليلا، لا يمكن أن يعوض»

(القاهرة، صلاح المنجد)

«باغتتنا نعي فقيد العروبة والفكر العربي، بينما كنا ندخره لغد العروبة، بعدما أسدى بالأمس ما أسداه من نور عينيه، ووميض روحه، وكيان جسمه ليقدم للعرب أغلى ما عند الفكر الغربي من ثمرات، فأحيا سنة العباسيين في أزهى عصورهم، وجاء المصاب به مصاب العلم واللغة والأدب.»

(يوسف مشاققة)

«أبو عمر جدد في جيلنا عصر بركليس المأمون، ورغد أدب العرب بآداب الغرب، ووصله بتيار الأفكار الحديثة.»

(بغداد، نعمان العائلي)

«مثل عادل زعيتر في الأمم، لا يقوم بثمن»

(عمان، عبد الحليم عباس)

وهو حين يصمم أن يترجم كتابا فلا ينتقيه انتقاء عشوائيا، أو انه سيمتّع القراء ويسليهم، بل كان يريد لقارئه أن يتعب عقله، ويضع عصارة وجدانه في القراءة الجادة المستأنية الهادفة. ولهذا فقد حرص على الأسلوب العربي الراقي المتميز، الذي كان يضطره أن يشتق أو ينحت الكلمات العربية، التي تعطي المعنى الدقيق للكلمة الفرنسية، حين يعجز أن يجد هذا المعنى في المتوفر من قواميس اللغة ومصادرها، ولقد كان ما قدمه من خدمة للغة العربية، من خلال هذا العمل الخلاق، الفضل في انتخابه في مجمع اللغة العربية في دمشق وبغداد.

(نابلس، شوكة زيد الكيلاني)

هذا رصيدك في الحساب مع القدر

قصيدة فائق العنبتاوي

قالوا: انتهى قلت: اكتموا عني الخبر
أفلا يودع صحبه قبل السفر؟
قبل الفراق فصحت مهلا يا قدر
رفقا بقلي قدّ منه فانشطر
قبلته وخشعت والدمع انهمر
لم أدر أين؟ وكيف طار وكيف فر؟
هو في الخلود وهذه الدنيا مر!
فالخطب خطب عروبة بأبي عمر

في الحي صوت خلته من أضلعي
ما مثل هذا الرزء يمكن حمله
قالوا: انتهى أرف الرحيل فودعوا
لم جرت لم ترع الأجنة والهوى
ودنوت مرثعاً أودع صاحبي
وسألت قلب أين طيرك؟ قال لي
وإذا بصوت في النفوس مجلجل
يا قلب صبرا لست وحدك مثنا

لم لم تصنه بأضلعي وجوانحي
يا عرب صبرا من فقدتم رائد
عرف العروبة أمة بناءة
بهر الوجود سموها بحضارة
قتلكت من عادل قلبا سما
النيل مع بردى ودجلة قد أتوا
فاهنا بفخر سوف يعقبه الصبا
وانعم بخلدك يا أخي واهنا به

إني أدبنيك كيف كنت بلا حذر
صدق العروبة دون صد أو ضجر
قد أمرت في الخلد وهو بها انصهر
عرف الفقيد جلالها يوم ازدهر
مجد العروبة في جوانبه استقر
أردنا ليخلدوك أبا عمر
ح بوحدة أخذت يؤلف ما اندثر
هذا رصيدك في الحساب مع القدر

٥ كتابا وخمسة أسطر

بقلم كامل الشناوي

في خمسة أسطر وفي صفحة الوفيات على وجه التحديد نشرت جريدة واحدة هي «الأهرام» نعي أستاذ جليل كبير.

عالم أديب ظل أربعين عاما يغذي المكتبة بأهميات الكتب العالمية، وقد بلغ عدد هذه الكتب خمسين كتابا، صدر بعضها في طبعات فخمة أنيقة، وبعضها الآخر في طريقه إلى الصدور. هذا العالم الأديب هو أستاذ عادل زعيتر. وقد نقل إلى العربية في مدى أربعين عاما، آثار الكتاب العالميين؛ إميل لودفيغ وجوستاف لوبون وفولتير، وجان جاك روسو، ومونتسكيو ودرمنجهم. وكان يقوم وحده بإخراج ما يترجمه من كتب، وكان في كثير من الأحيان يطبع هذه الكتب على نفقته الخاصة، وليست هي بالكتب التي تجذب القراء إليها، فهي ليست من كتب الإثارة والتشويق، وإنما هي كتب تمتاز في شكلها وجوهرها بالرصانة.

وكان عادل زعيتر حريصا على نقل الكتب والكتاب والجو إلى لغتنا، بدقة فهم، وقد جشمه ذلك انتهاج أسلوب صعب معقد. ولكن هذا الأسلوب رغم صعوبته وتعقيده ينطوي على أمانة لا يستطيعها كثير من الناقلين والمقتبسين.

ومنذ سنوات قليلة عهدت إليه اللجنة الدولية لترجمة الروائع، بترجمة «روح الشرائع» لمونتسكيو و«العقد الاجتماعي» لجان جاك روسو. وكتاب العقد الاجتماعي أو مبادئ الحقوق السياسية، يقع في 212 صفحة، ويعد ما سجله روسو في هذا الكتاب أحد الأسس الضخمة التي نهضت عليها الثورة الفرنسية وقد وصفه المؤرخ الأسكتلندي توماس كارليل فقال: «لقد وجدت الثورة الفرنسية انجيلها في كتابات روسو.»

أما كتاب روح الشرائع لمونتسكيو، فهو يقع في أكثر من ألف صفحة، ويعد هذا الكتاب أعظم كتاب فرنسي في القرن الثامن عشر وقد جمع بين الفلسفة والتشريع، وحكمة التاريخ، والنقد الدستوري.

وقد قارن الأستاذ عادل زعيتر بين فولتير ومونتسكيو، قال: يظهر في النصف الأول من القرن الثامن عشر لمونتسكيو وفولتير، وكلا الاثنين من رجال الطبقات العليا وكلاهما كان راضيا بالمجتمع الذي يعيش فيه. فلا يرغب في قلبه، وإنما يطلب الإصلاح، وكان الدين أظهر ما عني به فولتير وإن بحث في السياسة،

وكانت السياسة أظهر ما عني به مونتسكيو وإن بحث في الدين وكلاهما ناهض عدم التسامح في جميع وجوهه، كما ناهضا الاضطهاد والتفتيش والحروب الدينية.

بهذه الطريقة الهادئة الأمينة الفاهمة قام عادل زعيتر بتحليل جميع الآراء والشخصيات التي نقلها إلى العربية.

إن هذا الرجل أحد أساتذتي الذين اخترتهم لجامعتي الخاصة، وقد لقنني أصعب الدروس في السياسة والأدب والاجتماع وأنا مدين له بالكثير من ثقافتي القليلة !

لم أره، ولم ألتق به، وحين قرأت نعيه اليوم طفر الدمع من عيني كما لو كنت أقرأ نعي صديق.

ملحق

نكبة فلسطين

(مذكرة وطنية)

بقلم: عادل زعيتر

«هذه مذكرة أعدها الفقيد الأستاذ عادل زعيتر على أثر وقوع نكبة فلسطين، وفيها إيجاز لأسباب النكبة، وواجب الأمة العربية إزاءها، وقد دعا إلى بيته بنابلس نخبة من وجوه اللواء، فأقروها ورفعوها إلى كل من المراجع الآتية: رؤساء الوزارات المصرية والعراقية والسورية واللبنانية والأردنية، ووزير الخارجية للمملكة العربية السعودية، وأمين سر الجامعة العربية، ورئيس وفد اليمن لدى الجامعة العربية، ورؤساء المجالس النيابية في مصر والعراق وسورية ولبنان والأردن، ورئيس مجلس الشيوخ المصري، ورئيس مجلس الأعيان العراقي. وقد وقع عليها عدا الفقيد السادة: سليمان طوقان، فريد عنبتاوي، حكمة المصري، هاشم الجيوسي، عبد الحميد السايح، الدكتور مصطفى بشناق، فائق عنبتاوي، حلمي العبوشي، فضل الطاهر».

اشتدت المصائب على العرب، وأحاطت الخطوب بهم، وأصيبت قضيتهم الفلسطينية الكبرى، بما أصيبت به، ففرى أن نعرض الوضع بما يأتي:

1. فرض الانتداب البريطاني على فلسطين، فقامت سياسته على تهويدها ودحر أصحابها العرب بشتى الأساليب من مراكزهم، حتى تغدو مهیضة، فتصير غنيمه باردة لليهود، وفلسطين العربية لم تكن في أي زمن، غير جزء من بلاد العرب، وعرب فلسطين لم يكونوا في أي دور، غير فرع من الأرومة العربية.

2. لم تأل حكومة الانتداب جهدا في تنفيذ تلك السياسة الظالمة، فسارت في ثلاثين سنة على ما فيه إبادة عرب فلسطين، واستئصالهم بما يرضى عنه الصهاينة، ولم يقصر عرب فلسطين في إحباط تلك السياسة، فعملوا في ثلاثين سنة، على دفع عادية الانقراض عنهم، وتغضي حكومة الانتداب عن تسليح اليهود، وعن إقامتهم للمعازل و تنظيمهم للكتائب، فيغدون مدججين بالسلاح، كاملي العدة، وتمعن حكومة الانتداب في تجريد عرب فلسطين من أي سلاح، فتفرض على من يحمل منهم قذيفة أو مسدسا أفضع العقوبات، كالسجن المؤبد أو الإعدام، وعرب فلسطين صابرون مرابطون، ومن خلفهم العرب الآخرون عاطفون محتجون.

3. ويقلب الصهاينة لحكومة الانتداب ظهر المجن، بعد أن جعلتهم يمشون على أرجلهم، فيمعنون في مناهضتها، حتى قررت إنهاء الانتداب، والجلء عن فلسطين ليتدبر الصهاينة الأمور فيها، وترك حكومة الانتداب العرب وحدهم، بعد كيد وهشم كيان، فلم يهنوا، وعن الجهاد لم ينتنوا، وقد صمدوا للقوى الغاشمة حتى 15 مايس، وحتى بعد 15 مايس (أيار)، ولم ينفك عرب فلسطين يجاهدون بما لديهم من وسائل دفاع قليلة، وبما عندهم من مواد غير كثيرة، وعرب فلسطين ما فتئوا يطالبون الدول العربية بتسليحهم وتدريبهم؛ حتى يكونوا في الصفوف الأمامية من ميادين القتال، ولكن هل من مجيب؟؟

4. وكأن حكومة الانتداب لم ترغب في مغادرة فلسطين، قبل أن يتم تمثيل دورها، وتحمل أوزارها

كاملة، فساعدت الصهاينة على إخراج العرب من أمهات مدنهم، كحيفا ويافا وصفد وطبرية، ومن سياسة الصهاينة استئصال شأفة العرب، وهدم بيوتهم، وتخريب أملاكهم وسلب أموالهم أينما وجدوا، فكانت مشكلة اللاجئين.

5. ويتسابق رجال الدول العربية في صوغ التصاريح وعقد الاجتماعات، ويعدون عرب فلسطين، ويتوعدون الصهاينة، فيخيل إلى الإنسان أن الصهيونية مقضي عليها بالزوال بين عشية وضحاها. وتدخل كتائب من الجيوش العربية، ومن غير إنكار لتحسينها الوضع، وتأخيرها الانهيار نسأل ماذا حدث؟؟

أ. لقد احتلت تلك الكتائب ما بقي في أيدي عرب فلسطين من مدن وقرى وأماكن، ولم تتقدم في مركز إلا لتأخر في مركز آخر، ويبدو الفتور، وتفرض الهدنة الأولى لشهر واحد، ولا تنفذ تلك الهدنة إلا بعد تقريرها بأيام كثيرة، ولا تغتنم فرصة ذلك ولا يهزم الصهاينة.

ب. ويتقوى اليهود في ذلك الشهر ويستعدون، وتظل كتائب العرب كما كانت، ويستأنف القتال وتظهر آثار قوة الصهاينة، بتوسيعهم رقعة ما بأيديهم وتقلص ظل العرب، وتزيد الفجائع وتستحفل الكوارث، وتفرض الهدنة للمرة الثانية، ويرضى العرب بوقف القتال، مع علمهم أن مجلس الأمن لا يفرض الهدن إلا ليزيد اليهود استعدادا، فيقضوا على ما بقي لدى العرب اقتسارا وتشريدا، ويبدو العرب جميعا كالباحث عن حشفة بظلفه.

ج. يبحث عن أسباب ذلك فيرى أنه نشأ عن تنافس الدول العربية، وعن عدم الانسجام في سياستها، وعن عدم الوحدة في قيادتها، وعن التزام جيوشها خطط الدفاع دون الهجوم، وعن عدم سوق كتائبها موحدة بسرعة من جبهة إلى أخرى، وعن عدم المبادرة إلى نجدة الجبهة التي يهجم العدو عليها. وما إلى ذلك من العوامل المؤدية إلى التخاذل فألى التقهقر، خلافا للعدو.

د. وعلى ما في ذلك من بداهة لم يعمل في سبيل الانسجام وتوحيد القيادة، بل عمل ما يوجب الارتباك بين دول العرب، ويزيد الطين بلة، فكان نقض اليهود للهدنة الثانية، وكانت مصائب النقب ورزايا الجليل، وبذلك أصبحنا كالذي يكسب مرة ليخسر مئة مرة.

هـ. ويظهر أن العرب لم يشعروا بالخطر الداهم، فיעبثوا جميع قواهم المادية والأدبية في جميع ميادين العمل والجهاد، وقد ثبت أن تعبثهم العسكرية كانت ناقصة، فلم تثبت كتائبهم أمام عصابات اليهود.

ويظهر أن العوامل الإقليمية تحتل المكان الأول لدى طائفة الدول العربية، فلا ترى هذه الدول أن تتخذ أي تدبير حازم تجاه ما للدول الأجنبية التي تؤاثر اليهود، من المصالح الاقتصادية في بلاد العرب، وإن كانت تلوح في الحين بعد الحين بتهديدات لا تجوز حتى على الولدان. والعرب قد بلغوا من الخور في الانتصار لقضيتهم الكبرى، ما صاروا يطالبون مجلس الأمن بالانتصاف لهم من اليهود ودرء اعتداء هؤلاء عنهم !!

6. وهنا نعود إلى مسألة اللاجئين العرب فنقول - إن هؤلاء اللاجئين قد أخرجهم العدو من ديارهم قهرا أو خرجوا منها خشية الإبادة، وهم لم يجلوا عن ديارهم إلا لما حدث من تقصير في الدفاع عنها أو لما كان من تخلية كتائب دول العرب لها لأسباب حربية وغير حربية.

على أن أكثرية اللاجئين قد جلت عن أماكنها إلى ما بقي بأيدي العرب من فلسطين، فتضاعف بذلك عدد سكان هذه البقعة من البلاد، وغدت زاخرة بالأهلين، واليوم نرى اليهود يغزون جبهة بعد جبهة من تلك البقية، بسبب عدم وحدة القيادة، فيحملون على الجلاء أهل ما يستولون عليه من البقاع، لاجئين كان الأهل أو غير لاجئين، فإذا أمنت الدول العربية في التخاذل، وحكمتنا في أمر المستقبل بما حدث ويحدث، فافترضنا اكتساح العدو لبقية فلسطين، اضطر من في هذه البقية من مئات الألوف من اللاجئين وغير اللاجئين إلى قصد البلاد العربية المجاورة، التي ضاقت بالمشردين ذرعا، والتي أعلن الكثير منها رفضه لقبول لاجئين آخرين، والبلاد العربية هذه، وهي تعج باليهود، لم تفكر في تعويض مشردي العرب، عن بعض ما سلب منهم بمال أولئك اليهود، الذين يسرحون ويمرحون فيها بلا رقيب.

ومعنى ذلك السماح للعدو بذبح العرب أفواجا أفواجا، ومعنى ذلك زوال راية العرب عن فلسطين إلى الأبد، نتيجة لتقاطع دول العرب وتخاذلهم، وتنافسهم فيما لا يعود على الجميع بغير العار والشنار.

ومعنى ذلك تخلي الدول العربية عن قضية العرب المقدسة، وتطويحهم بعرب فلسطين على مذبح المآرب والشهوات.

وما كان الأمر ليقصر على إيواء المشردين عند السماح به، فزى المشردين، وقد أعوزهم القوت وعضهم الجوع، يلجأون في الغالب إلى التسول والاستجداء حفظا لحياتهم، وهل في ذلك غير انحطاط أخلاقهم، وذهاب كرامتهم، وهدر شرفهم، وزوال إنسانيتهم؟؟

7. وما كانت النكبة لتقف عند هذا الحد، وللنكبة ما بعدها، فقد افتضح كل شيء، وقد ظهر عجز العرب وتخاذلهم للبعيد قبل القريب، وليس يستبعد أن تغدو أقطار العرب مسرحا للمطامع الأجنبية، وعرضة لنزع ما لها من استقلال.

8. فالرأي إذن، هو:

أ. أن يسود الانسجام بين الدول العربية بسرعة.

ب. أن توحد جيوشها بسرعة، فالخطر الصهيوني لا يدفع إلا بكيان عربي موحد.

ج. أن تعبأ جميع قواتها بسرعة، وأن يسلح عرب فلسطين وأن يدربوا على عجل ليقوموا بما يجب من القتال.

د. ألا يعطى اليهود فرصة الاستعداد كما حدث بالأمس، وأن يؤتى بعمل عسكري جدي خاطف، فلا يفل الحديد إلا الحديد، وإرادة الكفاح لا ترد إلا بأقوى منها.

هـ. أن تنظم شؤون اللاجئين، وأن تحتل مكان الصدارة من العناية.

فإذا تعذر ذلك كله، والرزية كل الرزية في ذلك التعذر، كان من الاستهانة بمستقبل العرب ألا توزن المسألة باتزان، وأن يصر على سياسة مؤدية إلى ضياع ما بقي من عروبة فلسطين موجبة لاستخفاف الأمم بالعرب.

فلتكن الشجاعة رائد ساسة العرب، وليوجهوا الأحداث برباطة جأش، وليعالجوا القضية العربية الفلسطينية بالحكمة، وبشرط السلامة، أي بترك باب مكافحة العدو مفتوحا، إلى أن يقضي الله أمرا كان

إلا أن النكبة الحاضرة هي محك وتجربة وامتحان، فإذا انحلال وزوال، وإما بقاء وعزة وكمال.
إلا أن الواقع يدل على أن الحق ليس إلا قوة مستمرة، وأن للعرب أكبر العبر فيما حدث.
وختاما، نسأل الله تعالى أن يهدينا جميعا إلى سواء السبيل.
وتفضلوا بقبول فائق الاحترام

نابلس في 5 - 11 - 1948

الوحدة العربية

رأى عادل زعيتر

قال الفقيه في مقال له في جريدة فلسطين (يافا) لمناسبة توقيع ميثاق الجامعة العربية:
«...إن ميثاق جامعة الدول العربية هو مقدمة لميثاق الوحدة في المستقبل، وإن شئت فقل الخطوة المباركة الأولى في سبيل جهاد العرب لتحقيق وحدتهم، وبالشعوب لا بالحكومات تتم الوحدات، والسيل إذا طغى لم يقف أمامه حائل، لا يجزعن العربي من أن الأجنبي (إشارة إلى تصريح وزير خارجية بريطانيا في مجلس العموم في 24 شباط 1943 بأن بريطانيا تنظر بعين العطف إلى قيام وحدة عربية اقتصادية أو ثقافية أو سياسية) هو الذي حفزه إلى تلك الخطوة المباركة، ما دام العربي مستعدا لتحقيق هدفه الأسمى، ولا يخافن العربي من رجوع الأجنبي عما أحبه له، فالوحدة العربية إذا تمت وأراد الأجنبي أن يصرف العربي عنها، حدث مثلما وقع بين بافنوس و تاييس، كما قصه أناتول فرانس. (كان بافنوس تقيا وكانت تاييس بغيا، فاهتدت تاييس بمواعظ بافنوس فأصبحت قديسة، ثم أراد بافنوس أن يصرف تاييس عن تقواها لنفسه فلم يقدر على ذلك).

ومن حديث للفقيه في مجلة العالم العربي (القاهرة):
« إن الدور الذي تمثله الأمة على مسرح التاريخ، إما يكون بنسبة قوة المثل العليا التي تخالطها، فإذا كان مثل الأمة الأعلى ضعيفا أو مفقودا، فإن هذه الأمة تفسح لغيرها مجالا للسيادة عليها، ولا سيما الأمم صاحبة المثل الأعلى.
وإني أرى أن يكون المثل الأعلى للعرب في مختلف أقطارهم، هو الإيمان بالوحدة العربية، ومثل هذا الإيمان لكي يكمل، على العرب أن يستعدوا لأداء ما يتطلبه من بذل وتضحية، تناسب جلاله وأهميته، فإذا اعتنقت الأمة العربية هذا المثل الأعلى ولم تتخل عنه، فلن يذهب جهدها سدى، بل يظل مثلها الأعلى المنارة التي تهديهم. »

وفي مقال آخر له في «فلسطين» عن الإسلام:

« كان الإسلام الذي دعا إليه الرسول - صلى الله عليه وسلم - مثل العرب الأعلى، وكان خلاصة رغائبهم واحتياجاتهم وأمانيتهم من حيث لا يشعرون، وكان لهم باعتناقه تجانس فكري فيه سر وحدتهم وقوتهم، وكان على صاحب الدعوة أن يعمل على إدخاله إلى قلوبهم، وهم الأعزاء الذين إذا ما دانوا به، خضعت لهم الدنيا. »

أقباس من مترجمات عادل زعيتر

«إن القوة لم تكن عاملا في انتشار القرآن ما ترك العرب المغلوبين أحرارا في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النصرانية الإسلام، واتخذوا العربية لغة لهم، فذلك لما رأوا من عدل العرب الغالبين مما

لم يروا مثله من سادتهم السابقين، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل. ولم ينتشر الإسلام إذن بالسيف، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخرا، كالترك ولمغول.

أدرك الخلفاء السابقون الذين كان عندهم من العبقورية السياسية ما ندر وجوده في دعاة الديانات الجديدة، إن النظم والأديان ليست مما يفرض قسرا، فعاملوا أهل كل قطر استولوا عليه بلطف عظيم، تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم، غير فاضين عليهم سوى جزية زهيدة، في الغالب، إذا ما قيست بما كانوا يدفعون سابقا، في مقابل حفظ الأمن بينهم، فالحق أن الأمم لم تعرف متسامحين مثل العرب ولا دينا سمحا مثل دينهم.

(حضارة العرب لغوستاف لوبون)

«إنه كان للحضارة الإسلامية تأثير عظيم في العالم، وإن هذا التأثير خاص بالعرب وحدهم، فلا تشاركهم فيه الشعوب الكثيرة التي اعتنقت دينهم، والعرب هم الذين هذبوا بتأثيرهم الخلقي البرابرة، الذين قضوا على دولة الرومان، والعرب هم الذين فتحوا لأوروبا ما كانت تجهله من عالم المعارف العلمية والأدبية والفلسفية، فكانوا ممدنين لنا و أمة لنا ستة قرون ... وظلت ترجمات كتب العرب، ولا سيما الكتب العلمية، مصدرا وحيدا، تقريبا، للتدريس في جامعات أوربية خمسة قرون أو ستة قرون ... وإذا كانت هناك أمة نقرّ بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم، فالعرب هم تلك الأمة. فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم، في إنقاذ الكنوز الثمينة اعترافا أبديا، قال مسيو ليبري: لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ، لتأخرت نهضة أوروبا الحديثة في الآداب عدة قرون»

(حضارة العرب لغوستاف لوبون)

« وليؤذن لنا، في إيراد صفحة من لامارتين عن النبي بدلا من مقدمة لهذه النظرة السريعة في مذهب الإسلام، قال هذا الشاعر الكبير:

« لم يظهر، قط، رجل عقد نيته، طوعا أو كرها، حول غاية أعظم سموا، ما كانت هذه الغاية فوق قدرة البشر، وهذه الغايات هي هدم الخرافات القائمة بين الخلق والخالق، ورد الرب إلى الإنسان وإلى الرب، وإصلاح المبدأ العقلي السليم حول الألوهية في خلق خواء آلهة الوثنية الغلاظ المشوهين .. ولم يظهر، قط، رجل مثله قام في أقل وقت، بثورة بالغة الاتساع والدوام في العالم، ما دام الإسلام بعد الدعوة إليه قد بشر به وسلح فنش في أقسام جزيرة العرب الثلاثة، وفتح لوحانية الله بلاد فارس وخراسان وما وراء النهر والهند والشام ومصر وأثيوبية وجميع القارة المعروفة بإفريقية الشمالية وكثيرا من جزر البحر المتوسط، وإسبانية، وقسما من بلاد المغول.

« وإذا كان عظم المقصد وصغر الوسائل واتساع النتيجة مقاييس عبقرية الرجل الثلاثة، فمن ذا الذي يجرؤ، من الناحية البشرية، على تشبيه رجل عظيم من رجال التاريخ الحديث بمحمد؟ لم يصنع أبعدهم صيتا غير هز السلاح وإزاحة الشرائع وزعزعة الدول، وهم لم يقيموا، عند إقامتهم شيئا، غير سلطات مادية تنهار قبلهم غالبا، أجل، إن ذاك قد هز سلاحا و زعزع دولا وشعوبا وبيوتا مالكة و ملايين من الآدميين في ثلث الكرة المعمورة، غير انه قلقل أفكارا ومعتقدات ونفوسا زيادة على ذلك، وهو قد أقام على كتاب أصبح كل حرف منه شريعة جنسية روحية لأمم من جميع اللغات وجميع العروق، وهو قد

طبع هذه الشريعة الجنسية الإسلامية بسمة لا تمحي مقتا للآلهة الباطلين، وحبا لله الواحد غير المادي ... فيلسوف، خطيب، رسول، مشرع، محارب، فاتح لأفكار، مصلح لعقائد عقلية، محي لعبادة بلا صور، مؤسس لعشرين دولة دنيوية، ومنشئ لدولة روحانية، ذلك هو محمد، فمن هو الرجل الذي ظهر أعظم منه عند النظر إلى جميع المقاييس التي تقاس بها عظمة الإنسان؟ »

(مجالس الإسلام لحيدر بامات)

« وشأن الأنبياء في العالم كشأن قوى الطبيعة الهائلة النافعة، كشأن الشمس والمطر، كشأن عواصف الشتاء التي تهز الأرض وتثيرها لتتزين ببساط أخضر في بضعة أيام، ويقدر الأنبياء بما أسفرت عنه رسالاتهم من النتائج، وأحسن شهادة لهم ما يورثونه من راحة العقول وسكينة القلوب وشد العزائم والصبر على الشدائد وشفاء الأخلاق المريضة والدعية والصلوات التي تصعد في السماء.

يأتي الأنبياء وهم الذين لا حول لهم ولا معين، وهم الذين يقاتلهم الناس غرورا بسر الحرية العليا، فيقولون خير للإنسان أن يعصي الناس من أن يعصي الله الذي يتساوى الجميع أمامه وحده، والذي يجب على الجميع أن يسجدوا له دون سواه، ويقولون أن المقصد والمعنى أفضل من اللفظ والمبنى.

قام محمد الأمي، والنقي الفطري الكامل الطليق من فساد العقل والقلب، يدعو العلماء ليفقهوا ما يقولون، ويقوم ما يتيه فيه الحكماء من الطرق المعوجة، فالناس حين يستمعون إلى كلامه الموحى إليه به ولأمثاله الملائمة لروح الزمن (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) يعود إليهم سابق اتصالهم بالسر المحيط بهم خاشعين لله، عالمين كيف يسلكون أحد النجدين، مهتدين إلى مبدأ حي ناطق لا يجدون مثله في نصائح الفلاسفة وآراء أقطاب السياسة، وكان ظهور محمد في دور من أشد أدوار التاريخ ظلما، في دور كانت الحضارات التي قامت في البلدان الممتدة من بلاد المغول الميروفنجية إلى بلاد الهند مضطربة متداعية. »

(حياة محمد لدرمنغر)

« ومن المؤسف أن جهل أفضل علمائنا في اللغة لهجات الشرق، فظلت اللغة العربية التي حافظت على صفاتها بفضل القرآن، وهي ادعى اللغات إلى العجب، حرفا ناقصا عندهم، حتى أنه لم يدر في خلدكم أن الكلمات التي يفترضونها إيطالية أو إسبانية أو برتغالية فلا تتم على أصل لاتيني، قد اقتبست من العربية، وهم الذين لا يستطيعون، مع ذلك، أن ينسوا أن شبه جزيرة ايبيرية ظلت كلها تقريبا خاضعة لسلطان الإسلام من القرن الثامن إلى القرن الخامس عشر، وأن جزر البحر المتوسط الكبرى، وصقلية على الخصوص، والشواطئ الإفريقية كانت قبضة العرب في تلك المدة، وأن البابا يوحنا الثامن كان يدفع إليهم جزية سنوية ليقبى إيطالية الجنوبية من غاراتهم، وأن المدن: بلرم والقاهرة وفاس، الخ. كانت زاهرة في الآداب ازدهار بغداد وقرطبة، وأن الإدريسي كتب، في سنة 1150م، رسالته العربية في الجغرافية، إلى الملك النصراني روجر الثاني، وأن الإمبراطور فريديريك الثاني استقبل في بلاطه حفدة ابن رشد بعد قرن، وأنه يجب، في الحقيقة، ألا يبالى بمؤلفات السادة: ناردوتشي ودوزي وسوزا ومستشرقي فرنسة حتى تجد الافتراضات العريضة في الوهم لها مجالا. »

(تاريخ العرب لسيديو)

«حياة الدول كحياة الأفراد، فكما انه يحق للناس أن يقتلوا في حال الدفاع الطبيعي يحق للدول أن تحارب حفظا لنفسها. ويحق لي أن أقتل عن دفاع طبيعي، وذلك لأن حياتي لي كما أن حياة الذي يهجم علي هي له، والدولة، كذلك، تحارب لأن بقاءها حق ككل بقاء آخر.

ولا يستلزم حق الدفاع الطبيعي بين الأهلين ضرورة الهجوم مطلقا، وليس للأهلين غير اللجوء إلى المحاكم بدلا من الهجوم، وهم لا يستطيعون ممارسة حق هذا الدفاع، إذن، في غير الأحوال العابرة التي يهلك فيها إذا ما انتظر عون القوانين، غير أن حق الدفاع الطبيعي بين المجتمعات يقتضي ضرورة الهجوم أحيانا، وذلك عندما ترى أمة أن السلم الطويلة تجعل أمة أخرى في حال تقضي معه عليها فيكون الهجوم في هذا الحين وسيلة وحيدة لمنع هذه الإبادة؛ ومن ثم يحق للمجتمعات الصغيرة في الغالب أن تحارب المجتمعات الكبيرة، وذلك لأنها تكون غالبا، في حال تخشى معه أن تباد. إذن يشتق حق الحرب من الضرورة والعدل الصارم، وإذا كان من يوجهون ضمير الأمراء أو آراءهم لا يقفون عند هذا الحد ضاع كل شيء.

(روح الشرائع لمونتسكيو)

« ولاحظوا الطبيعة واتبعوا الطريق التي ترسمها لكم، فهي تمرن الأولاد دائما، وهي تقوي مزاجهم بمحن من كل نوع، وهي تعلمهم ما الألم وما التعب باكرا، وتؤذي الأسنان التي تطلع إلى الحمى فيهم، ويؤدي المغص الحاد إلى تشنجات فيهم، ويختنقون بالسعال الطويل، وتؤذيهم الديدان، وتفسد الأخلاط دمهم، وتتخ فيه خمائر شتى فتوجب بثورا خطيرة، ويعد دور الطفولة دور المرض والخطر تقريبا ويهلك نصف الأولاد قبل بلوغهم الثامنة من سنهم، ومتى تمت التجارب اكتسب الولد قوى، ومتى استطاع الولد أن ينتفع بالحياة كان مبدؤها أكثر ضمانا»

(إميل لروسو)

« إن قدماء اليهود لم يجاوزوا أطوار الحضارة السفلى التي لا تكاد تميز من طور الوحشية، وعندما خرج هؤلاء البدويون الذين لا أثر للثقافة فيهم من باديتهم ليستقروا بفلسطين وجدوا أنفسهم أمام أمم قوية متمدنة منذ زمن طويل، فكان أمرهم كأمر جميع العروق الدنيا التي تكون في أحوال مماثلة، فلم يقتبسوا من تلك الأمم العليا سوى أخس ما في حضارتهم، أي لم يقتبسوا غير عيوبها الضارية ودعارتها وخرافاتهما. »

« إن تاريخ اليهود الكتيب لم يكن غير قصة لضروب المنكرات، فمن حديث الأسارى الذين كانوا يؤشرون بالمنشار أحياء أو الذين كانوا يشوون في الأفران، فإلى حديث الملكات اللائي كن يطرحن لتأكلهن الكلاب، فإلى حديث سكان المدن الذين كانوا يذبحون من غير تفريق بين الرجال والنساء والولدان. »

« إن تأثير اليهود في تاريخ الحضارة صفر، وإن اليهود لم يستحقوا بأي وجه أن يعدوا من الأمم المتمدنة، إن فلسطين أو أرض الميعاد لم تكن غير بيئة مختلفة لليهود فالبادية كانت وطنهم الحقيقي. »

(اليهود في تاريخ الحضارات لغوستاف لوبون)

« وإذا ما استطاع كل واحد أن يبيع نفسه فإنه لا يقدر على بيع أولاده، فهؤلاء الأولاد يولدون أناسا وأحرارا، وتكون حريتهم خاصة بهم، فلا يستطيع أحد غيرهم أن يتصرف فيها، ويمكن أباهم قبل أن يبلغوا سن الرشد أن يضع شروطا لحفظهم وسعادتهم، لا أن يهبهم هبة مطلقة لا رجعة فيها، وذلك لأن هذه الهبة مخالفة لمقاصد الطبيعة وتجاوز حقوق الأبوة، ولهذا يقتضي تحول الحكومة إلى حكومة شرعية، على أن يكون الشعب في كل جيل حكما في قبولها أو رفضها، ولكن هذه الحكومة تعود غير مرادية إذ ذاك. » وتنزل الإنسان عن حريته يعني تنزلا عن صفة الإنسان فيه، وتنزلا عن الحقوق الإنسانية، وعن واجباتها أيضا، ولا تعويض يمكن لمن ينتزل عن كل شيء، وتنزل كهذا يناقض طبيعة الإنسان، ونزع كل حرية من إرادة الإنسان هو نزع كل أدب من أعماله، ثم إن من العهود الباطلة المتناقضة اشتراط سلطان مطلق من ناحية وطاعة لا حد لها من ناحية أخرى، أليس من الواضح أننا غير ملزمين بشيء نحو شخص يحق لنا أن نطالبه بكل شيء؟ أليس هذا الشرط وحده يتضمن بطلان العقد عند عدم وجود بدل أو معادل؟ وأي حق يكون لعبدي تجاهي ما دام كل ما عنده خاصا بي، وما دام حقي هذا تجاه نفسي كلمة لا معنى لها مطلقا عن كون حق عبدي هو لي؟

(العقد الاجتماعي لروسو)

«... وذلك لأن الحرية هي كتلك الأغذية الجامدة والعصارية أو تلك الخمور السخية الصالحة لتغذية وتقوية البنيات القوية المتعددة إياها، ولكن مع إرهاقها وتقويضها وإسكارها الضعفاء والنحاف الذين لم يخلقوا لها قط، وإذا ما تعودت الشعوب سادة ذات مرة عادت لا تستغني عنهم، وإذا ما حاولت الشعوب إلقاء النير ابتعدت عن الحرية بالمقدار الذي تحولها به إلى تحليل جامع معاكس لها، وتسلمها ثوراتها تقريبا إلى غواة لا يفعلون غير إثقال قيودها».

(أصل التفاوت بين الناس لروسو)

« ... فيبدو انه لم يكن لدى الإنسان من الشرور غير ما أعطى نفسه إياه، وليس من غير مشقة أن انتهينا إلى جعل أنفسنا بالغي الشقاء، فإذا ما نظر من ناحية إلى أعمال الناس الواسعة وما وقع من تبحر في العلوم واختراع في الفنون، وما استُخدم من قوى، وما ملئ من هوى، وما هُدم من جبال، وما حطم من صخور، وما جعل من أنهار صالحا للملاحة، وما أحيي من أرضين، وما حفر من بحيرات، وما جفف من مستنقعات، وما أقيم على الأرض من مبان ضخمة، وما ستر بالسفن والملاحين من بحار، وإذا ما بحث من ناحية أخرى، مع قليل تأمل، في المنافع الحقيقية التي نشأت عن جميع ذلك في سبيل سعادة النوع البشري، لم يسع المرء إلا أن يصدم بما يسود هذه الأمور من تفاوت عجيب، فيرثي لعمى الإنسان الذي يسوقه بشده وراء كل شقاء يمكن أن يصيبه، وراء كل شقاء كانت الطبيعة المحسنة قد عنيت بإقصائه عنه، وذلك تغذية لزهوه السخيف وإعجابه الباطل بنفسه. »

(أصل التفاوت بين الناس لروسو)

« المرأة هي التي تصنع العالم، وهي المسيطرة عليه ولا شيء يصنع فيه إلا من أجلها وفي سبيلها، والواقع أنها أكبر مربية للرجل، فهي تعلمه الفضائل الفاتنة، وهي تعلمه الأدب والاتزان، وذلك الزهو الذي يخشى الظهور به ثقيلًا. »

« ليست الحقيقة غرض الفن، وإنما تطلب الحقيقة من العلوم لأنها هدفها، ولا ينبغي طلب الحقيقة من الآداب التي لا يمكن أن يكون لها غير الجميل موضوعًا! »

« لا داعي في كبر الأرض وصغرها لاكتراث الإنسان، هي كبيرة بما فيه الكفاية على أن يؤلم فيها، على أن يحب فيها، فالألم والحب مصدران توأمان لجمالها الذي لا ينفد. الألم! يا له من منكور رباني! نحن مدينون له بكل ما فينا من خير، بكل ما تكافئ به الحياة، نحن مدينون له بالرحمة، نحن مدينون له بالشجاعة، نحن مدينون له بجميع الفضائل. »

(حديقة أبيقور لأناطول فرانس)

« لا يعني هذا أنني أكره المديح، ولا سيما عند صدوره عن قضاة للفضيلة بالغي الصلاح مثلكم، وإنما الذي أخشى هو أن أحب المدح كثيرًا، أي أن المدح يفسد الرجال، أي أنه ينفخهم ويجعلهم مغرورين مختالين، ويقضي الواجب بأن يستحق الرجل الثناء وأن يتجنبه لما بين طيب الثناء وفاسده من شبه، ويرى أن الطاعة الذين هم شر الناس، هم الذين يحملون المنافقين على مدحهم أكثر من غيرهم، وما اللذة في نيل الرجل مدائح كما ينالون؟ إن أجمل أمدح به هو ما تنعمون به علي من ثناء في غيابي إذا ما كنت سعيدًا باستحقاقه، وإذا ما كنتم تعتقدون صلاحتي بالحقيقة فإنني أرجو أن تعتقدوا، أيضًا، أنني أريد أن أكون متواضعًا يخشى الزهو، ولذا تفضلوا علي بعدم إطرائي كما تطرون رجالا يحب أن يطرى. »

« امزجوا التهذيب باللعب، ولتبد الحكمة للولد في فترات وعلى وجه ضاحك، واعلموا أن الولد إذا ما تنور عالم الفضيلة باكتئاب وكرب ضاع كل شيء. »

(تلامك لفنلون)

« والحق أن العرب تلاميذ بزنتة في غير حال، تلاميذ بزنتة في صناعة السفن مثلاً، فجعلوا قناة السويس صالحة للملاحة مدة قرن، والحق أن العرب لم يتعلموا العلم اللازم من مواطئ جمال جزيرتهم، وما فطر عليه العرب من الروح التجارية يذكر بالفينقيين، وقد نما بسرعة فارتقى بعد بلوغهم البحر المتوسط كما يلوح، وقد قبضوا على زمام جميع التجارة مع الشرق الأقصى، ولم يلبثوا أن وصلوا إلى روسيا والبحر البلطي، ومع ذلك فإن أهم ما أتى به العرب إلى البحر المتوسط كان ذهنيًا، كان ثقافيًا تهذيبيًا، ومن العرب في إشبيلية وقرطبة كان قد تلقى الحكمة، حقًا، البابا سلفستر الذي عزي علمه المشهور إلى السحر. »

(البحر المتوسط للودفيغ)

« وتقلب الجماعات، ذلك، يجعل قيادتها أمرًا صعبًا للغاية، ولا سيما عند قبضها على قسط من السلطات العامة، ولو لم تكن مقتضيات الحياة اليومية نازمة خفية للحوادث ما عاشت الديمقراطيات قط لذلك السبب، غير أن الجماعات التي ترغب في الأمور متهورة لا ترغب في هذه الأمور لطويل زمن، فالجماعات تعجز عن الإرادة الدائمة عجزها عن التفكير. »

وليس الجماعة مندفعة منقلبة فقط، بل هي كالهجمي أيضًا، ولا تسلم الجماعة بوجود حاجز بين رغبتها وبين تحقيق هذه الرغبة، وذلك لما تمن الجماعة عليها من الشعور بقدرة لا تقاوم، والحق أن مبدأ الاستحالة يزول لدى الفرد في الجماعة، وإذا كان الآن، وهو منفرد يشعر أنه لا يستطيع وحده أن يحرق قصرًا وينهب مخزنًا فإن مثل هذا العمل لا يدور في خلد، وإذا كان الإنسان وهو من الجماعة يشعر بالقدرة التي يمنحها العدد فإنه ينقاد من فوره لأول تلقين بالقتل والسلب فيحطم العائق غير المنتظر بعنف، ولو كان النظام البشري يحتمل دوام الغضب لأمكننا أن نقول إن الغضب هو الحال الطبيعية للجماعة. »

(روح الجماعات لغوستاف لوبون)

« والعقيدة القوية تبلغ من المنعة ما لا تستطيع أن تكافحها معه كفاح المنتصر غير عقيدة مماثلة، وليس للإيمان عدو يخشاه، سوى الإيمان، والإيمان لا بد من انتصاره عندما تكون القوة المادية التي تصوب إليه مؤيدة لمشاعر ضعيفة ومعتقدات متداعية، بيد أن ذلك الإيمان إذا ما قابله إيمان قوي مثله اشتد الصراع وصار الفوز رهين أحوال ثانوية، أدبية في الغالب، كروح الإيمان والتفوق في التنظيم. »

(السنن النفسية لتطور الأمم لغوستاف لوبون)

« وعلى ما ألقاه كثير من الاكتشافات من نور يبقى تفسير الحوادث التاريخية العظيمة ناقصًا، ويظل معظم المسائل بلا جواب، فكيف وفق أعظم المتهوسين الخالقين للأوهام لإيجاد آلهة شتى سيطروا على التاريخ؟ وكيف يخرج الحقيقي من غير الحقيقي؟ وكيف تولد العزائم الشعبية وتتحول؟ وما السبب في أن شأن الأغاليط الجماعية في حياة الأمم أعلى من شأن العقل؟ »

وإذا كان التاريخ مملوءًا إبهامًا وتفسير وهمية فلأنه ليس، في الحقيقة، غير تعبير باطني عن بعض الحوادث الوجدية التي تتألف الحياة من مجموعها، فدراسة الحياة أمر ضروري لفهم التاريخ، ولذلك رأينا أن نتكلم في هذا الكتاب عن السنن التي تسيطر عليه. »

(فلسفة التاريخ لغوستاف لوبون)

« ويحتاج قيام المجتمع على أساس متين إلى حيازة مثل عالٍ مشترك، سواء أكان هذا المثل دينيًا أم عسكريًا أم شيئًا آخر، وهنالك، فقط، تولد الروح القومية، وتبقى الأمة، حتى تكونها، نقعا من البرابرة يستطيع أن يلتحم، لوقت، تحت إمرة رئيس، ولكن من غير تماسك دائم. ويتم الانتقال من البربرية إلى الحضارة باعتناق مثل عالٍ مشترك. »

وتعود الأمم إلى البربرية عند انحلال الروح القومية، فقد هلك الرومان حينما زالت من قلوبهم عبادة رومة والنظم التي عينت عظمتها. »

(الآراء والمعتقدات لغوستاف لوبون)

« مميزات الزمن الحاضر الحقيقية هي : أولا إقامة سلطان العوامل الاقتصادية مقام سلطان الملوك والقوانين، ثانيا اشتباك المصالح بين الأمم التي كانت منفصلة، فلم يكن عند بعضها ما تستعيره من بعض.

ويصبح تأثير الحكومات العظيم في الماضي، أكثر ضعفا في كل يوم أمام العوامل الاقتصادية التي تزيد أهمية، والآن تخضع الحكومات للضرورات الحاضرة وعادت لا تقود. وولد مع تقدم العلم والصناعة والصلات الأممية سادة بالغو القدرة يجب على الأمم وملوكها أن يطيعوهم. »

(روح السياسة لغوستاف لوبون)

« يجب أن يذكر بين صفات الجماعات سرعة تصديقها الذي لا حد له، وحساسيتها البالغة وعدم تبصرها وعجزها عن التأثير بالبرهان، ويتألف من التوكيد والعدوى والتكرار والنفوذ وسائل وحيدة لإقناعها تقريبا ويمكن أن تحمل الجماعة على تصديق كل شيء، فليس لديها شيء مستحيل. والإنسان في الجماعة يهبط كثيرا في سلم الحضارة، فهو يصير من البرابرة ويظهر ما يتصفون به من عيوب ومحاسن، أي ييدي عنفا خاطفا كما ييدي حماسة وبطولة. والجماعة في الحقل العقلي تكون دون الإنسان وهو منفرد دائما، والجماعة في الحقل الأدبي والعاطفي قد تكون أعلى منه.

والجماعة تأتي عملا إجراميا بعين السهولة التي تأتي بها عملا زهديا. وتأثير الجماعات عظيم في الأفراد الذين تتألف منهم، ففيها يصبح البخيل مبذرا والملمحد مؤمنا والصالح مجرما والجبان بطلا. »

(روح الثورات لغوستاف لوبون)

« والطريق التي سار منها فطريو المغاور إلى المدن الحاضرة الساطعة كانت طويلة خطيرة، وكانت الأشباح الوهمية دليل الإنسان عليها في الغالب لا ريب، ولكن هذه الأشباح هي مصدر الآمال والجهود، والأوهام التي تقود إحدى الأمم إذا ما تبددت بسرعة أظلم مصير هذه الأمة وجنّ عليه الليل، والبشرية القديمة لو اكتشفت أن حقائقها مؤقتة غير ثابتة ما سارت نحو مستقبل أطيّب من حالها. »

(حياة الحقائق لغوستاف لوبون)

مقالات ودراسات حول عادل زعيتر

عادل زعيتر وفن الترجمة

أ.د. يحيى جبر

مجلة التعريب / دمشق

تمهيد :

عادل عمر زعيتر عالم عربي من فلسطين، ولد في مدينة نابلس عام 1897 في بيت علم ودين ورياسة، وتلقى علومه الأولى في مدارس نابلس وبيروت والآستانة، فثقف العربية والتركية والانجليزية، والتحق عام 1916 بالجيش التركي، وما لبث حتى التحق بالجيش العربي، وبينما هو في الطريق اذ ضلت القافلة، ولما نجوا نذر أن ينقطع لخدمة الأمة ورفع شأنها.

مثّل نابلس في المؤتمر السوري العربي عام 1920 الذي أعلن استقلال سورية الكبرى بحدودها الطبيعية، ولكن تغلب الانجليز والفرنسيين وهيمنتهم على مقدرات الأمة جعله يدرك أن ما بالأمة من جهل هو السبب في تخلفها واحتلال أرضها، فقرر ان يلج باب العلم من جديد فاتجه الى فرنسا حيث درس الحقوق، وتتلّمذ على فلاسفتها ومفكريها مباشرة، أو من خلال مؤلفاتهم، كما أتيح له أن يطلع على آداب الشعوب الغربية، فوقف فيها على آفاق جديدة من المعرفة، مما أغراه من بعد بترجمة روائع ما ألف في أوروبة، اذ ترجم نحو من أربعين كتابا اختارها بدقة وعناية، وترجمها بوعي واتقان.

وقد كان لعادل زعيتر ذكر واسع في أرجاء الوطن العربي، ويتجلى ذلك في حفل تأبينه، اذ شارك فيه أعيان السياسة والعلم والأدب في مصر وسورية والسعودية والعراق والاردن وفلسطين، ولا عجب في ذلك، اذ كان عضوا في مجمعي اللغة العربية بدمشق وبغداد، وكان يحج مصر كل شتاء، يشرف بنفسه على طباعة كتبه.

ولم يؤلف زعيتر سوى بعض مقالات نشرت لها الصحف، وبعض أوراق في الحقوق عندما كان يعمل مدرسا في كلية الحقوق في بيت المقدس، ومما يؤثر عنه انه قال، وقد سئل عن عدم اشتغاله بالتأليف : عندما أشعر ان مؤلفاتي ستكون على مستوى ما أترجمه من أعمال الاوروبين فأنني سأفعل.

عمل في المحاماة زمنا، ورافع مدافعا على الثوار في محاكم الانجليز، ولكنه في أخريات سنيته (بعد سنة 1946) عكف على الترجمة، وكانت فرحته اكبر ما تكون يوم ينجز ترجمة كتاب. جاء في رسالة وجهها لشقيقه أكرم في 19/2/1946. «يكاد قلبي يتحرق من أنني لم أقم بشيء مما تطمئن له نفسي في عالم العلم والسياسة، فتروني عازما على تطبيق المحاماة وسلوك السبيل الذي كتبت لك عنه» يريد الانقطاع للترجمة.

وقد انتهج عادل زعيتر في ترجمته منهجا واضحا لم يحد عنه، واتسمت كل مترجماته بطابع خاص، وأنه لو لم يترجم... تلك المجلدات العديدة من أمهات الكتب... واكتفى بترجمة كتاب حضارة العرب لجوستاف لوبون وحده لكفاه ذلك فخرا وخلودا، ويقيني أن خدمته للأمة العربية تفوق أضعافا مضاعفة خدمات رجال السياسة والأدب من أبناء العروبة. (من برقية طه الهاشمي للجنة التأبين)

وكان عادل زعيتر قومي الهوى لا يعترف بالعصبية الوطنية ولا بالاقليمية، على نحو ما نجده في قول وديع فلسطين «وصفته ذات مرة بأنه الأديب النابلسي» فثار غضبا وأردت تصحيح ما وقعت فيه من خطأ، فقلت عنه أنه «الأديب الفلسطيني» فهاج وماج وأرعد وأزبد، وقال لي: أنني أديب عربي....» (الرسالة بيروت 1958/1/15).

ذلكم هو عادل زعيتر، ونستعرض في ما يأتي رأيه في فن الترجمة من خلال أعماله، وما قيل فيه .

غزارة انتاجه :

كان عادل زعيتر يأخذ نفسه بالعزيمة، ويكلفها فوق طاقتها في ما يحملها عليه، فقد صدف أن اعتراه الاجهاد المشفي على الموت غير مرة، ولكنه لم يكن يبالي، فأمامه غاية نبيلة بينه وبينها شأو بعيد، ولولا تلك النفس العنيدة في اصرارها، الطموح في تطلعاتها، المحبة لأمتها، المخلصة لدينها وربها، لما أفلح عادل زعيتر في مهمته التي وقف نفسه عليها، ولما نجح في بناء ذلك الهرم من الكتب المترجمة .

فقد ترجم نحو من أربعين كتابا هي عيون ما صنفه الفرنسيون بخاصة والغربيون بعامة في مجالات الفكر والاجتماع والفلسفة والتاريخ والتربية، مما يشير بوضوح تام الى غزارة انتاجه، ذلك الانتاج الذي تعجز عنه المؤسسات العلمية المتخصصة لاسيما أنه انجز في زمن يكاد يكون قياسيا، وبمستوى رفيع .

واليك ثبوتا بمترجماته مقرونة بسني نشرها، ومنها ما نشر بعد رحيله.

1 - من مؤلفات جان جاك روسو

أ - العقد الاجتماعي أو مبادئ الحقوق الاساسية 1945 .

ب - أميل أو التربية 1956 .

ج - أصل التفاوت بين الناس 1945 .

2 - من مؤلفات جوستاف لوبون

أ - حضارة العرب 1945 .

ب - حضارة الهند 1948 .

ج - روح الجماعات 1950 .

د - السنن النفسية لتطور الامم 1950 .

هـ - فلسفة التاريخ 1954 .

و - روح التربية 1949 .

ز - حياة الحقائق 1949 .

ح - الآراء والمعتقدات 1946 .

ط - روح الثورات والثورة الفرنسية 1946 .

ي - روح الاشتراكية 1948 .

ك - روح السياسة 1947 .

ل - اليهود في تاريخ الحضارات 1945 .

3 - من مؤلفات اميل لودفيج .

أ - النيل 1951 .

ب - البحر المتوسط 1951 .

ج - كليوباترا 1952 .

د - بسمارك 1952 .

هـ - نابليون 1946 .

و - ابن الانسان 1947 .

ز - الحياة والحب 1959 .

4 - من مؤلفات آرنست رينان .

- ابن رشد والرشدية 1957 .

5 - من مؤلفات فولتير

أ - كنديد (التفاؤل) 1955 .

ب - الرسائل الفلسفية 1959 .

6 - من مؤلفات أناتول فرانس :

أ - حديقة أبيقور 1955 .

ب - الآلهة عطاش 1957 .

7 - من مؤلفات مونتسكيو

أ - روح الشرائع 1953 بتكليف من اليونسكو

8 - من مؤلفات فنلون

أ - تلماك 1957 .

9 - من مؤلفات حيدر بامات

أ - مجالي الاسلام 1956 .

10 - من مؤلفات اميل درمنغم

أ - حياة محمد 1956 .

11 - من مؤلفات سيديو

أ - تاريخ العرب العام 1948 .

12 - من مؤلفات غاستون بوتول .

أ - ابن خلدون وفلسفته الاجتماعية 1955 .

13 - من مؤلفات ايسمن

أ - اصول الفقه الدستوري 1955 .

14 - من مؤلفات البارون كرادوفو

أ - الغزالي 1959 .

ب - ابن سينا 1959 .

ج - مفكرو الاسلام 1959 ويقع في جزأين لم ينشرا.

وكان يخطط لترجمة عدد من الكتب نذكر منها: آخر ملوك بني سراج لشاتو بريان، وسيرة الإبطال لبلوتارك، وتدهور الغرب لشبينجلر، والسلطة لبرتراند دوجوفيل، وتاريخ الاندلس لبروفنسال، لولا أن هذا طلب مبلغا كبيرا لقاء ذلك، وهو ذا الانسان، لنيتشه، سنة 1938، ثم عدل عنه لمرضه. والمحمدية، والعبقرية السامية الآرية في الاسلام لكرادوفو، والشهداء لشاتوبريان وتاريخ الاندلس لدوزي (ترجم فصلا منه ثم عدل عنه) غير أن الأجل عاجله دون أن ينهض بها، وظل بعض أعماله مخطوطة لم ينشر بعد.

جمال الحقون، محقق تخصصه الأساسي.

«وكان عادل يرجو ان يختم حياته بتأليف تاريخ عام للعرب يكتبه بأسلوب علمي، وعلى ضوء النظريات الاجتماعية والفلسفية التي يعتنقها... على أنه كان واثقا بأن الأدوات اللازمة لتحقيق أمنيته في تاريخ أمته لا تتوافر في نابلس، فكان يطمع في ان تتاح له سكنى القاهرة من أجل ذلك (اكرم تأبين 207)

اللغات التي ترجم عنها :

يعتبر عادل زعيتر في طليعة المترجمين العرب عن الفرنسية، من حيث عدد الكتب التي ترجمها ، والموضوعات التي تناولها مؤلفو تلك الكتب فيها، وسلامة الترجمة. وقد كنا نتوقع من الدكتور حسام الخطيب ان يخص عادل زعيتر بكلمة توضح مكانته بين المترجمين العرب بعامة والفلسطينيين بخاصة. (انظر كتابه حركة الترجمة الفلسطينية، وبحثه «حركة الترجمة لدى أبناء فلسطين» العدد 11 سنة 1986 - المجلة العربية للثقافة- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ص 67).

وكان يتقن الى جانب العربية كلا من اللغة التركية والفرنسية والانجليزية والألمانية ، غير أن جل ترجماته كانت عن الفرنسية، وبعضها عن الألمانية .

« ان الثقافة العالية الرفيعة التي وصل اليها عادل زعيتر بجده وسهره ونشأته في المحيط الوطني المجاهد الذي عاش فيه؛ مع تمكنه من نواصي اللغات العربية والتركية والفرنسية والانجليزية... جعله يملك زمام موضوعه بهذه الأدوات العلمية التي قل ان يظفر بها احد من المعاصرين، ويبز كل من يتصدى -ويتعدى- للترجمة ونقل علوم الامم الغربية وتعريبها بمثل الدقة التي تمكن بها عادل من ترجمة وتدقيق اكثر من ثلاثين كتاباً ضخماً من انفس وأروع ما وصل اليه العقل المعاصر من تفكير ..(محمد على الطاهر، مجلة الاديب، بيروت ك 1958/2).

نهج في الترجمة

درج عادل زعيتر على منهج متميز في جل ترجماته، ويسهل على المطالع استظهار ذلك المنهج في الكتب التي ترجمها بشكل واضح، ويمكن ان نرصد أبرز معالمه في النقاط التالية :

- يعرف زعيتر مؤلف الكتاب المترجم بتقديم نبذة قصيرة عن حياته .
- يعقب ذلك بتعريف بالكتاب المترجم والدوافع التي حدت بمؤلفه الى وضعه ، وقد يطول ذلك فيأتي به كأنه يحكي حكاية. ويردف ببيان الدوافع التي حملته على ترجمته، وهي غالباً ما تتضمن الإشارة الى حرصه على الا تخلو المكتبة العربية من مثله، والاهتمام بنشر الوعي على طريق النهوض بالأمة. جاء في تقديمه لكتاب بوتول عن ابن خلدون « وفي الكتاب يرى ما يعز وجوده عند غيره من النزاهة والاعتدال، فحملنا هنا على نقله الى العربية رداً للتحية، واطلاعا على ما يحتويه من فوائد »

ومن الطرائف التي توقفنا على سبب ترجمته بعض الكتب ما حكاه لخواهه من سبب ترجمته لكتاب روح التربية لجوستاف لوبون على نحو ما رواه محمد على الطاهر في مقالته التي نشرتها الأديب البيروتية (كانون الثاني 1958) اذ جاء فيها :

« أما قصة عادل القديمة مع طه حسين كما حكاه لي عادل، فقد وقعت في باريس حوالي 1922 - 1924، وخلاصتها انه لما ظهرت ترجمة «روح التربية»، أخذها عادل وبعض الطلاب العرب وذهبوا الى مؤلفها الدكتور جوستاف لوبون، وكان شيخاً كبيراً، وطلب منه السماح له بترجمة كتابه الشهير «حضارة العرب» وقدم اليه ترجمة كتاب روح التربية معترفاً بالدكتور طه حسين (مترجمها) الاديب العربي، وكأنه يقول لجوستاف لوبون مباحياً « انظر كيف ان كتبك تنقل الى لغتنا».

ولما أمسك لوبون بالنسخة العربية، وفحصها ووزنها بيده، قال لهم: يظهر ان لغتكم مختزلة ومختصرة كثيراً، والا فهذا تلخيص لكتابي اذن، وهذا لا يجوز ولا يليق بأهل العلم . قال عادل : وخرجنا من عنده نتعثر بتلك العلقة التي اكلناها بسبب الدكتور طه، ونويت ان اترجم انا في مستقبل الأيام كتاب «روح التربية» كما هو النص والأصل، ولكنني شغلت عنه في ترجمة حضارة العرب وحضارات الهند والكتب الأخرى، فلما ظهرت ترجمتي لكتاب نابليون وانتقصها طه بدون حق، متحيزاً لصديقه (محمود ابراهيم الدسوقي تلميذ طه حسين والذي ترجم الكتاب نفسه) فطنت الى ما كان بالامس البعيد، وقررت الانتقام منه .. وظهر كتاب «روح التربية» الضخم للدكتور جوستاف لوبون مترجماً بقلم عادل زعيتر في اكثر من 800 صفحة ... »

وهذا يوضح ان السبب كان ثأراً ، وتصحيحاً لترجمة مختزلة، ويقف المطالع والمتمعن في موضوعات كتبه ان الرجل كان يترجم الكتب التي تعالج قضايا المجتمع وحركته، والتي تبسط فيها آراء المتمردين على الظلم والمكافحين، وأصحاب المعاناة من المؤلفين، قال عادل الغضبان في تقديمه لآخر كتاب ترجمه عادل زعيتر، وهو الرسائل الفلسفية لفولتير (ط دار المعارف 1959) : وكان آخر تلك الروائع هذا الكتاب الذي تصدى فيه مؤلفه لمحاربة الاستبداد في بلده على متباين صورته، فصادف موضوع الكتاب هوى من نفس فقيدنا المتألم لفلسطين المنكوبة الشهيدة، فنقله الى العربية »

وينتهي تقديمه ببعض الملاحظات التي تختلف من كتاب لآخر، كأن يحقق في نسبة الكتاب لصاحبه، « يقول في معرض تقديمه لكتاب العقد الاجتماعي لجان جاك روسو (دار المعارف 1954 ص 15): «وفي سنة 1755 نشر روسو رسالة «الاقتصاد السياسي» ، وهنالك شك في كونها وضعت قبل رسالة «أصل التفاوت» أو بعدها، فالذي يظهر أول وهلة كون رسالة «الاقتصاد السياسي» على غلط «العقد الاجتماعي» وهذا يدل على أنها الفت بعد «أصل التفاوت» ونحن نقول بدورنا : وهذا منهج من التحقيق دقيق تفرد به عادل زعيتر، ويقوم دليلاً على أمانته وتبحره .

وقد فعل مثل ذلك في تقديمه لكتاب فولتير « كنديد » او التفاؤل (دار المعارف سنة 1955 ص 15- 16) اذ قال : وكتاب كنديد مؤلف من جزأين، فأما الجزء الأول فيوجد اجماع على انه وضع بقلم فولتير، وأما الجزء الثاني فقد ذهب كثير من النقاد الى انه من وضع كاتب آخر، ولذا يرى اقتصار بعض الطباعات وبعض الترجمات على الجزء الأول منه، كما يرى اشتغال طبعات اخرى وبعض ترجمات على الجزأين معاً، وذلك مع اشارة قسم منها الى هذا الأمر، ومهما يكن من أمر فان الجزء الثاني وضع على نحو الجزء الأول وروحه ، ولا يكاد الناقد النفاذ يلمس فرقاً بينهما ، وكيف يدرك هذا والجزء الثاني ينم عن براعة ولباقة كالأول، وقد حفزنا هذا الى ترجمة الجزء الثاني ايضاً اتماماً للفائدة وامتناعاً للقارئ العربي ..

قلت : وهذا يذكرنا بما كان من أمر الحمادين الثلاثة وغيرهم من منتحلي الشعر وناحليه سواهم، اذ

كانوا يأتون به على غرار الشعر الجاهلي، فلا يختلف في شيء الا عند بعض النابهين.

وكان من عادته - رحمه الله - أن يقرأ كثيرا في موضوع الكتاب الذي يتصدى لترجمته، وذلك شأن العلماء ، كيما تنحكم له الصنعة، ويلم بأطراف الموضوع. قال في تقديمه لكتاب غاستون بوتول « ابن خلدون - فلسفته الاجتماعية » .. الفه سنة 1930 ، وقد قرأناه، غير مرة، فوجدناه ينطوي على عناية عظيمة بابن خلدون ...»

ولم يكن عادل يقرأ وحسب، ولكنه كان يسأل أهل الاختصاص دون أن يجد في ذلك حرجا، فهو يعلم أن المعرفة لا تكتمل لانسان، ويتضح ذلك في بعض الشهادات نوردتها في ما يلي:

1. عندما ترجم كتاب حضارات الهند بعث الى اصدقائه في الهند يستفتيهم في نطق الاسماء الادبية، فجاء النطق الصواب الذي التزم في السفر جميعا مثل بدهة بدلا من بوذا، وهمالية بدلا من هيمالايا، ودهلي بدلا من دلهي (وديع فلسطين - الرسالة - بيروت 1/15/1958).

2. عندما ترجم كتاب تاريخ العرب قبل الاسلام لسليديو ، عرض له فيه طرف من تاريخ القبط في مصر فأراد أن يتحرى بعض حقائق ذلك التاريخ، فاستعان بوديع فلسطين في الظفر بكتاب عن تاريخ الكنيسة القبطية لجلاء حقيقة الامر (المصدر السابق نفسه).

3. استعان في ترجمة كتاب النيل لاميلى لودفيغ بوديع فلسطين ليدله على أسماء أصناف قديمة من القطن المصري، فاستعان وديع بالدكتور يوسف نحاس للغرض نفسه، واستعان بوديع في معرفة نص أغنية دارجة كان أبناء النوبة يرددونها، لان اميل لودفيغ ترجمها في كتابه، وكان عادل حريصا على ادراجها في ترجمته الضادية بنصها الشائع. (المصدر السابق نفسه)

4. يحرص عادل على ايراد النصوص الاصلية للمقتبسات ويبدل في هذا جهودا عظيمة وقد يقتضي أياما في البحث عن نص أصلي، وتحقيق حادث او اسم ، ولا يفتأ يكتاب الثقاة والمختصين في مواضعهم، فيتصل بالعلامة الهندي المرحوم عبد الرحمن صديقي للاتفاق على الصورة الصحيحة لكتابه الاسماء الهندية. ويكتاب العلامة الأب قنواقي الدومينكاني للتحقق من صحة بعض الاسماء ، ويكون صديقه الاستاذ شوقي أمين (أستاذنا رحمه الله) واسطة الوقوف من ناحوم أفندي عضو المجمع اللغوي على صحة بعض أسماء فلاسفة اليهود في اسبانية، ويكتاب الاستاذ احمد شاعر لتحقيق احاديث نبوية، ويتصل بأئمة الاديان لتحقيق نصوص فقهية، ويزور الأديرة والكنائس .. ويزور سفير ايران بالقاهرة لتحقيق لفظة فارسية .. وما أكثر ما كان يشتري من الكتاب الواحد طبقات متعددة ليلحظ التفاوت بين تلك الطبقات (من ذكريات اكرم زعير - كتاب التأبين ص 204، 205).

5. كما كان يقف عند حد النص، ويتقفاه حرفا بحرف، وبهذا الصدد يقول في مقدمته لكتاب اميل لودفيغ «الحياة والحب » ط دار المعارف 1959 ص 7 .. وهذا ما أردنا جلاءه بالصقل جهد المستطيع مع المحافظة على حرفية الترجمة .»

ويقول وديع فلسطين بهذا الصدد (الرسالة ، بيروت 1/15/1958) وهو في الترجمة حرفي لا يتصرف مالم تكن هناك ضرورة لا مفر منها، ولكنه يطبع اسلوبه بطابع عربي بالسخ الابانة، لا يتأق الا للبلغاء المؤثلين في اللغة، ولا يسهل فهمه ان كان القارئ عجلا او ناقص ثقافة: وكان يقول دائما ان بغيته العليا في الترجمة ان يحاكي الاصل الافرنجي متانة اسلوب وروعة أداء ودقة تحر وسلامة من العيوب »

وكانت هذه واحدة من خصال عادل زعير، إذ كتبت جريدة الاثنين القاهرية في 1958/3/24 ما نصه :

وعادل زعير واحد من القليلين الذين حافظوا في نقل كتب الغرب الى لغة العرب، على حرفية الترجمة بدون ان يمسوا المعنى او يشوهوه او ينقلوه ناقصا او زائدا .. وعادل زعير واحد من الذين اثبتوا ان التوفيق بين الترجمة الحرفية وصيانة المعنى امر ممكن، بخلاف ما يدعي «العاجزون» عن تحقيق هذه المعجزة، الذين لم يحققوا هذا من المترجمين كانوا يبحثون عن العمل السهل، ويستعجلون الربح المادي، ويتسابقون مع الوقت فيسلقون الترجمة كما يسلقون البيض .»

وكان من دقته يشرف على طباعة كتبه بنفسه (انظر مقدمة اكرم - شقيقه - لترجمته لكتاب البارون كارادوفو «الغزالي» ولم يكن ليتجاوز خطأ في الكتاب دون تصحيحه ولو بالحاق ثبت بالكتاب يرصد فيه الاخطاء وتصويباتها. ويتضح ذلك في ما كتبه الأديب العربي الكبير وديع فلسطين بعنوان (عادل زعير - تعريب مؤلفات الغرب - جريدة الحياة - لندن، 24 شباط 1995) اذ قال : وعندما طبعت له دار المعارف كتاب «البحر المتوسط» لاميلى لودفيغ اكتشف بعد مراجعة تجاربه عدة مرات وقوع اخطاء مطبعية يسيرة، وفي وسع القارئ ان يستدركها دون عناء، لكن عادلا غضب اشد الغضب، وأصر على ان يزين الكتاب بلائحة بهذه الاغاليط، في حين أصر شقيق متري صاحب الدار على رفض ادراج هذه اللائحة قائلا : ان الدار عرفت بدقتها، ولا نريد ان تسيء الى سمعتها بادراج لائحة فيها اعتراف بوجود اخطاء مطبعية في كتبها، وأصر كل طرف على رأيه، وعندئذ ابدى عادل زعير استعدادة للإقرار على نفسه بمسؤولية هذه الاخطاء، وللاعتذار لدار المعارف، وعلى هذا ذيل الكتاب بلائحة التصويبات مع عبارة نصها : «ظهرت الأغاليط القليلة الاتية تصويباتها في هذا الكتاب الضخم (وقوامه 905 صفحة) الذي طبع باشرا في خمسة اسابيع، فأنشر هذه التصويبات مع الاعتذار لدار المعارف التي اسجل لها شكري»، لقد كان كل من الطرفين حريصا على الكمال، فجاءت هذه العبارة لتسجل ذلك .»

6. وكان لفرط تدقيقه، وحرصه على اخراج الترجمة في أبهى صورة وأدق معنى - يطالع الكتاب الذي يتصدى لترجمته في غير لغة ، ان كان مما ترجم الى غير لغته الاصلية، فقد اعتمد في ترجمته الكتاب السابق للودفيغ على اصله الانجليزي وترجمته الفرنسية وقد نرى مرد ذلك الى انه كان يتقن الفرنسية اكثر، وفي الاطلاع على المعنى بلغتين اسعاف وتمكين من الترجمة بشكل دقيق .

7. ولعادل زعير مذهب في الترجمة اذ يرى جواز الترجمة عن ترجمة اخرى الى غير لغة الكاتب الاصيل، ويرى ان الترجمة عن الأصل أولى عندما يكون الموضوع علميا، توخيا للدقة ونقل المعنى الصحيح للاصطلاحات. وفي هذا الصدد نقل ما أورده صاحب المقال السابق، وقد أورد أحوالا أدت بعادل زعير الى اظهار سخطه وتبرمه، فقال «ومرة ثالثة انفجر في عادل زعير عندما كتبت كلمة عن ترجمتين لكتاب «نابليون» لاميلى لودفيغ اتفق صدورهما في وقت واحد : ترجمة عادل زعير المنقولة عن النص الفرنسي مع الاسترشاد بالترجمة التركية لأنه كان يجيد هاتين اللغتين، وترجمة محمود ابراهيم الدسوقي المنقولة عن النص الالماني، وهو النص الاصيل للكتاب، وانتهيت في كلمتي الى ان النقل المباشر عن لغة الكاتب الاصيل أدق من النقل غير المباشر عن لغة اخرى ترجم اليها الكتاب، ولم يوافقني عادل زعير على هذا الرأي قائلا: ان الكتب الادبية يجوز ترجمتها من نص مترجم، أما الكتب العلمية او الفنية فيحسن ان تترجم عن النص الاصيل للتأكد من الترجمة الدقيقة للمصطلحات والتعبيرات، وكتاب نابليون هو كتاب ادبي في المقام الأول.

قلت : نوافق وديع فلسطين، ونخالف المرحوم زعيتر، إذ ربما كانت ترجمة النصوص العلمية عن لغتها الأصلية أو عن لغات أخرى ترجمت إليها - مقبولة أكثر وأدق، لأن العلم واحدة معانيه ومفهوماته ونظرياته في كل اللغات والبلدان، على العكس من لغة الأدب .

8. ومن مظاهر الدقة في ترجمات عادل زعيتر - رحمه الله- انه كان يضبط الألفاظ بالشكل الدقيق، لاسيما الألفاظ الملبسة التي تحتل غير وجه واحد، والغريبة التي يستنبطها من معجمه وسنن البحث بنماذج من ترجماته توضح ذلك .

وقد اعتمدت اللجنة الدولية لترجمة الروائع الانسانية المنبثقة عن اليونسكو ترجمات عادل زعيتر وأجازتها، وكانت تكلف من يراجعها والنظر فيها، وقد نجد اشارة لذلك على بعض الكتب ككتاب العقد الاجتماعي لجان جاك روسو، إذ حمل الكتاب اسم اللجنة، وعلى صفحته الداخلية عبارة « قرأ هذه الترجمة وفق احكام منظمة الاونسكو : توفيق الصباغ، كمال الحاج» وانظر كلمة الدكتور مصطفى جواد: كلمة المجمع العلمي العراقي، كتاب التأبين ص 26 .

وكتب محمد عبد الغني حسن (بريد المطبوعات الحديثة - مصر، ديسمبر كانون الأول 1957) مقالة بعنوان عادل زعيتر جاء فيها : وكان في عادل دقة في الترجمة، إلا ما تحدثه الترجمة عن لغة ثانية من فروق - كما كان فيه أصالة في التعبير، وفحولة في التركيب، وضلعة في اللغة وميل الى احياء اللفظة الغريبة لا استكراها في جلبها ولكن اشاعة لاستعمالها. وجاء في نعي مجمع اللغة العربية بدمشق له (مجلة المجمع عدد 33 سنة 1977 ص 66) ما نصه : كان الفقيه في طليعة المترجمين، أمينا في نقله سليما في اسلوب انشائه». ويقف المطالع في مترجماته على هذه الحقيقة بسهولة ويسر. ونشرت مجلة الحياة البيروتية (1957/1/12) مقالة بعنوان «أكبر المنتجين العرب» تعني عادلا، جاء فيها « ولغته في الترجمة هي النقية العالية الطبقة، وقد رسخت قدمه في هذا الفن رسوخا يجعل القارئ يؤمن بأنه إنما يقرأ عبارة عربية كأنها خلقت عربية، ولم تنقل ترجمة بحال ... وكثيرا ما رأينا ان فردا من الكتاب تخير لفظا او مصطلحا فوفق فيه أكثر مما يوفق المجمع العلمي بأسره، وأحيانا يثبت في الحاشية اللفظية الاجنبية التي أتاك بتعريب مختار لها» قلت : وهذا منهج غدا اليوم متبعا على نطاق واسع، ومطلب يقتضيه البحث العلمي، أي ان يثبت الاصطلاح الأعجمي الى جانب الاصطلاح العربي المترجم او موازيا له في الهامش، إمعانا في الدقة والاحتياط .

ومن شأنه رحمه الله انه كان يتخير فصيح الألفاظ لا رغبة في التقعر ولا تحذلقا، ولكن احياء لتلك الالفاظ وادراجا لها على الأقلام، لأن الألفاظ تتأبد ما لم تؤنسها الألسن بتداولها، والأذان باستماعها . وفي هذا الصدد يقول عبد الله المشنوق في مقالة بعنوان «الوسيط الاول» نشرت في بيروت المساء (بيروت 12 كانون الأول سنة 1957) : «ولم تعرف العربية مدققا في اختيار الألفاظ الفصيحة كالمرحوم عادل زعيتر ... وقد حدثني شقيقه الاستاذ الكبير اكرم زعيتر - رحمه الله - عن غلطة اكتشفها اكرم في إحدى ترجمات عادل إذ استعمل عادل كلمة الماس - الجوهر الثمين المشهور معرفا مرتين بالالف واللام (الاماس) فكتب له يقول له : الصواب ان تقول الماس، وبعد عام التقيا على التلفون، وكان اولى كلماته لاخيه اكرم بعد تبادل السلامات: الصحيح الأماس، وأنا على صواب ... والحقيقة ان عادلا هو المصيب» .

وفي هذا المعنى قال مصطفى جواد ممثل المجمع العلمي العراقي يؤبنه في أربعينه (كتاب التأبين ص 126) : «ولقد كان - رحمه الله - ينتقي الكلمات العربية انتقاء ليبر بها عن كلمات فرنسية يعز على غيره الاهتمام الى ما يقابلها في العربية حق المقابلة، انه كان عداً لاختصاص اللغة العربية، ولكن هذا العد قد انقطع» وجاء في ذكريات شقيقه المرحوم اكرم (كتاب التأبين ص 205) انه كان يدخل في ما يكتب كلمات غير مألوقة، ولكنها ليست نابية، وهي تأتي عفوا من دون تكلف وكان هذا مثار جدل بينه وبين بعض أصدقائه من الأدباء والعلماء، وأن صديقه الاستاذ نصح الأيوبي كتب اليه من دمشق مثنيا على احد كتبه، وقد اعترض على ايراده في الكتاب كلمة «الخنزونة» (1) بمعنى الكبر، وداعبه قائلا: «وليس من المفجع يا سيدي ان تموت كلمة الخنزونة - من اللغة العربية» فتلقى عادل تلك الدعاية ضاحكا وأجابه بضرورة تطعيم اللغة بكلمات على الا تكون نابية. ومما قاله ان كلمة عنجهية تفيد المعنى ذاته، ولم تكن تستعمل حتى ردها الامير شكيب أرسلان فغدت مألوقة سائغة» قلت : ولعل هذا التعلق الشديد بالعربية، والحرص عليها هو القاسم المشترك بين كل من زعيتر وأرسلان الذي اغرى محمد على الطاهر بمقالته التي نشرتها له الاديب البيروتية (عدد كانون الثاني 1958) بعنوان «الشبه بين عادل وشكيب» . ويتوالى شريط الذكريات، فيقول اكرم (ص 206) كان عادل يحرص على صحة لغته حديثا وكتابه، ويعني بتشكيل كثير من الكلمات التي يحتمل الالتباس في صحة لفظها، فكم من فائدة لغوية يجتنيها قارئ كتبه، وقد تعلمت منه مثلا ان أقول «المتحف» بضم الميم لا بفتحها، لأنها مشتقة من أحف لا من تحف ...

ومن الشهادات التي تؤكد مذهب عادل زعيتر في تخير الفاظه ولو كانت من الغريب ما نشرته مجلة الثقافة في عديها الصادرين في 1948/3/2، 1948/4/20 من نقاش بين الدكتور احمد فؤاد الاهواني استاذ الفلسفة في جامعة القاهرة آنذاك، وعادل زعيتر بعد صدور ترجمته لكتاب حضارات الهند، إذ كتب الاهواني «ان المترجم في سبيل الارتفاع بالاسلوب جعل ينقب الالفاظ الغريبة يضعها في مكان الالفاظ الفرنسية كاتخاذ كلمة «العرق» بدلا من الجنس، وكاتخاذ كلمة «شماريخ الجبال» بدلا من «رؤوس الجبال» ... ويرد عادل رد لغوي أديب، يصدر عن قلب مفعم بحب اللغة والحرص عليها، وبتمثل رده في :

1. ان ما ورد من غريب لم يأت تكلفا وانما جاء عفوا .
2. ان ادراج هذا الغريب مفيد نافع لما يؤدي اليه من تطعيم اللغة الدارجة والنهوض بها ..
3. انه لا يضير كتابا ضخما كحضارات الهند ان يشتمل على بضعة الفاظ من هذا النوع لا سيما انه كتاب ادب .
4. ان هذه الالفاظ ليست نابية، وانه استخدم الى جانب شماريخ الرؤوس والذرى، ولكنه يرى ان «شماريخ» في موقعها الذي استخدمت فيه « أوقع في النفس من كلمة رؤوس» ويؤكد وديع فلسطين ذلك المنحى في ترجمات عادل زعيتر (الحياة - لندن. 24 شباط 1995) قائلا: كان عادل زعيتر يتألق في ترجماته تألقا شديدا، وصفه بعض نقاده بالتقعر والتفصيح إذ لم يكن يستخدم اللفظة السهلة القريبة المنال، بل كان يؤثر عليها اللفظة المعجمية غير الدارجة ثم يشرحها في هامش الصفحة، ومن ذلك مثلا قوله: ان زيدا من الناس تزوج فتاة صغيرة بعدما «أم» ويشير في هامش الصفحة الى ان لفظة (آم) معناها فقد الزوجة. وكان يصف الصورة التي تعبد بالنصمة، ويترجم لفظة Puritain بالحنبلي، في حين يرى ناقده ان الحنابلة

فرقة اسلامية، أما البيوريتان فهم فرقة مسيحية. (1) .. وهو يستخدم عبارة «يكردح الحمار» ثم يشرحها في الهامش بقوله : ان كردح تعني ان الحمار عدا عدوا قسيرا .. ومن هذا القبيل استخدامه لعبارة «ارتعج البرق» بمعنى تتابع البرق، واستخدامه كلمة الاضوار بمعنى السحب السود، والطاخية بمعنى المظلمة ، والأضواج بمعنى منعطفات الوادي، والمراجح بمعنى الطرق الضيقة ، واستغدر المكان بمعنى صار فيه غدران، والجذول بمعنى الاصول الباقية للأشجار بعد ذهاب فروعها، والثول بمعنى الحمافة.. وهلم جرا، ورأى النقاد أن هذه الهوامش، اقتضاها تقعره في اللغة دون مسوغ .

قلت : ان من هذه الالفاظ ما يستخدم في اللهجات الدارجة في جنوب الجزيرة العربية الى اليوم، وما هي بالغريبة الا عند من تغرّب عن أرومته وصدف عن نهج الأصالة . وعادل زعيتر عروبي الهوى والنزعة، يترجم روائع الادب والفكر العالميين ليسد ثغرة في المكتبة العربية. وليقدم للقارئ العربي تلك الروائع لتسهّم في صقل فكره، وحفره على الماضي قدما على طريق الرقي والتحضر، ومن هنا كان يعف عن ترجمة الكتب الهزيلة، التي تدر مالا كثيرا على مترجميها، لأنه لم يكن طالب مال ولا جاه، وانما كان يتحرّق لما آل اليه أمر الامة، وهو بذلك قد رد للترجمة اعتبارها، وهذا هو عنوان مقالة الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) في تأبينه، والتي جاء فيها (كتاب التأبين ص 119، 120) «وكم حاول بعض الناشرين ان يغروه بالنزول عن مستواه ليكسب مزيدا من القراء، لكن المحاولة ضاعت سدى، وبقي حيث هو مصعدا، .. وكما عصي قلمه عن الاسفاف والهبوط، عصي منهجه في اختيار المترجمات

5. في اللهجات الدارجة في بلاد الشام بكثرة استخدام كلمة حنبلي للمتشدد، لما عرف عن الامام احمد بن حنبل من تشدده .على الانحراف والزيغ والضلال، فأبى أن يستجيب لتجار التموين العقلي، أو يأجر قلمه لمن أرادوا ان يجعلوا الترجمة أداة غزو مقنع، يدمر معنوياتنا، ويسمم عقولنا ووجداننا، كما أبى ان يتملق أهواء العوام وميول المراهقين، ولم يحد قط عما رسمه لنفسه من نهج كريم الهدف، نبيل المقصد، رفيع المستوى. فما نقل أثرا لكاتب غربي الا بعد أن اطمأن الى جدواه على قومه العرب، ولا اهتم بمفكر غربي الا اذا رآه اهلا لان يهتم بمثله.

ومما يؤكد ترفعه ونزاهته أنه ترجم فصولا من كتاب «الاعترافات» لجان جاك روسو، ثم كف عن الترجمة لأن مزاجه لا يسيغ أن ينقل قلمه الاعترافات المكشوفة (كتاب التأبين ص 209). ويؤكد أكرم زعيتر شقيق عادل - رحمهما الله- أن عادلا كتب اليه في 1953/8/10 يقول : أخذت في ترجمة « هو ذا الانسان» لنيتشه، وبعد أن قطعت شوطا بعيداً في أسبوع، أصبت بمرض الروماتزم في ظهري، فأقعدني عن العمل، وطرحتني في الفراش، ثم شفيت منه منذ يومين، فرأيت ألا أستأنف العمل في ذات الكتاب لإفراط المؤلف في اللادينية، وتهجمه على الأنبياء، وحملة الشديدة على المبادئ الانسانية، أي، لأمر لا أقر نيتشه عليها لا في قليل ولا في كثير. (المصدر السابق ص 209).

وهذا يعكس بجلاء ووضوح أن عادل زعيتر كان يتوخى النزاهة والاستقامة ويأخذ بأسباب الأدب في اختيار مترجماته، لأن حرصه إنما كان على تزويد المكتبة العربية بأهمّات الأسفار التي ضمنها مفكرو

الغرب آراءهم ومعارفهم التي تبلورت في أعقاب مخاضات عسيرة مرت به ديارهم، وكأن مشاعل أضاءت دروبهم في اتجاه الحضارة التي تنعم بها أوروبة اليوم لو لم تكن مادية وحسب. وقد أكد هذه الحقيقة محمود سيف الدين الايراني في مقالته التي نشرتها له جريدة الدفاع المقدسية في 1958/3/14 اذ قال «وانه لبيدو لي أن عادل زعيتر ما نقل كتابا الا بعد أناة وتدبر وتساؤل طويل عن فائدته وقيّمته وعن مدى انتفاعنا به، وما يمكن أن يضيفه الى ثقافتنا من رفد ومدد، حتى اذا رجح الكتاب في كفة البحث والتمحيص والتحقيق والتدقيق والنظر السديد في قيمته وفائدته أكب على ترجمته ... فيجيء النقل على هذا النسق الرفيع من الأحكام والدقة والأمانة والبلاغة المعجزة .

وخلاصة لهذا البحث يمكن القول ان عادل زعيتر قدم للقراء خلاصة الفكر الغربي ممثلا في عيون المراجع التي ترجمها لأعلام المفكرين والكتاب الغربيين، وبذلك يكون قد جمع بين الكم والكيف، مما أغنى المكتبة العربية وأمدّها بتلك الروائع، وفتح بابا على الثقافة الغربية الرصينة. ولم يكن عادل حاطب ليل، بل كان ينتقي ويختار، ولم يكن يتعجل أمره، بل كان يتأنى في عمله، وبحكمه، كما انه لم يكن طالب شهرة ولا مال ولا مجد رخيص، اذ كان يتعفف عن ذلك كله، ويأخذ نفسه بالعزيمة، يشهد له بذلك كل من عرفه الا اولئك الذين رأوا في عمله تعرية لنكوصهم وتقصيرهم.

وكان أمينا في عمله، ويعتني به اعتناء منقطع النظر، وهو يصدر في كل ما قدمه عن عروبية فاعلة تحترم في وجدانه، وغيره على أمته وتراثها قل أن نجدهما عند غيره.

عادل زعيتر ومكانته بين المترجمين

أ.د. يحيى جبر و أ. عبير حمد

قدم للمؤتمر الدولي للترجمة / بيروت، مؤسسة الفكر العربي

عكف يحيى جبر عامين على جمع مادة علمية ووثائقية تعكس سيرة العلامة عادل زعيتر المتوفى عام 1957، وفي أواخر عام 1996 خاطب جهات عربية ودولية عدة لتنظيم ندوة في الذكرى السنوية الأربعين لرحيله، على غرار تلك التي نظمناها في جامعة النجاح الوطنية في الذكرى العاشرة لرحيل المؤرخ الفلسطيني محمد عزة دروزة، وبادر إلى إنجاز دراسة نشرت في العدد الأخير من مجلة التعريب الدمشقية بعنوان عادل زعيتر وفن الترجمة، وقد ضمنها الكتاب الذي أصدره في الموسوعة التربوية الفلسطينية برقم 23 ع 4 وهو مخصص لسيرة عادل زعيتر.

لا يملك المطلع على جهود عادل زعيتر في مجال الترجمة والخدمة القومية مقارنة بذيوخ اسمه في المحافل الثقافية والعلمية إلا أن يؤيد المستشرق الألماني شتفان فلد في ما ذهب إليه من قوله «إن عادل زعيتر واحد من المترجمين المجهولين» (1) الذين لم يُنصَفوا، ذلك لأن منجزاته تفوق في عظمتها وأهميتها ما أولته إياه المؤسسات الثقافية في الوطن العربي عموماً، وفلسطين خصوصاً، من الاهتمام وسعة الذكر؛ اللهم إلا ما نجده في مدينة نابلس من مدرسة ابتدائية تحمل اسمه تقع غير بعيد من منزله.

وقد نجد في تبدل الأوضاع الثقافية في الوطن العربي، وتوالي الفتن التي تجتاحه سبباً في عدم الانتباه إلى عادل زعيتر وأمثاله من رموز العطاء الثقافي، إضافة إلى أنه كان يجسد في شخصه وأدائه بعداً قومياً لم يعد قائماً؛ بسبب ما حل بالأمة من عوامل الهدم والتمزق.. فقد كانت حياته على مفترق طرق، فمن عثماني إلى سوري إلى فلسطيني خاضع للانتداب الإنجليزي، فأردني، إلى مصري هوى ودار عمل؛ فكأنه بذلك قد استجاب لواقع الأمة؛ فأصابه ما أصابها، وكان باختصار، شاهداً على عصره الذي عاش فيه، واستطاع أن يتحول بدأبه وجهده وصبره وكفاحه إلى علم من أعلام الأمة الخالدين. وانطلاقاً من حرصنا على رأب الصدع ما وسعنا الجهد، وعلى تدارك ما يمكن أن نلحق به قبل فوات الأوان، فقد بادرنّا إلى رفع لواء الوفاء للذاهبين من أعلام ثقافتنا، نعرف بهم، ونتقصي آثارهم نتقفاها ونقتدي بها، ومن يدري، فقد يمثل ذلك بداية أمينة لمنهج جديد، نصل به الحاضر بالماضي المجيد.

وقد سبقنا إلى إنصاف عادل زعيتر كثير من الباحثين ممن أتيح لهم أن يطلعوا على منجزاته، وهم لم يفعلوا ذلك مأخوذين بمقدار ما ترجم وحسب، بل بنوعه ومضمونه وموضوعاته أيضاً، ولا يملك من يعرف سيرة عادل زعيتر وآثاره إلا أن تهتز نفسه إعجاباً به وبها، ومن هنا فنحن لا نستغرب أن يقول فيه محمد علي الطاهر «لقد كان عادل زعيتر - في اعتقادي - أعظم وأبلغ مترجم في العصر الحاضر للأعظم من علماء أوروبا ومفكرها» (خمسون عاماً ص 345) إذ هو عظيم وترجم للعظماء، فكان في عداد عظماء مفكري الأمة في العصر الحديث كشكيب أرسلان ومحمد عبده ومحمد رشيد رضا وغيرهم.

حركة الترجمة العربية في العصر الحديث:

نشط الترجمة العرب في القرنين الأخيرين، فعادت الروح إلى هذه الظاهرة الحضارية بعد أن كانت توقفت - أو قل تراجعت كثيرا - في العصر العثماني وعصر المماليك المتتابعة من قبله. وكانت بداية البداية الحديثة على يد نفر من مصر يمثلون علامة بارزة على الطريق أبعدهم ذكرا رفاعة الطهطاوي، وازدهرت هذه الحركة من بعد في بلاد الشام بالنقل عن التركية والروسية والفرنسية والإنجليزية، وراجت سوقها، وازداد عدد اللغات المترجم عنها فنقل العرب عن الأسبانية والألمانية والعبرية وغيرها، وازدحمت بذلك السكة على نحو لم يسبقه مثيل.

والغالب في المترجمين أن يختص كل منهم بلغة يترجم عنها، فهناك من اختصوا بالترجمة عن الروسية، وأكثرهم من بلاد الشام لاسيما فلسطين، وقد أحصاهم عددا عمر محاميد في كتابه «صفحات من تاريخ مدارس الجمعية الروسية - الفلسطينية في فلسطين» وجلهم نشطوا ما بين عامي 1882-1914 لأن قيام الحرب العالمية الأولى ونتائجها وقيام الثورة الاشتراكية في روسيا أدت إلى جمود الحركة، وانكماش العلاقة الثقافية بين اللغتين العربية والروسية، هذه العلاقة التي لم تتجدد إلا في أعقاب ثورة 1952 بمصر وانفتاح بعض البلدان العربية على الاتحاد السوفيتي، لكنها لم تعد إلى ما كانت عليه، لا في زخمها ولا في الموضوعات التي برزت فيها.

وفي غضون هذه الفترة، كانت الفرنسية والإنجليزية قد احتلتا مواقع الروسية والتركية، وكثر المشتغلون في مجال الترجمة، وتنوعت أغراضهم، وأساليبهم، وما نرى تلك الكثرة إلا نتاجا للأوضاع التي واكبت فترة الاحتلال الأجنبي سواء أكان ذلك بابتعاث أعداد كبيرة «نسبيا» إلى بلاد الغرب، أم بفتح معاهد غربية في بلاد العرب وتطبيق المناهج الغربية فيها وغير ذلك من الوسائل.

ويوما بعد يوم يتواصل المد، وتقع السفينة تحت تأثير موجة أخرى، لسبب أو لآخر، وتزداد اللغات المترجم عنها، وتنوع الموضوعات التي تسترعي انتباه المترجمين إليها وتختلف الدوافع المحركة، وتغدو الترجمة مهنة لعدد لا بأس به من العاملين، ويختلط الحابل بالنابل، ويتسلل كثير من الكتب السقيمة إلى الساحة من الأبواب الجانبية، ويطرأ في الأفق نجوم خافتة لا تكاد تبين. وفي هذا الذي تقدم ما يدعو إلى تقويم حركة الترجمة في العصر الحديث والتوجه إليها بالنقد في جميع أبعادها من أجل تخليصها مما يشينها والارتقاء بمستواها لما تمثله من مظهر حضاري راق، وتسهم فيه من تقدم وإبداع.

عادل زعيتر مترجما:

ومن أعيان الترجمة في هذا العصر عادل زعيتر، وهو يحتل مكانا رفيعا بين المترجمين، ويمتاز أداؤه عن غيره بعدد كبير من الصفات الحميدة، ونستعرض في ما يأتي جملة ما أسهم في تكوين كفاءته ومكنته، وما ارتقى به وبعمله هذه المكانة العالية.

أولا: علو همته وإصراره وذكائه.

فقد عرف عنه أنه كان يأخذ نفسه بالعزيمة منذ صغره، وكان متفوقا في دروسه «فلقد كان دوما من الأوائل في دراسته وفي إتقانه لما يتعلم من علوم أو لغات، أو ما يقوم به من عمل وجهد» (الكيلاني ص 3) وفي عام 1946 وقد اشرف على الخمسين من عمره، أحس بانقضاء أكثر العمر، ومن يدري ما تبقى منه؟ فقرر اعتزال المحاماة والاعتكاف كليا في صومعته مكرسا وقته وجهده وحياته وماله للترجمة، وحين

أقول وقته وجهده فلقد كان ذا طاقة جبارة يعمل في مكتبه بين القراءة والكتابة والتنقيب عن الكلمات والمعاني بمعدل اثنتي عشرة ساعة يوميا يكاد خلالها لا يأكل ولا يشرب ولا يقابل أحدا» (الكيلاني 3) وفي هذا ما يشير إلى أنه كان طوال عمره على وتيرة واحدة من الجدية والاجتهاد. ويعبر صديقه محمد علي الطاهر عن هذه الروح التي امتاز بها عادل فيقول: «إن عادل حين تبتل للعلم كان قد عزف عن مباحج الدنيا وعن السياسة منذ رأى الدجاجة يظهر، وأهل الغوغائية يبرزون، وأهل الحمى يهملون، فتقرزت نفسه من سوء ما رأى، ونأى بخلقه القويم عما يتهافت عليه أبناء جيله... لذلك انصرف عادل عن المحاماة وكان من أعلامها، ونذر نفسه للقيام بمهمة تنوير العقول والارتفاع بالأفهام، فكان عادل بهذه المثابة سراجا لأمتة ومنارا لقومه، وسوف يعجز كل من يأتي بعده، وسيحير الذين يتصدون بعده للترجمة ونقل علوم الغير من لغة إلى لغة، وما مات عادل ولحق بالرفيق الأعلى إلا بعد أن قام بما تعجز المجامع العلمية عن القيام به، وناب عن الجامعات في تقريب العلم إلى الناس، بل قام وحده بما لم تستطع الحكومات أن تقوم به» الطاهر 345، 346.

وفي هذا المعنى يقول محمود الأرنؤوط (23، 24) «واستطاع أن يتحول بدأه وجهده وصبره وكفاحه إلى علم من أعلام الأمة الخالدين وإن ما استطاع أن يقدمه إلى قراء العربية من نفائس الأعمال العلمية الرصينة لجمهرة من عمالقة الثقافة في فرنسا في العصر الحديث، بلغة راقية، وأسلوب عالي المستوى، ليشهد له بالعبقريّة والنبوغ».

فهذه شهادات توضح ما كان عليه زعيتر من الإصرار والعزيمة وبعد الهمة، مما أتاح له ما لم يتح لغيره فكان في عصاميته واعتداده نسيج وحده.

ثانيا: تبحره في الثقافة الأجنبية

امتاز عادل زعيتر بسعة اطلاعه وإقباله على المعرفة بنهم شديد، فبعد احتلال الفرنسيين لدمشق غادرها إلى باريس ليدرس القانون، «وهناك تشرب الثقافة الفرنسية، وقرأ أعمال المفكرين السياسيين الفرنسيين قراءة مستفيضة» أبو غزالة 43 وقد مكّنه من ذلك إتقانه للفرنسية والإنجليزية والتركية، مما أتاح له فرصة الاطلاع على آداب الشعوب الناطقة بها الإحاطة بعلومها وإنجازاتها.

«إن الثقافة العالية الرفيعة التي وصل إليها عادل زعيتر بجده وسهره ونشأته في المحيط الوطني المجاهد الذي عاش فيه، مع تمكّنه من نواحي اللغات العربية والتركية والفرنسية والإنجليزية جعلته يملك زمام موضوعه بهذه الأدوات العلمية التي قل أن يظفر بها أحد من المعاصرين» الطاهر ص 345 ومما يشهد بهذه الحقيقة ذلك المستوى الرفيع من الأداء الترجمي، وذلك التنوع في موضوعات الكتب المترجمة على الرغم من أنه يعد في مجلة المتخصصين على نحو ما سنورده لاحقا.

ثالثا: البعد القومي

لم يكن عادل زعيتر ينطلق من فراغ، ولم يقم بما أنجزه دون حافز، بل انه لم يندفع إلى عمله استجابة لمآرب خاصة، بل كان حاديه في كل ما فعل هو ما كان عليه وضع الأمة من سوء، وتكالب القوى الاستعمارية عليها، وتردي أحوالها، وتخلفها الثقافي، بعبارة أخرى، لقد كان عمله ميسسا يهدف به إلى رفع شأن الأمة، ولذلك راح يترجم للأعمال التي أثرت عميقا في المجتمع الأوروبي عموما، والفرنسي خصوصا، أملا في أن تحدث تلك الأعمال في شعبه ما أحدثته في الغرب.

«إن الرسالة التي اختارها من أبواب الفكر والفلسفة، وليست من نوع تجاري ليملاً جيبه من ورائها في روايات وأقاصيص أو ما سهل علاجه من الترجمات، بل تعلق بغرض هو أسمى ما تتناول إليه عقول نقله الأفكار من كل حضارة.. ولكنه حدد رسالته وعينها، ووثق من حاجة أمته إليها، وأمن من نفسه الكفاية العلمية لأداء هذا الغرض على أتم وجه وأفعه وأبدعه. فكان في اختياره كتاباً للترجمة يُعنى بأن يكون مما تحتاج إليه الأمة العربية، وإلا يكون له نظير في لغتها...» الأرنأؤوط 28، 29 انه بذلك يستحق أن يوصف بأنه كان قِيماً على الأمة يرعاها بما أوتي من جهد، ويسهر على مصالحها أملاً في إصلاح ما يمكن إصلاحه من شأنها.

ويتضح البعد القومي في سيرته بحرصه على ترجمة بعض الكتب التي كان «يعتقد بوجود نقلها إلى العربية، وكان يرجو أن تتيح له الأقدار عمراً يستطيع فيه أن يتولى هو هذا النقل ككتاب سير الأبطال لبلوتارك.. الذي كان يعجب به كل الإعجاب، ويرى أن ترجمته ضرورية، ويتحسر ألا يقرأ العرب هذا لكتاب لخالد.. (الأرنأؤوط ص 35) وشبهه بذلك ما ورد في مقدمة ترجمته لكتاب بسمارك من قوله (ص 3) «نقدم هذا الكتاب إلى الأمة العربية في وقت هي في أشد الاحتياج إلى مثله، فلعل العرب يبصرون من مطالعته كيف تقام الجامعات، وكيف توحد الشعوب والدول على أسس صحيحة..»

وكان عادل زعيتر حريصاً أشد الحرص على ترجمة الكتب التي انصف مؤلفوها الأمة الإسلامية وعلماءها، على طريق بعث أمجاد الأمة، وبيان فضلها بشهادة الأجانب، فقد جاء في مقدمة ترجمته لكتاب حضارة العرب لمؤلفه جوستاف لوبون (ص 7) «أكون قد أدخلت كتب لوبون المهمة الأخذ بعضها برقاب بعض إلى العربية إدخالاً يخيل إلى الباحث معه أن هذا الحكيم الجليل من العرب، ولا عجب، فلوبون واضح سفر «حضارة العرب» وأكثر من ذلك، فقد كان عادل زعيتر «يعني بالرد على كل خطأ يقع فيه المؤلف خاصة إذا اتصل بتاريخنا» الجندي - تطور الترجمة ص 77 والنثر العربي ص 568.

لقد آمن عادل زعيتر بأن تحرر الأمة رهين بقيادة سليمة، وبتنظيم دقيق لحركة وطنية بين العرب، «فقرر أن يضع تحت تصرف الزعماء الوطنيين الفلسطينيين خلاصة الأفكار الأوروبية في القومية، ولذلك فقد خصص جل وقته للترجمة، ولكونه متشرباً الثقافة الفرنسية ومؤمناً بان فكرة القومية الحديثة نشأت في فرنسا، فقد ترجم للكتاب الفرنسيين المشهورين بشكل خاص» أبو غزالة ص 44. وقد عبر أبو غزالة عن هذا التوجه لدى عادل زعيتر في موضع آخر من كتابه «الثقافة القومية في فلسطين» بقوله «ولا يزال هناك مظهر آخر للنهضة الأدبية في فلسطين تحت حكم الانتداب، هو ترجمة المؤلفات الغربية من الإنجليزية والفرنسية غالباً، وتعكس هذه المترجمات الوعي الوطني لدى المترجمين، لقد حاول بعض هؤلاء الرجال، مثل عادل زعيتر، أن يعرفوا أبناء بلدهم (وأمتهم) على الفكر السياسي في الغربي في الحكم الشعبي وأفكار أخرى حول الحكومة» (ص 92).

أجل، لقد كانت الترجمة عينا أخرى على الغرب، وكانت أعمال عادل زعيتر أجلاً ما وقعت عليه تلك العين، وما نرى إميل توما إلا قاصداً أعمال عادل زعيتر في مقالاته «مدخل البحث في الثقافة العربية» (الجديد ص 6) حيث قوله «كما أن هذه الثقافة لم تتفوق في التراث القديم على الرغم من ظهور دعاة إلى ذلك، بل أثرت الانفتاح على الثقافة الأوروبية، واستوعبت مبادئ الثورة الفرنسية وأقبلت على نتائج الأدباء والمفكرين وبخاصة الفرنسيين والروس».

ولم يكن عادل زعيتر يرى فصلاً بين الدين والقومية، بل كان في توجهه القومي مسلماً شديداً التمسك بتعاليم دينه والمبادئ التي يقوم عليها. ويتضح ذلك في كثير من مواقفه وملاحم سيرته، ومن ذلك ما

واجهه في ترجمة ابن الانسان السيد المسيح عليه السلام، من تردد طويل تَوَجَّه بقوله : إنني كمسلم لا أوافق المؤلف على ما ذهب إليه في أمر السيد المسيح» الجندي - المحافظة والتجديد ص 571.

رابعاً: الدقة

تتصف مترجمات عادل زعيتر بدقة بالغة، وكان يذهب بعيداً في ترجمته فيغير على المفردات الرصينة، وقد لا نعجب من ذلك، إذ عاش زعيتر في فترة شهدت توجهها عاماً نحو إحياء التراث واللغة بوجه خاص. وتظهر دقته في انتقاء مفرداته، واختيار معانيه، وضبطه الألفاظ بالشكل، وشرح غامضها، وتنوير النص بما يجلو مبهمه، ويفسر غريبه، ناهيك عن تأنقه في كل عمله. ويتضح هذا المنهج في سيرته وعمله في قول محمد الحلبي صاحب دار إحياء الكتب العربية في القاهرة في حينه «إنني أدير مطبعتنا منذ اثنين وثلاثين عاماً، وقد تعاملنا في أثناء ذلك مع عدد كبير جداً من المؤلفين والمترجمين والمحققين من مصر وسائر البلاد العربية والإسلامية، فلم أجد أدق من الاستاذ عادل زعيتر في عنايته بتصحيح كتبه وسهره عليها وحرصه على إتقانها» الأرنأؤوط ص 30 هـ 1.

ويتفق مع الدقة فهم النص والتعمق في ذلك بسبر غوره، والنفاد على روح الكاتب، ومما أثر عن عادل زعيتر قوله بهذا الصدد «إن مهمة المترجم ليست نقل العبارة الأجنبية إلى العربية، بل إن هناك ما هو أهم وأعظم من هذا بمراحل كثيرة، وهو أن ينفذ المترجم إلى روح الكاتب، وأن يفهم شخصية المؤلف تمام الفهم» خورشيد ص 57.

ولأن ينفذ المترجم إلى روح الكاتب يقتضي ألا تكون الترجمة حرفية، ذلك لما بين اللغات من تفاوت في مناهج التعبير وطرق النظم، ولكن عادل زعيتر «كان يلتزم بحرفية النص مع التصرف في حدود الخبر بعد قراءة كل المراجع التي تتصل بالكتاب الذي يترجمه» الجندي - تطور 77، حتى لكنها وضعت أصلاً بالعربية «والمترجم البارع هو من ينقل الكتاب إلى لغته وكأنه هو المؤلف» الجندي - تطور 79.

وكان من تمام الدقة في أعماله انه لم يكن يركن في تدقيق مسوداتها وتجارب طبعها إلى أي أحد كان، وإنما كان يقوم بذلك بنفسه، يقول صديقه محمد علي الطاهر (ص 348) في هذا الصدد «وان سألني سائل أين المال الذي قبضه عادل من دور الطبع والنشر مقابل ترجمته تلك المكتبة التي قدمها لأمته، فأني مخبر السائل بأن عادلاً كان يدفع قيمة أتعابه إلى شركات الطيران وفنادق القاهرة حين كان يأتيها ويقيم فيها ثلاثة أشهر في كل عام لتصحيح (بروفات) هذه الكتب.. لأن إتقان مترجماته لا يتم في نظره إلا إذا طبعت صحيحة، وأن تطبع أتقن وأجمل طبع».

ولا شك في أن ذلك كله قد اضطره إلى بذل جهود مضيئة، وكبدته مشقات جساماً، لأن الترجمة المحكمة إبداع وأمانة، ناهيك عما كان يقتضيه حرصه على العربية وبعث ألفاظها مع مراعاة موافقتها للذوق والسلاسة، وعماً كان يتجشمه جراء ذلك من نفقات إذ يقول «لم تتوخ الربح المادي، وكانت وجهتنا خالصة لوجه الثقافة والأدب وخدمة العرب مع ما كابدنا من جهود عنيفة مضاعفة في سبك عبارتها وجعلها بعيدة عن العجمة والألفاظ الحوشية ومع ما زهدنا عنه في أثنائها من كسب مناله من مهنة المحاماة وغيرها» الجندي - المحافظة والتجديد ص 568. وكان يتصل بأصدقائه وغيرهم يستشيرهم ويتحرى بعض المعلومات، فكان بذلك لا يخرج بترجمته على الناس إلا قد أوسعها تمحيصاً، وأشبعها مراجعة وتدقيقاً - راجع جبر - عادل زعيتر وفن الترجمة).

خامساً: التخصص

يعد التخصص سمة العصر الحديث، وهو مفض إلى الدقة والإتقان لا محالة، ذلك بما يتيح للمترجم من تمكن في سبر غور الموضوع. وقد كان عادل زعيتر متخصصاً إلى حد كبير في مترجماته، فقد ترجم عن الفرنسية، وفي مجالات متداخلة متناصية في موضوعاتها. يقول حسام الخطيب (ص 71، 116) «...سجلت الفرنسية وجوداً خاصاً عن طريق عادل زعيتر الذي أغنى المكتبة العربية بترجمات من عباقرة المؤلفين الفرنسيين وإذا كانت الترجمات العلمية والوظيفية قد سجلت طغياناً فائقاً للغة الإنجليزية فإن الترجمات الفكرية والأدبية ظلت تنجح باتجاه اللغتين الروسية والفرنسية»، ويقول في موضع آخر (ص 83، 139، 140) «ولا بد من ختام هذا البند حول ظاهرة التخصص الإيجابية (في الترجمة) من التذكير بأن لهذه الظاهرة جذوراً في تاريخ الترجمة الفلسطينية بدأها المترجم الفلسطيني الأول خليل بيدس وتابعها بجدية مثيرة للإعجاب عدد من رجال الرعيل الأول أبرزهم عادل زعيتر (في مجال التاريخ والسياسة والمجتمع) ونجاتي صدقي (في المجال الأدبي)».

وكان لسعة ثقافته لا يترجم وحسب، وإنما كان يبدي رأيه مؤيداً أو معارضاً بين حين وآخر، فجاءت مترجماته حافلة بأرائه النقدية وتعليقاته وتصويباته. «إن المتتبع للآثار التي خلفها الاستاذ عادل زعيتر في حقل الترجمة يجد له فيها دوراً لا يقل أهمية عن دور الترجمة، ألا وهو دور الناقد النافذ البصيرة، حيث يتصدى للجوانب التي جانب الصواب فيها المؤلف، ناقداً، معلقاً، معيداً الكاتب والكتاب والقارئ إلى الرأي القوي السديد» (الأرناؤوط ص 36).

سادساً: الكثرة

يمتاز عادل زعيتر عن غيره من المترجمين بكثرة ما ترجمه من الكتب، ولا نعرف من ترجم أكثر مما ترجم عادل سوى خيرى حماد، إذ بلغت عدة مترجماته نحواً من مائة كتاب (الخطيب ص 71)، غير أن في ضخامة الكتب التي ترجمها زعيتر ما يرقى بجهوده إلى مرتبة عالية، إذ يقع كثير من كتبه في عدة مجلدات.

وبلغ من حرصه على الإكثار أنه قال مرة لأخيه أكرم «حين يبلغ ارتفاع كتبي مرصوفة بعضها إلى بعض طول قامتي ينتهي أجلي» فأجابهُ الأستاذ أكرم «على أن تطبع على ورق رقيق رقة ورق السجارة، فسرهِ الجواب» الأرناؤوط ص 35، لقد بلغت كتبه ومحبراته أضعاف طولها، وكان مع كثرة إنتاجه مجيداً أيما إجادة.

وأخيراً، لقد كان عادل زعيتر ظاهرة نادرة، وعلامة بارزة على طريق التحضر العربي المعاصر، عمل في مجالات مختلفة، في المحاماة والسياسة والترجمة، ولم يكن في فكره مقلداً، بل كان مبدعاً مجدداً وقد وجد في الفكر الغربي المعاصر، لاسيما أعمال جان جاك روسو وفولتير ما رسّخ لديه هو وجيله الأفكار القومية والثورة الاجتماعية والتحرر، مما أدى إلى تكوّن تيار فكري جديد يقوم على أساس من الرابطة القومية، ولعل هذه الحقيقة هي التي جعلت شتفان فلد (ص 388) يقول في عادل زعيتر وترجماته «أنه مع روسو وفولتير يكون قد اختار خصمين رئيسيين لجمال الدين الأفغاني».

وما نظن عادلاً أن يرى فرقاً كبيراً بين الرابطتين الشرقية الإسلامية والقومية العربية، وما نظنه عمداً إلى ترجمة أعمال فولتير وجان جاك روسو انطلاقاً من عداً لجمال الدين الأفغاني وطروحاته الفكرية، أو لفكرة الرابطة الإسلامية، فقد كان «يعجبه التدين في المرء من غير تعصب، وكان محباً للاطلاع على الفقه

الإسلامي، ويقرأ القرآن مرة كل عام قراءة تدبر وتفهم، ويقارن بين مختلف التفاسير والسبر، وإذا عرضت قضية شرعية كان عادل الحجة التي لا تنازع، وهو إلى تقواه وأدائه للفروض الدينية أداء كاملاً، كان نير الفكر إصلاحياً النزعة، وكان معجباً بالشيخ محمد عبده، وبسعة اطلاع الشيخ محمد رشيد رضا...» الأرناؤوط ص 34.

باختصار، إن عادل زعيتر يمثل بجهوده وتطلعاته مرحلة متميزة من مراحل التحضر العربي في العصر الحديث، ويضاهي في أعماله وآثارها ما أحدثته الترجمة عن اليونانية واللاتينية في العصر العباسي، وما أحدثته حركة الترجمة عن العربية إلى اللغات الأوروبية في الحقبة الاندلسية من أثر في التحضر الأوروبي في العصور الوسطى مما ترك بعض ظلاله على العصر الحديث، هذا العصر الذي نقل أوروبا وامتداداتها الحضارية نقلة جبارة في المجالات العلمية والاجتماعية والتقنية، ولما كانت حال الأمة الإسلامية على ما هي عليه من التخلف، فقد رأى عادل زعيتر في الفكر الذي أحدث في الغرب تلك الثورة الاجتماعية وذلك التقدم العلمي، رأى فيه فكراً صالحاً لأن يحدث في أمته ما يفجر كوامنها، ويعجل مسلسل التفاعلات الاجتماعية المفضي إلى تبدل الحال إلى ما هو أفضل، ولذلك فقد بادر إلى نقل أمهات الكتب الفرنسية عن قصد وإصرار، هادفاً إلى تنوير العقل العربي ورفد المكتبة العربية بما يثريها، وقد فعل ذلك كله منطلقاً من علم جم، ودراية باللغات واسعة. فاستحق بذلك أن يتبوأ مكانة خاصة يمتاز بها عن سائر مترجمي العصر نظراً للدوافع السامية التي كانت تحركه، وللمواصفات الرفيعة التي اتصفت بها أعماله.

المراجع

1. الثقافة المصرية العدد الصادر في 2/3/1948.
2. زهرات الياسمين، محمود الأرناؤوط. مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى. الكويت 1409 / 1988.
3. حركة الترجمة لدى أبناء فلسطين. حسام الخطيب، المجلة الثقافية (المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، عدد أيلول سبتمبر 1986).
4. حركة الترجمة الفلسطينية. حسام الخطيب. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. بيروت. الطبعة الأولى سنة 1995.
5. الثقافة القومية في فلسطين، عدنان أبو غزالة، ترجمة حسني محمود، دار الأسوار، عكا، د.ت.
6. الأستاذ الكبير عادل زعيتر، شوكة زيد الكيلاني. كلمة في ذكره.
7. الترجمة. إبراهيم زكي خورشيد، مجلة الفيصل، الرياض، عدد تشرين الثاني، نوفمبر 1984.
8. تطور الترجمة، أنور الجندي. مطبعة الرسالة بمصر 1963.
9. خسمون عاماً في القضايا العربية، محمد علي الطاهر، مؤسسة دار الريحاني، بيروت 1974.
10. المحافظة والتجديد في النثر العربي المعاصر في مائة عام. أنور الجندي، مكتبة الأنجلو المصرية 1961.
11. Wild, Stefan. Islamic Enlightenment and the Paradox of aver roes, Die welt Des Islam. Band xxx vl, 3. 1996.

محمد عزة دروزة

أ.د. يحيى جبر

أ. أريج دروزة

محمد عزة دروزة

على ضريح الفقيد

هنا استيقظ الجيل العظيم شرارة
وأشرق فجر الضاد في العتات
يقا تل بالحرف المضيء رسالة
ويكتب... فالتاريخ جبر دواة
وأعطى... فكانت أروع الصفحات

«أصبحت كالأثار يسعى إليها كل من شاقته الذكرى إلى صفحة حية من تاريخ القضية الفلسطينية والعربية»

مقدمة

يسرنا أن نقدم هذا الكتاب تعريفاً بشخصية فذة، وما كان عملنا هذا ليزيد صاحبها تعريفاً لولا الظروف التي حملته بعيداً عن مسقط رأسه، وما نظنه استجاب لتلك الظروف حباً في الاغتراب، ولا ضيقاً بالإقامة في نابلس، ولكن نظرة الرجل للوطن ومفهومه له، وحقيقة أمره في أوائل القرن الماضي كانت تسهل عليه التنقل بين أمصاره، ويرى في كل منها وطنه، وحاله كانت كحال أبي تمام إذ قال:

بالشام أهلي، وبغداد الهوى وأنا بالرقين وبالفسطاط إخواني

وما نرى ذلك إلا نتيجة للحياة المديدة التي عاشها محمد عزة، وللظروف التي أسهمت في صياغتها وتوجيهها، وللدور المميز الذي نهض به في خدمة أمته وأسرته، كما أن في تفرق آل دروزة في هذه الأمصار دليلاً على ما أسلفنا، فبعضهم أقام في العراق، وآخرون اتخذوا من الشام وطناً، كما أن منهم من أقام في الأردن.

وعاش محمد عزة نحواً من قرن حافل بالمتغيرات والأحداث، لم يشهد أحداثه وحسب، بل أسهم فيها، وكان له دور بارز في صنعها، سواء أتمثل ذلك في نشاطاته السياسية والعملية أم في فكره الرصين الذي بثه في مؤلفاته الكثيرة، والتي تركت أثارها واضحة، جليلة، فاعلة في رواد الحركة القومية وقادة حركات التحرر العربي والوحدة العربية.

وكان أول اتصالي به حين اطلعت على جزء من كتابه «تاريخ الجنس العربي» في مكتبة بلدية غات (ليبيا) عندما كنت أبحث عن علاقة بين البربرية والعربية، فوجدت فيه بعض حاجتي، ومنذ ذلك الحين، وبعد أن اطلعت على مزيد من كتبه، فإني أجدني مديناً له ببعض فكري، لاسيما ما اتصل من ذلك بالعلاقة بين العروبة والإسلام. وقد كنت أجهل أن محمد عزة فلسطيني من أبناء جلدتي، ونابلسي من أبناء محافظتي، ومن يدري، فلعله كان يصر على أنه مسلم عربي أولاً، كسلفه عادل زعيتر، وهذا ما نشأ عليه هو وأهل زمانه، وهو ما تفوح به مصنفاته، وذلك قبل أن ينجح سايكس وبيكو في تقسيم الفطيرة.

مدخل نسبه ونشأته

هو « محمد عزة » بن عبد الهادي بن درويش بن إبراهيم بن حسن دروزة، وقد ورد في إحدى مذكرات محمد عزة أنه سمع جده يردّ اسم العائلة إلى مهنة الدرازة بمعنى الخياطة (هذا صحيح، وبمثله يخرج اسم الدروز الفرقة الإسلامية المعروفة، وهي فارسية الأصل، بناءً مكان الدال، وهي لهذه الدلالة شائعة في مصر (ترزي) ومنها في بلادنا الاسم (طرزي) بإطباق التاء. ي.ج.) ولعلّ هذه النسبة صحيحة لاشتغال الجد الأعلى للأسرة بهذه المهنة. ويعود أصل الأسرة إلى عشيرة الفريحات، وكان خروجها من بلدة كفرنجة التي تقع إلى الجنوب من مدينة عجلون شرقي الأردن، وذلك في أوائل القرن الهجري الحادي عشر. وتعد عشيرة الفريحات في أكبر عشائر جبل عجلون، وهم من أعقاب قبيلة الهيب من عرب الجبور من القحطانية.

وقد عاش أبو زهير -رحمه الله- حياة حافلة بالمتغيرات، ولعلّ مما زاد ذلك بعداً مؤثراً هو امتداد العمر به إلى نحو من قرن، فعاصر الأتراك والإنجليز والحكم العربي، في كل من فلسطين ودمشق وغيرها من بلاد الشام، وتنقل في الوظائف والبلدان مما أثرى تجربته، وعمّقها على نحو لم نشهده إلا عند نفر قليل من أبناء جلدته.

وجاء في حجة شرعية مؤرخة سنة 1170هـ أن أحد أجداد أسرته لقب بفخر التجار خضر بك دروزة، وقد كان جده الأدنى ووالده يتعاطيان تجارة الأقمشة في محلهم بخان التجار.

وعائلة دروزة من الأسر الكثيرة العدد، التي زاولت مهن التجارة والخياطة والعقادة وسواها من الأعمال الوظيفية والحرّة، وفي حين كان عدد أفرادها 120 شخصاً منذ سبعين سنة، فإن عددهم اليوم ينوف عن 650 شخصاً ثلثهم في نابلس، وثلثهم الثاني في عمان ومعظم الثلث الثالث في دمشق، ومنهم أفراد في بغداد وبيروت والكويت والسعودية، ولهم في نابلس ديوان يجمع شملهم وكل من يُعرف من أبناء هذه العشيرة فهو من أعقاب إبراهيم بن حسن وأخيه خليل بن حسن.

وكان محمد عزة قد تزوج من إحدى قريباته؛ السيدة فاطمة بنت قاسم دروزة، وأنجبت منه أولاده زهيراً ونجاحاً وسلمى وردينة، وتوفيت في دمشق حيث كانوا يقيمون، ثم تزوج من السيدة فاطمة التميمية، ولم يُرزق منها بولد.

ويبدو أن الرجل لم يكن سعيداً بما جرت عليه عادة الناس آنذاك من التزام العريس والعروس برأي والديهما فيمن يختارانه لهما من قرين. قال «إن الزواج كثيراً ما يكون من الأقارب حيث لم يكن للصبان ولا للبنات شأن في إبداء رأيهم في الزواج» وفي هذه العبارة ما يوضح أن الزواج آنذاك -كما هي الحال في بعض القرى اليوم- كان يتم في سن مبكرة.

وقد نشأ عزة في بيئة متوسطة الحال، يغلب عليها طابع التدين، ويتضح ذلك في نشأته، وفي تسميته محمد عزة، وتسمية أخيه محمد علي حرصاً من والدهما على تشریفهما باسم «محمد صلى الله عليه وآله وسلم»

وكان والده يصطحبه للمجالس التي كان يحضرها سواء في الدواوين أو في المحافل الأخرى، وفي الديوان كانوا يقيمون الصلاة ثم يجلسون لتلاوة القرآن، ثم لشرح بعض الأحكام الشرعية، إضافة إلى

ثم كان أن بادرت إلى إصدار الموسوعة التربوية الفلسطينية، ومن حسن الطالع أن كان بين طلابي طالبة من آل ذلك الرجل-أريج، فطلبت منها أن تعد مادة لهذا الكتاب، واجتهدت ما وسعها الجهد، وبقدر ما أسعفتها به المكتبات المحلية، وقليل ما هو، لا سيما أن كثيراً من مؤلفاته مفقود أو محظور تداوله في بلاد العرب، وبدأت في تحرير ما أعدته لطباعته، وذلك قبل نحو ستة أشهر، وذكرت لي ابن محمد عزة، السيد أبا عزت، زهيراً، فتوجهت إليه في عمان، فزودني من المعلومات بما جعلنا نعيد النظر فيما أعدناه من قبل.

ولما كان هدفنا في هذه الموسوعة هو أن نعرّف بالأعلام، وكانت حياة صاحبنا حافلة بالنشاطات والإنجازات - فقد رأينا أن نقصر الكتاب على ما يعرّف به وحياته ومؤلفاته، وما قيل فيه، أسوة بغيره ممن قدمنا، شاكرين للسيد زهير محمد عزة تفضله بتزويدنا بكثير من مادة هذا الكتيب الذي نعرّف أنه ليس لنا فيه من فضل أكثر من تجميع مادته وترتيبها وإخراجها.

وجدير بالذكر أن الرجل قد كرم في غير قطر، وأجريت حوله وحول مؤلفاته دراسات كثيرة، ستعرفها عزيزنا القارئ أثناء مطالعتك صفحات هذا الكتاب.

ومهما تكن من حال، فإن هذا العمل يقصر دون الوفاء بحق الرجل، وما زالت مؤلفاته تمثل ميداناً فسيحاً لإجراء الأبحاث والدراسات، نظراً لكثرتها وتنوع مادتها واختلاف موضوعاتها. ونأمل أن يصار إلى تكريمه في بلده، فكم خدمها، ورفع اسمها عالياً في المحافل هنا وهناك، رحمه الله رحمة واسعة، ونفع الناس بعلمه، وبالله التوفيق.

٢٠ ذي الحجة ١٤١٤هـ

الاثنين ٣٠ أيار ١٩٩٤م

أ.د. يحيى جبر

إنشاد قصيدة البوصيري «أمن تذكر جيران بذي سلم...» باعتبارها نشيداً دينياً.

وكان التعليم في إبّانه يركز على القرآن الكريم، ويجعله مركز دائرة المعارف التي ينبغي أن يتزود بها الفرد والمجتمع. فإذا ما ختم الدارس القرآن تخرّج في مدرسته وهو يحمل شهادة «ختم القرآن». ويشتهر عن محمد عزّة أنه كان منتسباً إلى الطريقة النقشبندية من طرق الصوفية، وهي حلقة ذكر تتلى فيها «الصمدية» سورة الاخلاص «قل هو الله أحد...» مائة ألف مرة، فكان الموظفون على الحلقات يقرأونها ويحسون عددها، حتى اذا بلغت مائة ألف مرة أخبروا شيخ الحلقة، فيأتي وينعم على من أكملها بلقب «عتيق من النار».

وتلقّى محمد عزّة دروسه الابتدائية في مدرسة محمد زعيتر حيث تعلم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب والقرآن الكريم وعلم التجويد، أما علوم التاريخ والجغرافية والأشياء (الفيزياء والكيمياء) فلم تجد سبيلها إلى المدرسة إلا في وقت لاحق، ومن مشاهير أساتذته نذكر:

الشيخ عبد العظيم أغا طوقان، معلم القرآن والتجويد.

الشيخ عارف أبو غزالة.

الشيخ محمد تفاعحة.

الشيخ عبدالله الخاروف.

الشيخ محمد زعيتر مدير المدرسة.

الشيخ إبراهيم الدرويش صاحب أحد الكتاتيب المشهورة بنابلس آنذاك «المدرسة الدرويشية».

حياة محمد عزّة دروزة بقلمه

ولد الأستاذ محمد عزّة دروزة ليلة السبت الموافق للحادي عشر من شهر شوال سنة 1305هـ وهذا يتوافق مع آخر شهر حزيران من سنة 1887م، في مدينة نابلس من فلسطين.

وقد درس في مدارس الحكومة الابتدائية والرشدية والإعدادية في نابلس وتخرج من الأخيرة سنة 1321هـ/1906م وبعد ذلك جرت حياته في ثلاثة مجار متوازية، الوظيفة والعمل السياسي الوطني والنشاط العلمي.

ففي المجرى الأول من سنة 1907-1918م عمل في دائرة البرق والبريد العثمانية متنقلاً في وظائف عديدة مأموراً فمديراً فمفتشاً فسكرتيراً لديوان المديرية العامة في بيروت، وبعد انتهاء حكم الدولة العثمانية قضى فترة قصيرة كاتباً في ديوان الأمير عبد الله في عمان (سنة 1920) ثم رئيساً لمدرسة النجاح الوطنية الابتدائية الثانوية (1922-1927) فمأموراً للأوقاف الإسلامية والمجلس الإسلامي الأعلى الذي كان تحت إشرافه بسبب الثورة العربية التي اندلعت ضدهم في سنة 1936 واستمرت إلى أواخر سنة 1939، فأقالوه ولم يعد بعد ذلك موظفاً.

وفي المجرى الثاني كان بحكم وظيفته يقرأ أحياناً جرائد المؤيد، والأهرام، والمقطم، التي كانت تتسرب إلى نابلس بالبريد قبل إعلان الدستور العثماني سنة 1908م فاندمج في حركته وآثاره لأنه كان مستوعباً

لمداه بعض الشيء، وقد انتسب في أول الأمر إلى نادي الاتحاد والترقي في نابلس الذي كان محور النشاط السياسي آنذاك أسوة بأمثاله في جميع المدن وفي العاصمة. ولكنه سرعان ما تبين له أن جماعة الاتحاد والترقي يترسمون خطة الاستعلاء العنصري التركي وإبقاء العرب أقل درجة منهم في الدولة. فانفصل عن النادي وأسس هو وبعض رجال نابلس فرعاً لحزب الائتلاف الذي أسس ليكون معارضاً للاتحاد والترقي وكان سكرتيراً له؛ ثم أسس هو وبعض رجال نابلس سنة (1911) الجمعية العلمية لتنشط في مجال إنشاء مدارس عربية التعليم؛ لأن المدارس الحكومية كانت تركية التعليم، حتى لقد كانت اللغة العربية تعلم في البلاد العربية ولأبناء الأمة العربية باللغة التركية... وفي سنة 1914 أنشأ مع رفاق له فرعاً لحزب اللامركزية، الذي يتيح للبلاد العربية أن تتمتع بشيء من الاستقلال المحلي. وفي سنة (1916) انتسب إلى الجمعية العربية الفتاة السرية، التي كانت تترسم العمل على استقلال البلاد العربية وحريتها. وكان يلتقي في أثناء تجواله الذي كان يقوم به بسبب وظيفته التفتيشية ببعض رفاقه السريين في الجمعية هنا وهناك، ويتداولون فيما يجب أن يعملوه لتحقيق الهدف.

وفي هذه الأثناء انفجرت الثورة العربية في الحجاز، ثم كانت حركة بقيادة فيصل للجبهة الشمالية الشامية، فتهياً مع المرحوم الدكتور أحمد قدرى للالتحاق بها، ولكن الظروف حالت دون ذلك.

وحالما جلت الدولة العثمانية عن فلسطين غادر بيروت، التي كان مستقراً فيها، إلى نابلس، حيث كان أمر وعد بلفور والنضال ضده وضد الاستعمار الإنجليزي ملزماً، وفي نابلس أسس مع رجالها البارزين الجمعية الإسلامية المسيحية (1918) وكان سكرتيراً لها وممثلها، مع بعض رفاقه، في أول مؤتمر عربي فلسطيني انعقد في القدس، في أوائل سنة 1919، وكان له نشاط بارز في إدارة المؤتمر وفي قراراته وفي وضع الشعار الوطني الذي صار شعار فلسطين، وهو (فلسطين هي سورية الجنوبية، وجزء غير منفصل عن سورية، ويجب أن تكون مستقلة وجزءاً من الوحدة العربية الكبرى. ورفض وعد بلفور والهجرة اليهودية ورفض الانتداب الإنجليزي لفلسطين).

وقد انتدبه المؤتمر ليذهب إلى سورية، ويعرض الشعار على الحكم الفيصلي فيها، وقد منعه السلطات الإنجليزية من السفر. وفي هذه الأثناء قدمت لجنة الاستفتاء الأمريكية إلى فلسطين (أواسط سنة 1919) فنشط ورفاقه في الجمعية لجعل ذلك الشعار هو مطلب عرب فلسطين أمامها، واستطاعوا أن ينجحوا في ذلك. وفي هذه الأثناء قرر الحكم الفيصلي الدعوة إلى مؤتمر سوري عام ليقدم بطلب سورية للجنة للجنة الاستفتاء، فانتدب مع بعض الرفاق لتمثيل نابلس في المؤتمر، وقد اختير سكرتيراً للمؤتمر، واشترك في صياغة قراره الذي قدم للجنة الاستفتاء.

وكان أحد أعضاء اللجنة التي اختارها المؤتمر لمقابلة لجنة الاستفتاء، وشرح مطلب البلاد، وانقلب المؤتمر لمقابلة لجنة الاستفتاء، وشرح مطلب البلاد، وانقلب المؤتمر إلى مجلس تأسيسي، وانتخب لجنة لوضع مشروع الدستور السوري برئاسة المرحوم هاشم الآتاسي، وكان هو سكرتيراً للجنة ثم مقررًا للدستور.

وفي الأيام الأولى لوصوله إلى دمشق التقى برفاقه أعضاء الجمعية العربية الفتاة الذين كانوا تجمعوا في دمشق، وأخذوا ينشطون في سبيل تدعيم الحكم العربي والوصول به إلى الغاية المنشودة.

وكان للجمعية ولهيتها المركزية نفوذ ونشاط قويان في الحكم الفيصلي. وظلت تحتفظ بطابعها السري، لذا فقد قررت إنشاء واجهة علنية لها ينضم إليها كثير من شباب ورجال العرب، فأنشأت حزب الاستقلال العربي في أواخر سنة 1919م، وكان هو عضواً مؤسساً له، وفي هذه الأثناء قرر هو ورفاقه الفلسطينيون في الجمعية العربية الفتاة إنشاء جهاز خاص للنضال الفلسطيني ليتصل بالحركة الوطنية في فلسطين، ويتعاون معها في النضال ضد وعد بلفور والهجرة اليهودية والحكم الإنكليزي، فأنشأوا الجمعية الفلسطينية العربية. ولما أخذت أزمة الحكم الفعلي مع الفرنسيين والإنكليز تشتد، اجتمع المؤتمر السوري العام، وقرر قراره التاريخي في 8 مارس 1920م لإعلان استقلال سورية ووحدتها مع البلاد العربية الأخرى، وبخاصة العراق. وتنصيب الأمير فيصل ملكاً عليها، وكان هو الذي تلا هذا القرار على الجمهور، وكان مع اللجنة المختارة لتقديم القرار إلى الملك فيصل. واستمر في عضويته للهيئة المركزية للجمعية العربية الفتاة التي كانت تمارس نشاطها ونفوذها القويين في توجيه وسير الحكم الفيصلي الجديد.

وضايق موقف العرب المنخرطين في الحكم الفيصلي الفرنسيين، فتنازلوا للإنكليز عن أمور عديدة كانت تهمهم، وحينئذ تخلى الإنكليز عن الحكم الفيصلي، فأدى ذلك إلى وقعة ميلسون وسقوط هذا الحكم. فرجع هو ورفاقه إلى فلسطين، واندمجوا في النضال ضد الصهيونية والإنكليز معاً. وعاد من جهة أخرى إلى سكرتارية الجمعية الإسلامية المسيحية في نابلس التي تحولت إلى اسم الجمعية الوطنية، وظل سكرتيراً لها إلى سنة 1932م.

وكان من جهة ثانية عضواً في المؤتمرات الفلسطينية التي كانت تنعقد من وقت لآخر في فلسطين، ثم عضواً في لجانها التنفيذية خلال سنتي 1921-1933.

وفي أواخر 1930م رأى رجال الحركة الوطنية في فلسطين الدعوة إلى مؤتمر إسلامي عام، وعرض قضية فلسطين، وجعلها قضية العالم الإسلامي عامة، فكان عضواً في لجنته التحضيرية ثم عضواً مؤسساً فيه وسكرتيره الأول. وكان له نشاط قوي فيما اتخذه المؤتمر من قرارات متنوعة. واتفق هو ورفاقه من رجال الحركة العربية من مختلف أنحاء البلاد العربية الذين شهدوا هذا المؤتمر على عقد مؤتمر عربي عام لوضع ميثاق عربي. تم انعقاد هذا المؤتمر في أواخر 1930م وكان له نشاط قوي فيما اتخذه من قرارات.

وكانت الدعوة إلى إنشاء نواد تضم شباب المسلمين وتوجيههم نحو التقاليد الإسلامية، وقد قويت في مصر، وسرت إلى البلاد العربية الأخرى في العقد الثالث من القرن العشرين. وتقرر إنشاء ناد في نابلس وانتخب رئيساً له سنة 1928م وكان له نشاط فعلي باشتراكه في نشاطات كثيرة؛ كمظاهرة ضد قدوم اليهود إلى نابلس، وقد اعتقلته السلطات مع بعض رجال الجمعية بتهمة التحريض وحاكمته. وفي سنة 1932م أنشأ هو وبعض رفاقه حزباً في فلسطين اسمه «حزب الاستقلال» على أساس استقلال فلسطين ووحدتها مع سورية وبلاد العرب الأخرى ورفض وعد بلفور وآثاره والانتداب الإنكليزي، وجعلوا شعاره النضال ضد الإنكليز أولاً لأنهم أصل الداء. وقد كان له نشاط قوي في أثناءه، وفيما حدث.

مثل لفترة قصيرة حزب الاستقلال في اللجنة العربية العليا التي قامت لرعاية الاستقلال والنضال. واعتقلته السلطات مع كثير من رفاقه الوطنيين، وبقي في الاعتقال نحو ثلاثة أشهر. واستمر عضواً في اللجنة العربية العليا، وذهب مع بعض رفاقه إلى بغداد والرياض موفداً عنها في سياق مقاطعة اللجنة الملكية.

ولما تقرر اتصال اللجنة العربية العليا باللجنة الملكية البريطانية كان هو من جملة الذين تكلموا أمامها، فألقى نبذة تاريخية وافية لإثبات عروبة فلسطين من أقدم الأزمنة... ولما أصدرت اللجنة الملكية قرارها بتقسيم فلسطين اشترك مع اللجنة العليا. برفض التقسيم، ثم خرج من فلسطين مندوباً عنها لحضور المؤتمر العربي العام الذي عقد في أيلول سنة 1937م في بلودان، بدعوة من اللجنة العليا، ولجنة الدفاع عن فلسطين في سورية التي كان يرأسها نبيه العظمة. واختير سكرتيراً عاماً للمؤتمر وألقى كلمة فلسطين فيه.

ثم ذهب إلى بغداد لإنشاء لجنة للدفاع عن فلسطين في العراق، بناء على قرار المؤتمر، وتم إنشاء اللجنة بالتعاون مع رجالات العراق الرسميين والوطنيين. وفي هذه الأثناء انفجرت الثورة ثانية في فلسطين، وأعلنت حالة الطوارئ فيها، وحل الإنكليز المجلس الإسلامي، ووضعوا يدهم على الأوقاف، وعزلوه هو ورئيسه وبعض أعضائه، واعتقلوا من وجدوه من أعضاء اللجنة العربية العليا، ونفوه إلى جزيرة سيشيل مع زعماء آخرين، وأصدروا قانوناً ينص بمنعه ومنع من لم يكن في فلسطين من أعضاء اللجنة العليا من العودة إلى فلسطين، وظل هذا القانون معمولاً به إلى آخر أيام الانتداب.

وكان رئيس اللجنة قد تمكن من الخروج من فلسطين والإقامة في لبنان، فاتفق معه على أن يتسلم إدارة حركة الثورة وتمويلها وتمويلها. وظل يقوم بهذه المهمة إلى أن اعتقله الفرنسيون بتحريض من الإنكليز في حزيران 1939م، وحاكموه أمام محكمة عسكرية، وحاكموا عليه بالسجن خمس سنين، أمضى منها أربعة أشهر في قلعة المزة، وستة عشر شهراً في قلعة دمشق، وأفرج عنه مع المسجونين السياسيين على أثر استسلام فرنسا للألمان في أوائل عام 1941م.

وقد بذل مع رئيس اللجنة ورفاقه الآخرين جهوداً عظيمة حتى جاء وقت عمت الثورة جميع فلسطين، وألحقت بالإنكليز واليهود الخسائر، وأجبرت الإنكليز في النهاية على إلغاء التقسيم، والدعوة إلى مؤتمر عربي في لندن، وذكر اسمه كعضو فيه ممثلاً للجنة العليا، ولكنه أثر مع رئيس اللجنة البقاء في سورية ولبنان لمتابعة المهمة، وقد أصدر الإنكليز، كنتيجة للمؤتمر، الكتاب الأبيض الذي وعدوا فيه بوقف الهجرة وبيع الأراضي وقيام حكم وطني، وهي المطالب الثلاثة التي كانت شعار العرب في هذه المرحلة، ولكن ظهر أن الإنكليز فعلوا ذلك لمسايرة الموقف المتأزم وكسباً للوقت.

ولم يكد يخرج من السجن أوائل 1941م حتى غزا الإنكليز والديغوليون سورية، فغادر سورية في مايو/أيار 1941م إلى تركيا لاجئاً حيث قضى فيها نحو خمسين شهراً.

ولما وضعت الحرب أوزارها، وكانت سورية قد نالت استقلالها، عاد إليها في أواخر سنة 1945م، وكانت الجامعة العربية قد قامت، وصارت قضية فلسطين محور نشاطها الرئيسي، فأعيد في سنة 1946م تشكيل اللجنة العربية العليا باسم الهيئة العربية العليا، برئاسة سماحة مفتي فلسطين السابق، واعترفت بها الجامعة كممثلة لفلسطين، واختير هو عضواً فيها، وكانت قضية فلسطين قد دخلت في دورها الجاد. وقد بلغ هو ورفاقه جهودهم في سبيل تنظيم النضال السياسي والعسكري، ومثل الهيئة العليا في اللجنة السياسية في جامعة الدول العربية واللجنة العسكرية التي انبثقت منها، ثم في مجلس الجامعة العربية، وكان ممثلاً في دمشق وبيروت أمام حكومتيهما. وفي سنة 1947 استقال منها لأنه لم يرتح لأسلوب العمل فيها. وفي سنة 1947م اشتد عليه مرض المرارة فدخل المستشفى الأمريكي في بيروت، وأجريت له عملية جراحية، وخرج منها منهوكة لفترة غير قصيرة، وظل جسمه متأثراً بذلك، وصار النشاط البدني خارج البيت متعباً له، مما اضطره إلى الاعتكاف في بيته في دمشق والانصراف إلى التأليف وتقليل نشاطه السياسي.

ودعي إلى مؤتمر غزة الوطني الذي أعلن قيام حكومة عموم فلسطين 1948م فلم يستطع التلبية.

أيد قيام منظمة تحرير فلسطين التي رأى فيها بارقة أمل لقيام حركة تحرير شعبية لوطنه، وقد اختير عضواً في المؤتمر الذي دعا إلى إنشاء المنظمة والمؤتمرات الأخرى التي تبعتها فلم يستطع المشاركة.

الجرى العلمي

كان محمد عزّة دروزة متفوقاً في المدرسة الإعدادية، ولم يستطع والده أن يرسله إلى بيروت والآستانة لإتمام دراسته كما تيسر ذلك لبعض رفاقه. فعوض ما فاتته بالقراءة، فصار يلتهم كل ما يقع في يده من كتب متنوعة قديمة وحديثة وأدبية واجتماعية وسياسية وعربية وتركية حتى صار لا يترك الكتاب من يده في معظم وقته.

وكان في أسفاره يصطحب معه صندوقاً فيه كتبه. ولقد كان نشاطه في الكتابة والتأليف مبكراً إذ ابتدأ عقب إعلان الدستور.

وظهر من آثاره في هذه الفترة عشرون مقالاً نشرت في جريدة الحقيقة البيروتية. وقد تناول فيها شؤوناً متنوعة في الأخلاق والاجتماع والسياسة العامة. ثم رواية (وفود النعمان على كسرى أنوشروان) وقد وسع فيها ما رواه صاحب الأغاني وغيره. وقد كان الهدف منها تحريك الوعي العربي القومي. وقد طبعت هذه الرواية في إحدى مطابع بيروت سنة 1911م، ثم رواية السمسمار وصاحب الأرض، وقد كتبها بأسلوب مسرحي في عام 1912م نتيجة لما صار يشعر به من مطامع اليهود في حيازة الأراضي في فلسطين وشرائها من العرب، وقد بقيت مخطوطة، ومثلت في نابلس سنة 1919م.

حوّل في سنة 1923 رواية وفود النعمان إلى تمثيلية، وفي سنة 1924م وضع تمثيلية باسم عبد الرحمن

الداخل، وفي سنة 1925م وضع تمثيلية أخرى باسم آخر ملوك العرب في الأندلس، ومثلتها جميعها فرقة مدرسة النجاح الوطنية. وقد بقيت التمثيليات الثلاث بدون طبع، واستعارتها أندية فلسطين وقامت بتمثيلها.

شارك في تحرير جريدة الإخاء العثماني في بيروت التي كان يصدرها محمد شاعر الطيبي، وكان يترجم للجريدة عن الصحف التركية مقالات سياسية واجتماعية واقتصادية مما كان له صلة بالبلاد العربية. في هذه الفترة ترجم كتابين عن الفرنسية أحدهما كتاب رفايل للامارتين، وثانيهما القسم النظري من كتاب دروس في التربية للكاتب كومبايره. وقد طبع هذا الأخير ملحقةً بجريدة التربية التي كانت تصدر في بغداد بإشراف ساطع الحصري سنة 1926، ثم صار كتاباً مستقلاً في نحو 232 صفحة. أما كتاب رفايل فلم يطبع لأن أحد الكتاب اللبنانيين سبق أن ترجمه وطبعه.

وفي سنة 1925م ألف كتابه «مختصر تاريخ العرب والإسلام» في ثلاثة أجزاء، ليكون كتاباً مدرسياً للصفوف الابتدائية: الثالث والرابع والخامس. وكان الجزء الأول في تاريخ العرب قبل الاسلام وسيرة النبي والخلفاء الراشدين والأمويين، والجزء الثاني في تاريخ الأندلس والدول العباسية والفاطمية، والجزء الثالث في تاريخ الدول العربية والإسلامية بعدها التي استمرت إلى الآن. وبلغ عدد صفحات أجزائه نحو 200 صفحة وقد طبع الأول والثاني ثلاث مرات خلال سنتي 1926 و 1928 وصار كتاباً مدرسياً للمدارس الفلسطينية والأردنية، أما الثالث فلم يطبع وظل مخطوطاً.

وفي سنة 1932م وضع كتابه (دروس في التاريخ العربي) الذي كتب بأسلوب مبسط وقومي، وصار مقراً رسمياً للصفوف الابتدائية في الأردن والعراق والمدارس الوطنية في فلسطين، وبلغ عدد طبعاته ثمانية. ثم كتب كتابين آخرين بنفس الأسلوب، باسم دروس في التاريخ المتوسط ودروس في التاريخ القديم، وتكرر طبعهما، وكانا يدرسان في مدارس فلسطين الوطنية والرسمية، وكتب مقالات عديدة اجتماعية وتربوية وأخلاقية نشرت في مجلة الكشاف في بيروت والمرأة الجديدة والزهور في القاهرة..

ألف ثلاثة كتب حول القرآن الكريم؛ الأول: عصر النبي وبيئته قبل البعثة، والثاني: سيرة الرسول عليه السلام، والثالث: الدستور القرآني في شؤون الحياة، وقد طبع الأول في دمشق 1946 بواسطة دار اليقظة، وجاء في (517) صفحة من القطع الكبير، وطبع الثاني في القاهرة، بواسطة المكتبة التجارية الكبرى سنة 1949، وجاء في (710) صفحات في جزأين، والثالث بواسطة دار إحياء الكتب العربية 1956م، وجاء في (604) صفحات. ثم أعيد طبعها مرات عديدة فيما بعد، بعد إجراء تنقيح وإضافات عليها.

في الفترة التي قضاها لاجئاً في تركيا أثناء الحرب العالمية الثانية كتب مسودات التفسير الحديث، الذي رتبته حسب ترتيب السور في النزول، وقدم السور المكية على السور المدنية، وكذلك مسودات كتابه حول الحركة العربية التي جاءت مزيجاً من ذكرياته ومذكراته ومشاهداته بالدرجة الأولى، وثالثاً مسودة كتابه (القرآن المجيد) الذي أراد أن يكون بمنزلة مقدمة للتفسير.

كما وضع مسودة كتابه (تركيا الحديثة) الذي ضمنه استعراضاً لحالة الدولة العثمانية في نهاية الحرب العالمية الأولى، والحركة الكمالية عسكرياً واجتماعياً وثقافياً واقتصادياً.

وترجم عن التركية كتاب عوامل الحرب العالمية الأولى وكتاب تاريخ الدعوة الإسلامية وكتاب نظام الأثينيين لأرسطو.

وكان يدون مشاهداته في رحلته وملاحظاته عما يقرأه من أخبار عالمية، كتب نحو عشرين دفترًا صغيراً في نحو 3500 صفحة. بدأ في 1932 بتدوين مذكراته وذكرياته ومشاهداته ومسموعاته عن أحوال بلده وفلسطين والبلاد العربية: الاجتماعية والثقافية والأدبية والسياسية من منتصف القرن التاسع عشر من التوسع في سير الحركة الوطنية في فلسطين من مختلف الوجوه، ثم أخذ يكتب يوميات عن سير الثورة الفلسطينية ما بين سنتي 1933-1938 وقد بلغ عدد الدفاتر التي كتبها نحو أربعين في نحو 6500 صفحة، وهكذا بلغ عدد دفاتر ما سماه بالمذكرات 60 في 100000 صفحة.

ولما عاد من تركيا أخذ ينقح ما كتبه ويهيئه للطبع، وقد طبع كتاب تركيا الحديثة في بيروت سنة 1946م، وجاء في 355 صفحة، وطبع كتاب عوامل الحرب في بيروت أيضاً سنة 1946م، وجاء في 149 صفحة، وطبع القرآن المجيد في صيدا سنة 1952م، وجاء في 305 صفحات، وطبعت كتب عصر النبي، وسيرة الرسول، والدستور القرآني، في دمشق والقاهرة علاوة عما ذكرناه من قبل، وطبعت أجزاء كتابه «حول الحركة العربية الحديثة» الستة في صيدا في سنتي 1950-1951، وبلغ عدد صفحاته 1331، واقتصر الجزء الأول منه على انبعث الحركة العربية الحديثة في زمن الدولة العثمانية، والجزء الثاني على تاريخ الانتداب والاستعمار الفرنسي في سورية ولبنان وشمال إفريقيا، وصور النضال العربي ضده، والثالث والرابع والخامس على تاريخ الانتداب والاستعمار الإنكليزي والصهيوني في فلسطين، وصوره المختلفة، وصور النضال العربي ضده سنة 1950، والجزء السادس على مشاكل البلاد العربية السياسية والاجتماعية والثقافية ومعالجتها، وقد أعيد طبع الأجزاء الثالث والرابع والخامس في سنة 1961م، وأدخل عليها بعض الإضافات. وألف كتاب (العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي) في ثلاثة أجزاء كبيرة.

ركز الجزء الأول على تاريخ الدول والامارات والمشيخات الإقطاعية العربية والقبائل العربية وموجاتها في هذه الحقبة في جزيرة الفرات وجنوبها من بلاد الشام، ثم في لبنان، وركز الجزء الثاني على مثل ذلك في أنحاء سورية الأخرى إلى سورية الحاضرة والأردن وفلسطين، والجزء الثالث على مثل ذلك ما في وادي النيل وشمال إفريقيا العربي، الذي يقوم فيه الآن المغرب الأقصى والجزائر وتونس وليبيا. وكتب في سنة 1949 كتاباً في أصول وأخلاق اليهود في القرآن من وحي نكبة فلسطين المبريرة.

وجدير بالذكر أن محمد عزّة دروزة كان عضواً في كثير من اللجان العلمية والأدبية والفنية إلى جانب نشاطه السياسي والفكري، فقد كان عضواً في المجلس الأعلى للفنون والآداب في القاهرة، وعضواً مراسلاً في مجمع اللغة العربية في القاهرة. وكان بيته في دمشق محجة يؤمها مريدوه من المجاهدين والأدباء والأساتذة، إذ كانت تنظم في منزله ندوة اسبوعية يتجاذب فيها المنتدون أطراف الحديث.

تَبَّتْ بِمُؤَلَّفَاتِ مُحَمَّدِ عَزَّةِ دروزة

الكتب الإسلامية:

1. عصر النبي، صلى الله عليه وسلم، وبيئته قبل البعثة (صور مقتبسة من القرآن الكريم) الطبعة الأولى. مكتبة ومطبعة دار اليقظة/ دمشق 1365هـ/ 1946م الطبعة الثانية. (منقحة) مطبعة ومكتبة دار اليقظة/ دمشق 1384هـ/ 1964م ص 847.
2. سيرة الرسول، صلى الله عليه وسلم، صور مقتبسة من القرآن الكريم.
 - الطبعة الأولى (جزء واحد) مطبعة الاستقامة بالقاهرة 1367هـ/ 1948م
 - الطبعة الثانية (جزآن) المكتب التجاري/ دار احياء الكتب العربية/ القاهرة 1965م جزء أول ص 357 جزء ثاني ص 469.
 - الطبعة الثالثة (جزآن) طبع على نفقة سمو أمير قطر بمناسبة انعقاد المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية 1400هـ.
3. القرآن والمرأة ص 64 طبعة أولى- المطبعة العصرية/ صيدا 1951.
4. القرآن والضمان الاجتماعي ص 34. طبعة أولى- المطبعة العصرية/ صيدا 1951.
5. القرآن واليهود ص 160 طبعة أولى- بإشراف المرحوم الشيخ مصطفى السباعي صاحب مجلة الحضارة الإسلامية/ بدمشق 1367هـ/ 1949م.
6. القرآن المجيد (مقدمة للتفسير الحديث) ص 305. طبعة أولى- المطبعة العصرية/ صيدا، 1952م طبعة ثانية/ المطبعة العصرية صيدا.
7. التفسير الحديث (حسب النزول) 12 جزءاً.
 - الطبعة الأولى دار احياء الكتب العربية/ القاهرة/ عيسى البابي الحلبي 1881هـ/ 1961م/ 19م 62م/ 1963م.
8. الدستور القرآني والسنة النبوية في شؤون الحياة.
 - الطبعة الأولى (جزء واحد) دار احياء الكتب العربية/ القاهرة/ 1956م.
 - الطبعة الثانية (جزآن) دار احياء الكتب العربية/ القاهرة/ 1967-1969م.
 - الطبعة الثالثة (جزآن) دار المكتب الاسلامي/ بيروت/ 1401هـ- 1981م.
9. المرأة في القرآن والسنة.
 - الطبعة الأولى المطبعة العصرية/ صيدا 1388هـ/ 1967م.
 - الطبعة الثانية المطبعة العصرية/ صيدا 1397هـ/ 1976م.
 - الطبعة الثالثة (منقحة) المطبعة العصرية/ صيدا 1400/ 1983 ص 259
 - الطبعة الرابعة دار الجليل/ دمشق 1985 ص 267.
10. الإسلام والاشتراكية (ص 250)
 - الطبعة الأولى المطبعة العصرية/ صيدا 1388هـ/ 1968م.
11. القرآن والمبشرون (ص 463)
 - الطبعة الأولى المكتبة الاسلامي/ دمشق 1392هـ/ 1972م.
 - الطبعة الثانية المكتب الاسلامي/ دمشق
 - الطبعة الثالثة المكتب الاسلامي/ بيروت 1399هـ/ 1979م.

25. صفحات مهمة ومغلوبة في سيرة القضية الفلسطينية وصلتها بالحركة القومية العربية. المكتبة العصرية/ صيدا 1978م
26. العدوان الاسرائيلي القديم والعدوان الصهيوني الحديث ومراحل الصراع جزآن:
 - الأول: 251 طبعة أولى 1979 دار الكلمة للنشر/ بيروت.
 - والثاني: 291 طبعة أولى 1980 دار الكلمة للنشر/ بيروت.
27. سبعة وتسعون عاماً في الحياة (سيرة ذاتية) مذكرات وتسجيلات جزء أول، وصفحاته 298، 1887-1918 المركز الجغرافي الفلسطيني/ دمشق والجمعية الفلسطينية للتاريخ والآثار 1984م
- جزء ثان - 1918 1920 طبعة أولى مطبعة صامد/ دمشق 1986م وصفحاته 220 والأجزاء التالية تحت الطبع.

الكتب التاريخية:

28. مختصر تاريخ العرب والاسلام
 - الجزء الأول والثاني 493 صفحة طبعة أولى وثانية وثالثة المطبعة السلفية مصر 1923-1925
 - الجزء الثالث غير مطبوع.
29. دروس التاريخ القديم خاص بالمبتدئين بانفسهم ص 203
 - الطبعة الاولى المطبعة السلفية القاهرة 1350هـ/ 1932م.
 - الطبعة الثانية مطبعة دار الأيتام الإسلامية / القدس 1936م.
 - الطبعة الثالثة مطبعة دار الأيتام الإسلامية/القدس 1936م.
30. دروس التاريخ المتوسط والحديث (للمدارس الابتدائية) ص 239
 - الطبعة الأولى، المطبعة السلفية /القاهرة.
 - الطبعة الثانية، مطبعة دار الايتام الاسلامية /القدس 1349هـ / 1933م.
 - الطبعة الثالثة، مطبعة الترقى/ دمشق 1357هـ / 1938م.
31. دروس التاريخ العربي (من أقدم الأزمنة إلى الآن) ص 370
 - الطبعة الأولى، المطبعة السلفية/ القاهرة 1348هـ
 - الطبعة الثانية، 1350هـ
 - الطبعة الثالثة، المطبعة الوطنية العربية/ حيفا، لصاحبها محمود عيسى الصفدي وشركاه، مطبعة الصداقة بدمشق 1952.
 - طبعات متعددة، دار الأيتام الإسلامية/ القدس، ومطبعة الترقى/ دمشق
 - الطبعة العاشرة، مطبعة الترقى/ دمشق 1939م.
32. تاريخ الجنس العربي في مختلف الأطوار والأدوار والأقطار من أقدم الأزمنة 8 أجزاء.
 - الطبعة الأولى، المطبعة العصرية/ صيدا 1964، 1958
 - الطبعة الثانية، المطبعة العصرية / صيدا
33. العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي
 - الطبعة الأولى، 3 أجزاء دار اليقظة العربية/ دمشق 1960_ 1961
 - الطبعة الثانية (3 أجزاء فصلت 8 أجزاء) المكتبة العصرية/ صيدا 1401_ 1981
 - الجزء التاسع، المكتبة العصرية/ صيدا 1403 هـ / 1983م.

12. القرآن والملحدون ص 427

- الطبعة الأولى المكتب الاسلامي/ دمشق 1393هـ/ 1973م.
- الطبعة الثانية دار قتيبة/ دمشق 1400هـ/ 1980م.
- 13. الجهاد في سبيل الله في القرآن والحديث
 - الطبعة الأولى دار اليقظة/ دمشق 1395هـ/ 1975م ص 381
 - الطبعة الثانية المكتب والمطبعة العصرية/ بيروت/ صيدا 1988م
- 14. اليهود في القرآن الكريم ص 146
 - الطبعة الاولى المكتب الاسلامي/ بيروت 1400هـ/ 1980م.
 - الطبعة الثانية دار الجليل/ دمشق 1983م
- 15. القواعد القرآنية والنبوية في تنظيم الصلات بين المسلمين وغير المسلمين 115 صفحة، الطبعة الاولى دار الجليل/ دمشق 1982م.

مؤلفات غير مطبوعة

16. القواعد الإسلامية الدستور في شؤون الحياة.
17. مجموعة مقالات إسلامية نشرت في مجلات إسلامية في الكويت/ عمان/ دمشق بعد 1965م.

الكتب الفلسطينية

18. كتاب مفتوح إلى اللجنة المالية الإنكليزية- مطبعة دار الأيتام الاسلامية/ القدس 1349هـ/ 1931م (نشرت مقالات في جريدة الجامعة العربية تم جمعها في كتاب).
19. القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها
 - الطبعة الاولى (جزآن) المطبعة العصرية/ صيدا 1961، ص 850.
 - الطبعة الثانية (جزآن) المطبعة العصرية/ صيدا
 - الطبعة الثالثة (جزآن) دار الجاحظ للطباعة/ دمشق 1983م (على نفقة منظمة التحرير الفلسطينية- دائرة الاعلام والثقافة).
20. مأساة فلسطين ص 132
 - الطبعة الاولى دار اليقظة العربية/ دمشق 1379هـ/ 1959م.
21. فلسطين وجهاد الفلسطينيين
 - نشرته الهيئة العربية العليا- دار الكاتب العربي/ القاهرة 1379هـ/ 1959م، ص 108.
22. قصة الغزو الصهيوني ص 72
 - الطبعة الأولى ملحق لمجلة الوعي الاسلامي في الكويت 1970م
23. في سبيل قضية فلسطين والوحدة العربية ومن وحي النكبة ص 524
 - الطبعة الأولى جزء أول المكتبة العصرية/ صيدا 1973م
 - جزء ثاني (تحت الطبع)
24. عبرة من تاريخ فلسطين ص 120
 - الطبعة الأولى المكتبة العصرية/ صيدا 1978م

34. عروبة مصر قبل الإسلام وبعده.

- الطبعة الأولى، دار المكتب القومية/ القاهرة، 1961 عدد ممتاز، رقم 81 و 89
- الطبعة الثانية، المطبعة العصرية/ صيدا، 1963 ص 199.

الكتب القومية :

35. حول الحركة العربية الحديثة 6 أجزاء.

- الطبعة الأولى، المطبعة العصرية/ صيدا 1951 - 1952.
- الطبعة الثانية، المطبعة العصرية / صيدا الاجزاء 4، 5، 6 سنة 1961
- 36. مشاكل العالم العربي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ص 267، نال جائزة من الجامعة العربية.
- الطبعة الأولى، دار اليقظة العربية/ دمشق 1952.
- 37. الوحدة العربية من 710.
- (نال الجائزة التشجيعية من المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاسلامية في الجمهورية العربية المتحدة 1961).
- الطبعة الأولى، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر/ بيروت 1376 هـ / 1957م.
- 38. نشأة الحركة العربية الحديثة ص 510
- (الجزء الأول م سلسلة حول الحركة العربية الحديثة منقحا «مفصلاً»).
- الطبعة الأولى، المكتبة العصرية/ صيدا 1971
- 39. الوحدة العربية (مختصر) تحت الطبع.

مواضيع مختلفة :

40. رواية تمثيلية «وفود النعمان على كسرى أنوشروان».
- الطبعة الأولى، مطبعة صبرا/ بيروت 1331 هـ / 1911م، وقد حصلت على نسخة منها مؤخرًا، وسأحاول نشرها مجددًا، بإخراج حديث، إن شاء الله.
 - 41. رواية تمثيلية «السفسار وصاحب الأرض» 1913م مثلت في نابلس - مفقودة.
 - 42. رواية تمثيلية «عبد الرحمن الداخل» 1923م مثلت في نابلس - مفقودة.
 - 43. رواية تمثيلية «آخر ملوك العرب في الأندلس» 1925م مثلت في نابلس - مفقودة
 - 44. دروس في فن التربية «القسم النظري» تأليف جبرائيل كمبايره، مترجم عن الافرنسية (1918)
 - نشر ملخصاً بمجلة التربية والتعليم في بغداد 1928م وجمع في كتاب «232 صفحة»
 - 45. تركيا الحديثة
 - الطبعة الأولى، مطبعة الكشاف/ بيروت، 1365 هـ / 1976م ص 355
 - 46. بواعث الحرب العالمية الأولى في الشرق الأدنى، تأليف جان بيشون (بالفرنسية) مترجم للتركية حسين جاهد يلشين معرب عن التركية
 - الطبعة الأولى، مطبعة الكشاف/ بيروت، 1946 ص 149

47. تاريخ بني اسرائيل من أسفارهم ص 549

- الطبعة الأولى، مكتبة نهضة مصر ومطبعتها/ مصر، 1377 هـ / 1958م.
- الطبعة الثانية، المكتبة العصرية للطباعة والنشر/ صيدا، 1389 هـ / 1969م.
- طبعة شعبية الدار القومية للطباعة والنشر/ مطابع شركة الإعلانات الشرقية، كتاب «اخترنا لك» رقم 83، 85، 87، 1960 - 1961

48. الجذور القديمة لأحداث بني إسرائيل واليهود وسلوكهم وأخلاقيهم

- الطبعة الأولى، مكتبة أطلس/ دمشق، 1388 هـ / 1969م، ص 101

مقالات ومحاضرات غير مطبوعة:

49. دولة الاثنيين لأرسطو، مترجم عن التركية بإذن من مترجمها الأستاذ سعاد باي بورد/ أنقرة، 1943 مطبعة المعارف.
50. رواية رفايل، تأليف لإمارتين، مترجمة عن الفرنسية 1918.
51. مقالات صحفية في جريدة «الحقيقة» بيروت، لصاحبها كمال عباس 1908 - 1911
52. مقالات في مواضيع مختلفة نشرت في مجلات عربية مختلفة.
53. مجموعة مقالات سياسية نشرت في مجلات وصحف في دمشق وغيرها حول القضية الفلسطينية بعد 1973.
54. محاضرة (التقليد) ألقيت في نادي جمعية الشبان المسلمين 1928
55. محاضرات أدبية، اجتماعية، تاريخية، تربوية ألقيت على طلاب مدرسة النجاح الوطنية نابلس. ومنها: الإنسان ابن عمله، الترتيب، كرامة النفس، المزاج، المسامحة، الاعتراف بالجميل، الإخلاص، انشراح الصدر، الكتابة، الانتقاد، الفحص، الإنسانية، المثل الأعلى، التكامل الاجتماعي، المرأة العربية، القرآن الكريم، ومدنية العرب في الأندلس. ومن محاضراته: واجب المدارس في تخريج جيل صالح أخلاقياً واجتماعياً وعلمياً، والحجاج الثقافي، والقومية العربية، والاستقلال حق طبيعي.
56. مجموعة مقالات إسلامية في الكويت ودمشق وعمان بعد 1965
57. مجموعة مقالات «بأقلام آخرين».
58. مسودة رسالة وحيرة في الوحدة العربية (بناء على تكليف من وزارة الثقافة وافقت على طبعها وتأخرت طباعتها حتى قام الانفصال وبقيت محفوظة في الوزارة).
59. النزاع العنصري بين العرب وغيرهم قديماً وحديثاً، مفقود.

مقالات كتبت في وقت مبكر

1. النزاع العنصري في صدر الاسلام بين العرب وغيرهم
 2. ملاحظات على كتاب (في الشعر الجاهلي)
 3. العامية والفصحى/ على سلامة موسى
 4. هل نحن أمام طفرة اجتماعية ؟
 5. النزاع بين القديم والحديث
 6. التقليد وأثره في المجتمع 1 + 2
 7. خطأ أسلوب بعض دعاة التجديد وضرره في النهضة الاسلامية الزهراء 1345
- الزهراء 1343
- الزهراء 1348
- الزهراء 1348
- الكشاف آذار / 1928
- الكشاف نيسان / 1928
- الكشاف / ت1 / 2 / 1928

تلخيصات وتعليقات وأبحاث متفرقة

جاء في مذكرات محمد عزة دروزة «المجلد الأول ص 529» أنه أنجز التلخيصات والتعليقات والأبحاث التالية إضافة إلى ما تقدم:

1. كتاب ابن رشد وفلسفته (تأليف فرح أنطون) تلخيص وتعليق.
2. كلمة في ضجة البرنيطة.
3. كتاب الحياة النباتية (تأليف أمين الغرب) تلخيص وتعليق.
4. ضجة طه حسين في أسلوبه وأبحاثه. كتبت هذا البحث في ظروف اشتداد هذه الضجة.
5. عبرة في اغتصاب عمال الإنجليز - كتبت في أثناء ذلك وبسبب ما ظهر من أخلاق الإنكليز وأعصابهم.
6. روح الاشتراكية تأليف غوستاف لوبون وترجمة عادل زعيتر - تلخيص وتعليق.
7. دمعة على فلسطين - أندبوها فليس من بلاد أسوأ حظاً منها - من وحي ما ناله العراق من استقلال.
8. كتاب الأمير لماكيافيلي - ترجمة لطفي جمعة - تلخيص وتعليق.
9. كتاب الأدب والدين عند قدماء المصريين - تأليف أنطون زكري - تلخيص وتعليق.
10. كتاب نظرية التطور وأصل الانسان - تأليف سلامة موسى - تلخيص وتعليق.
11. كتاب في الشعر الجاهلي تأليف طه حسين - تلخيص وتعليق.
12. كتاب آراء غريبة في مسائل شرقية. مقالات مترجمة من قبل عمر الفاخوري - تلخيص وتعليق.
13. الجزء الثاني في علم الاجتماع تأليف نقولا حداد - تلخيص وتعليق.
14. بحث في اللغة العامية والفصحى. كتب رداً على مقال نشرها سلامة موسى في مجلة الهلال.
15. الطائفة السامرية. تلخيص لكتاب مخطوط عند الكاهن توفيق السامري في نابلس، وقد أرسل البحث إلى محمد علي كرد علي، فنشره في كتاب خطط الشام.
16. كتاب الحرية تأليف جون ستوارت وتعريب طه السباعي - تلخيص وتعليق.
17. الجزء الأول من تاريخ الأديان بالتركية تأليف الأستاذ م. شمس الدين - تلخيص وتعليق.
18. كتاب الجزء الثاني من حديث الأربعاء لطله حسين تلخيص وتعليق.

مذكرات محمد عزة دروزة

صدر عن دار الغرب الإسلامي في بيروت مذكرات وتسجيلات المجاهد العربي الفلسطيني محمد عزة دروزة (97 عاماً في الحياة - 1887 1984) وجاء في التعريف بها وبه أنه (أحد رواد وقادة الحركة العربية الحديثة والقضية الفلسطينية والذي واكب انبثاقها ومسيرتها منذ أواخر العهد العثماني. ولم يكن شاهد عيان لتطوراتها فحسب بل كان في خضم الحركة الوطنية القومية في مواجهة الاستعمار بعامة والانتداب والصهيونية في فلسطين بخاصة. ولعب دوراً «قيادياً» ومحركاً في الأحداث دون ضجة أو إثارة وعمل على دعم الكفاح المسلح وتأييد الحركات الجهادية. وقد عاش زهاء قرن من الزمان لا ينقطع عن الجهاد والجهد والسعي والعطاء يناضل ويفكر ويكتب. وارتاد مجالات الفكر المختلفة فأثرى المكتبة العربية بمؤلفاته ودراساته الإسلامية والتاريخ العربي قديمة وحديثة والقضية الفلسطينية والقومية العربية الوحدوية (45 مؤلفاً، 90 مجلداً).

إن الطبيعة الحميمة لمذكرات دروزة (سنة مجلدات بحوالي 4500 صفحة) تكشف جوانب خفية من مسيرة القضية الفلسطينية والقضايا العربية، لم يسبق لأي من زملائه من رجال الرعيل الأول أن دونوا أحداثها بشموليته مما يجعلها من أندر المصادر وأوثقها ونقبتس منها رأيه في ميثاق جامعة الدول العربية حيث قال: (والذي نعلقه على مواد الميثاق إنه كان من جهة يصدق عليه قول فارس الخوري إنه بداية متواضعة وإنه يحتوي جميع عناصر التدرج والتحسين في سبيل ترابط أتم وأوثق، فإنه ليس فيه أي نص يمكن أن يجعله يؤدي إلى اتحاد أو وحدة بالمعنى الذي تنصوره، دولة واحدة أو دولة ولايات متحدة في المصالح المشتركة العليا كأميركا أو سويسرة مثلاً *** كما إن فيه نوافذ عديدة للتفلسف والتفلسخ أيضاً. أما ملحق فلسطين فإنه يثبت الحق العربي الشرعي نظرياً والكيان العربي أيضاً. ومن هاتين الناحيتين فإنه يعد توفيقاً ونجاحاً ***

هذا مع التنبيه على أن موسى العلمي قد حضر الاجتماعات، ولكنه لم يوقع على الدستور لأنه لم يعد مندوب دولة رسمية. والظاهر أن انتخاب ممثل فلسطين قد ترك لأول جلسة يعقدها المجلس، والراجح أن موسى هو الذي سيكون هذا المندوب.

ولكن هذا الملحق لا ينطوي على شيء قوي عملي بالنسبة لفلسطين ولا ندري هل هذا كل ما هناك أو أن هناك عملاً آخر في طريق السياسة كما قيل وطمطن **

وجاء في مذكراته حول مؤتمر إعلان استقلال سورية سنة 1920م ما كان من إلقاء عوني عبد الهادي بيان الملك فيصل بن الحسين، حيث قال: (وجاء فيصل في اليوم التالي، وألقى عوني عبد الهادي الذي كان سكرتيره الخاص بالنيابة عنه خطاباً قال فيه إني أدعوكم في الوقت الذي فيه حل المسألة التركية حلاً نهائياً في مؤتمر الصلح لمصير سورية حسب رغبات أهاليها، الذين رأوا فيكم الكفاءة للنيابة عنهم، وقد وعد مؤتمر الصلح أن يحترم رغبة الشعوب في تقرير مصيرها، بل حتم على نفسه أن يقبل بأن يكون مستقبل كل أمة حسب رغباتها وإرادتها تحقيقاً للمبادئ التي نادى بها الحلفاء وحاربوا من أجلها. وذكر فيما ذكره جهاد العرب وتضحياتهم في سبيل الاستقلال والحرية وحقهم الشرعي في ذلك، وطلب من الأعضاء تقرير مصير البلاد.

والخطاب منشور في الجزء الثاني من كتاب الثورة لأمين سعيد. وقد ذكر الأمير في خطابه بالعراق شقيق سورية وجهاده والوحدة، وطلب من المؤتمر ذكر ذلك في سياق ما يقرره. وروح الخطاب بل فحواه يفيد بقوة أن فيصلاً انسجم في الخطة المقترحة وإنه ينتظر ويطلب إقرارها).

كتب ترجمت له وكتبت عنه

1. أعلام القرن الرابع عشر المجلد الأول/ أعلام الدعوة والفكر، فصل مدرسة المفكرين، مكتبة الأنجلو المصرية. المؤلف أنور الجندي، محمد عزة دروزة ص 189 / 197
2. من أعلام الفكر والأدب في فلسطين، يعقوب العودات (البدوي المثلث)، محمد عزة دروزة ص 212 / 215.
3. من هم في العالم العربي الجزء الأول/ سورية 1957، مكتب الدراسات السورية والعربية، محمد عزة دروزة ص 240 / 242.
4. مجلة الموقف العربي/ دمشق، العدد 59 / 60 لعام 1976، مقال عبد الرحمن الحلبي «رحلة شاقّة عبر التاريخ ***»، محمد عزة دروزة ص 51 / 60.
5. مجلة شؤون فلسطينية (العدد 118) صفحات من الثقافة ومجلة المصير الديمقراطي أيلول/ 1981، مقال سميح شبيب، صفحات من الثقافة الفلسطينية محمد عزة دروزة تسعون عاماً من الكفاح ص 78 / 85.
6. الأنهر الظمأى، ديوان شعر، دمشق آذار/ 1982، الشاعر حسن البحيري (قصيدة)، بيت المجد/ بيت المؤرخ العربي الفلسطيني محمد عزة دروزة نوفمبر، 1979.
7. سلسلة إحياء التراث الثقافي الفلسطيني، إصدار الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين الأمانة العامة. بمناسبة قرار الاتحاد واللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير بتكريم هذا المؤرخ والكتاب والمناضل ومنحه درع الثورة الفلسطينية عام 1982، إعداد حسين عمر حمادة، محمد عزة دروزة حياته ونشأته ومؤلفاته.
8. رسالة دكتوراة مقدمة إلى جامعة الأزهر، 1402 / 1982، الدكتور فريد مصطفى سلمان، محمد عزة دروزة ومنهجه في التفسير.
9. المجلة العربية للثقافة/ تصدرها المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - جامعة الدول العربية العدد العاشر/ السنة الخامسة، جمادى الثانية 1406 / مارس، آذار/ 1986م، ملف العدد (عدد خاص) صفحات 137 صفحة (المؤرخ العربي محمد عزة دروزة).
10. قصيدة رثاء، تموز 1984، شاعر فلسطين- حسن البحيري الجرح الكبير رحيل البحيري محمد عزة دروزة.
11. رسالة دكتوراة في اللغة العربية وآدابها/ مقدمة إلى جامعة عين شمس كلية الآداب، دكتور حسن عبد الرحمن محمد أحمد السلواوي، جهود محمد عزة دروزة في تفسيره المسمى التفسير الحديث.
12. دولة الكويت، 1985، مجموعة طوابع بريد/ الكويت، اليوميل الذهبي للمكتبة المركزية «طابع الأدباء»، محمد عزت دروزة (ضمن أسماء أدباء الصنف الأول من القرن العشرين).
13. الناشر- دار النهضة العربية/ 32 شارع عبد الخالق ثروت القاهرة، د. عادل حسين غنيم، محمد عزة دروزة النضال الفلسطيني.
14. مركز دراسات الوحدة العربية، تقديم ناجي علوش، مختارات قومية لمحمد عزة دروزة، بيروت، 1988م.
15. مجلة روتلج (لوس انجلوس 1993) نشرة عن الفكر الديني عنده، وذلك في عدد خاص عن القرآن الكريم.
16. إسماعيل ك. بوناويل، موسوعة الإسلام، الطبعة الجديدة ص 442- 443.

مقالات كتبت في تأبينه:

1. المجاهد البجائه محمد عزة دروزة، إسماعيل الكيلاني، مجلة الأمة القطرية كانون الأول/ 1984م.
2. المجاهد العلامة محمد عزة دروزة، رجل صانع اللاءات الثلاثة في العشرينات د. علي سعيد عطية، القبس الكويتية 18 / 10 / 1984.
3. محمد عزة دروزة، آخر الرواد والمحاربين القدماء، عبد الوهاب قتيبة، الاتحاد، أبو ظبي 20 / 9 / 1984
4. محمد عزة دروزة، سجل حافل بالكفاح، عادل رفعة، العالم، لندن 18 / 8 / 1984.
5. صفحات من حياة جهاد محمد عزة دروزة ومؤلفاته، عبد الله رشيد، الدستور الأردنية، 30 / 9 / 1984.
6. محمد عزة دروزة شاهد مرحلة، إبراهيم العبسي، الدستور 24 / 8 / 1984.
7. محمد عزة دروزة، الرجل الذي خسرنه، حافظ داود طوقان، الرأي الأردنية 24 / 8 / 1984.
8. مذكرات المؤرخ المجاهد الفلسطيني الراحل محمد عزة دروزة، الحلقة الأولى، دنيا الادب العدد 7.
9. نعي اتحاد الكتاب الفلسطينيين الحرية 5 / 8 / 1984.
10. وجهة نظر في مواقف وآراء محمد عزة دروزة عاشق فلسطين وكاتب تاريخها بقلم حسين عمر حمادة، الحرية 5 / 8 / 1984.
11. محمد عزة دروزة شاهد القرن على جهاد الفلسطينيين، فاضل الربيعي، الهدف 6 / 8 / 1984.
12. وداعا وسلاما ابا زهير، إبراهيم الراهب، الطلائع.
13. وفاة المؤرخ محمد عزة دروزة الذي ترك عشرات المؤلفات ولم يودعه سوى نفر قليل، صوت البلاد 2 / 9 / 1984.
14. محمد عزة دروزة، السلام مع اسرائيل أمل كاذب وحرام شرعا، الشراع.
15. محمد عزة دروزة رحل الى الخلود، الافق - قبرص 23 / 8 / 1984.
16. حزن العروبة والاسلام، عبود كنجو، الشراع 2 / 7 / 1984.
17. لقاء المجاهد والمؤرخ الاسلامي محمد عزة دروزة، حسين عمر حمادة، دنيا الادب مارس / 1984.
18. الفقيه محمد عزة دروزة، إبراهيم الراهب، فلسطين الثورة 11 / 8 / 1984.
19. بطاقة المجاهد محمد عزة دروزة، دنيا الادب 16 / 8 / 1984.
20. محمد عزة دروزة..... أكرم زعيتر الشرق الاوسط 9 / 8 / 1984.
21. وقفة مع كتاب محمد عزة دروزة، صفحات من حياته وجهاده، ومؤلفاته، زياد عودة الرأي الأردنية 15 / 9 / 1984.
22. بيت المجد، هارون هاشم رشيد، الشرق الاوسط 10 / 9 / 1984.
23. وفاة المؤرخ الفلسطينيين محمد عزة دروزة، الوطن الكويتية 27 / 7 / 1984.
24. ويرحل محمد عزة دروزة، بقلم مصطفى محمد الفار، الدستور الأردنية 7 / 8 / 1984.
25. محمد عزة دروزة : حياة حافلة ومسيرة متصلة، سلطان الحطاب، صوت الشعب 5 / 8 / 1984.
26. مات عزة دروزة، جميل بركات، صوت الشعب 30 / 7 / 1984.
27. محمد عزة دروزة، زهير المارديني، النهار البيروتية 17 / 8 / 1984.
28. وفاة المؤرخ الفلسطيني محمد عزة دروزة، الاهالي المصرية 1 / 8 / 1984.
29. نعي منظمة التحرير الفلسطينية، صوت الشعب الأردنية 2 / 8 / 1984.
30. نعي شركة الاردن والخليج للاستثمارات، صوت الشعب الأردنية 30 / 7 / 1984.

((حياة محمد عزة دروزة، في عمقها وفي اتساعها وفي اشعاعها، تكاد تكون ظاهرة فريدة فقد عاش هذا الرجل الفذ زهاء قرن من الزمان وهو، لا ينقطع عن الجهد والسعي والعطاء، عاملاً، يفكر، ويكتب ويناضل، تسعين عاماً من عمره، فكان بذلك شاهد عصره على امتداد القرن العشرين: أحداثاً ووقائع سياسية ونضالية وفكرية وحضارية في العالم المعاصر، وفي الوطن العربي، وهو في هذا كله شاهد مشارك، ومساهم في صنعها، وفي صياغتها، قدرة والتزاماً.))

د. محيي الدين طاهر

المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.
المجلة العربية للثقافة. العدد العاشر. 1986، ص 14.

((الأستاذ محمد عزة دروزة علم أعلام نهضتنا العربية الحديثة، ورائد من روادها الأوائل، عمر طويلاً، وكتب فيها كثيراً، وكان شاهداً للعيان، وسجلها المحفوظ، وذاكرتها الحية، وخزانة أدبها السياسي والتاريخي، وظل يرافقها حتى أيامنا الأخيرة دون عجز أو توان، وعاش وثبتنا العربية التحريرية متبنياً مبدأها القومي، ومتابعاً حركتها المستمرة، ومشاركاً بكل قواه في نشاطاتها السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية، قد كان شاباً يانعاً، هذا دأبه إلى أن لازم بيته وأخذ يدون ذكرياته ومذكراته وتاريخه وتعليقاته ولبث غير بعيد عما يجري حوله من أحداث الأمة العربية، يقرأ عنها ويبيدي رأيه فيها، ويحاول أن يفسرها تفسيراً عربياً قومياً غير عابئ بما يحاك حولها من تأويلات مغرضة، لقد كان بحق رجل جهاد وعمل وفكر وقلم.))

كان معلم نفسه، يقضي وقته بالقراءة الكثيفة المستمرة، يقرأ كل ما يقع تحت يده من كتب ودراسات وجرائد ومجلات مختلفة الاتجاهات، من عربية وأجنبية، ويدون ما يهيمه حفظه في دفاتره وأوراقه. كان الكتاب صديقه الدائم الذي لا يفارقه في حله وترحاله، والمطالعة شغله الشاغل في عمله وراحته. فإذا تعب من قراءة كتاب، طلب الراحة في قراءة كتاب آخر، وإذا أراد أن ينال قسطه من النوم، وضع القلم والورق إلى جانب مصباح نومه، فإذا ما خطرت له فكرة طارئة، دونها مباشرة خشية أن تفوته. كان التفكير القومي عنده هاجساً ملازماً.

((لقد افاد الأستاذ محمد دروزة من نشاطه المبكر في القضية العربية القومية، واندماجه في الحياة السياسية والاجتماعية العربية، ومعاشرته رجال السياسة والاجتماع والدين والتربية والاداب واللغة، ومن قراءاته المتنوعة الكثيرة التي أثمرت ذكاءه الطبيعي وأنارت فكره، ومن معاناته المديدة في الشؤون العربية، وخرج علينا بنتائج الخصب وموسوعته التاريخية التي غطت تاريخ العرب والعروبة منذ أقدم العصور حتى العصر الحاضر، بكل ماضٍ أساسياً للتاريخ العربي على مداه البعيد والمترايط عبر القرون، وللقضية العربية الحديثة على مختلف أدوارها وأطوارها، لاغنى عنه لكل دارس، أوباحث أو محب للاطلاع.))

وضع تاريخه المطول في ((الجنس العربي)) إلى نهاية عصر الامويين، وتاريخه في ((العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي))، وتاريخه ((حول الحركة العربية الحديثة)). ودفعاً للتعباس قد يقع في الذهن،

31. نعي اكرم زعيتر، الرأي 27 / 7 / 1984.

32. نعي جمعية محافظة نابلس الخيرية، الرأي 28 / 7 / 7 / 1984.

33. نعي بنك الاردن، الرأي 30 / 7 / 1984.

34. محمد عزة دروزة علم لا يموت، د. أمين موسى خماس، القدس 8/2 / 1984.

35. صرخة، على الخليلي، الفجر 16/8 / 1984.

36. الخطر، على الخليلي، الفجر 5/8 / 1984.

37. العلامة محمد عزة دروزة : حياته حافلة بخدمة العلم، إلى العالم الذي فقدناه، الشيخ محمد

احمد البسطامي (قصيدة) 10 / 8 / 1984.

38. عمر من الكفاح (محمد عزة دروزة) عن مجلة اليوم السابع، الاتحاد 17 / 8 / 1984.

39. الكاتب الفلسطيني محمد عزة دروزة : نموذج فذ من جبل الرواد، الرسالة (المغرب) 30 / 8 / 1984.

40. وفاة مؤرخ فلسطين، الثورة العراقية 28 / 7 / 1984.

41. محمد عزة دروزة في وجدان الأمة، فايز قنديل، الطلائع 14 / 8 / 1984.

42. محمد عزة دروزة : الرجل الظاهر، فايز قنديل، الطلائع 14/8/1984.

43. محمد عزة دروزة : مؤرخ وصانع تاريخ، فايز قنديل، الطلائع 21 / 8 / 1984.

44. محمد عزة دروزة : الرجل والشعار، فايز قنديل، الطلائع 28 / 8 / 1984.

قالوا فيه :

((وكان من الأوراق الهامة التي اعتمدت عليها خمس رسائل سبق إرسالها من محمد عزة دروزة إلى عوني عبد الهادي _ أحد القيادات الفلسطينية _ خلال الثلاثينات والاربعينات من القرن العشرين. وكان عوني عبد الهادي _ رحمة الله عليه _ قد سمح لي بتصويرها عام 1964، وهي رسائل لم يسبق نشرها كاملة، لكن نشرت مقتطفات منها في الدراسة التي قامت بها الزميلة الدكتور خيرية قاسمية أستاذة التاريخ الحديث بجامعة دمشق بعنوان ((عوني عبد الهادي. أوراق خاصة «. ولاشك أن نشرها كاملة سوف يتيح للباحثين أن يستفيدوا منها وأن يقوموا بتحليلها طبقاً لنظرة كل منهم إلى مضمونها، وهو ما قمت به فعلاً حيث تعطينا تلك الرسائل عدداً من الاستنتاجات سواء بالنسبة للقضية الفلسطينية أو لدور محمد عزة دروزة في تلك الفترة.))

((ونود أن ننبه الباحثين إلى أن جوانب أخرى من اهتمامات دروزة الفكرية والأدبية والتاريخية تستحق الاهتمام والدراسة، ومن هذه الجوانب تقييم إنتاجه الكبير ككاتب إسلامي قدم للمكتبة العربية العديد من الدراسات الإسلامية، كما نشر له مقالات كثيرة في الشؤون الإسلامية، وشارك بأبحاث في عدد من المؤتمرات الإسلامية. ومن هذه الجوانب مؤلفاته الروائية حيث ألف في مطلع شبابه أربع روايات لم يطبع منها غير رواية واحدة، ولا ندري أين مصر الروايات الأخرى. ومن تلك الجوانب جهوده ومواقفه ودراساته من أجل الوحدة العربية. ولعل الباحثين والمراكز العلمية والهيئات الفلسطينية والعربية الإسلامية المختلفة يهتمون بإعادة نشر مؤلفات محمد عزة دروزة، ونشر ما لم ينشر من إنتاجه، وتقييم أدواره ونشاطاته المختلفة في خدمة العروبة والإسلام)

د. عادل حسين غنيم

((في كتابه محمد عزة دروزة..... منشورات دار النهضة / القاهرة _ ص 3))

فسر أن ما يقصده من ((الجنس العربي)) ليس الجنس الذي يتميز عن غيره بخصائص جسمانية، حسب نظرية هتلر العرقية، لان نظرية الجنس حكم ببطلانها، وكشف التحليل المخبري فسادها، لاسيما أن الدماء البشرية امتزجت ببعضها منذ حقبة ما قبل التاريخ، وفي الازمنة التاريخية، وانما يعني به ((الشعب العربي)) وهذا ما يظهر من قوله : وأما نقصد المجموعة البشرية التي عاشت في جزيرة العرب منذ أقدم الازمنة التاريخية المعروفة، وتشاركت في اللغة والأفكار والتقاليد حتى صارت جنسا «واحدا»، فلما أخذ ينساح من هذه المجموعة موجات الى المناطق المجاورة للجزيرة، كان ذلك التشارك قد تم بينها، ثم ظل قائما» في اللغة والأفكار والملامح والطباع في مختلف الاطوار والادوار، مما تؤيده الآثار والوقائع والشواهد)).

ألف هذه المجموعات التاريخية ليذكر العرب بأنفسهم، ويربط حاضرهم بماضيهم، وليبين لهم أنهم قوم لهم أمجاد سابقة ورسالة حضارية، وليشعرهم بأنهم سليلو أمة واحدة بالرغم من الظروف القاسية التي ألمت بتاريخهم القديم والوسيط والحديث، وما أن أشرب الاسلام روحهم بالايمان بالله ورسوله وبأنفسهم وبرسالتهم الاسلامية، حتى انطلقوا من موطنهم الاصلي يحرقون اخوانهم في البلاد المجاورة، وينتشرون في بلاد المهاجر، جريا» على عادات آبائهم واجدادهم الاولين، وينشرون لغتهم ودينهم، ويمثلون أطيب ما عندها من حضارات، ومن تمازج هذه الحضارات نمت الحضارة العربية - الاسلامية التي شارك فيها العرب أنفسهم مع غيرهم ممن تعرب من أبناء الشعوب التي دخلت في الاسلام أو التي أنصوت تحت لوائه، ونعم بها العرب وغيرهم، وهكذا حقق العرب رسالتهم في خدمة الحضارة الانسانية ووصلوا ما انقطع من اسبابها في أعالي العصر الوسيط، ونقلوه الى أوروبا، وكانوا عاملا من عوامل نهضتنا الحديثة

ولم تكن الطريق معبدة دوما امام العرب، فقد تعرضوا في حياتهم التاريخية لازمات شديدة أدت الى الضعف، وفقدان السيادة، وانتشار النزعات الانفصالية وتفجر الثورات، وغو الحركات الشعبية، والبدع الدينية التي ترمي جميعا الى دك الكيان العربي الاسلامي وتقويضه. ولكن جوهر العربي الاسلامي ظل سالما لم يمسه، ففي فترات الازمات العvisية التي مرت بهم كالحروب الصليبية والغارات المغولية والاحتلال العثماني وأخيرا التسلط الاستعماري، كانت تعباً الجهود ويمتد الوعي القومي من المثقفين الى صفوف الشعب لتنظيم الدفاع وتحرير البلاد.

وبالرغم من هذه الازمات بقيت البلاد العربية محتفظة بمقومات شخصيتها العربية المتميزة عن غيرها : من لغة عربية فصيحة يحرسها القرآن الكريم، ورابطة روحية دينية في الغالب، وتاريخ حافل بالامجاد، وحيز جغرافي واضح المعالم ومصير واحد وهذا ما أبقى الفكرة العربية بشكل قوة عديدة. فاذا مانفخت فيها الروح العربية تذكرت نفسها، ووعت ذاتها ووحدتها على مرالعصور، لتبنى الحياة من جديد، مستمدة قوتها من جوهرها العربي الاصلي الذي لم يتغير، وأخذة جميع العناصر والاسباب المساعدة على النهوض من جديد. هذه حال العرب عبر العصور : شعب عربي خالد لأموت، وحضارة غنية متطورة، وعزم ثابت لا يضل. أن امة هذا شأنها ليستحيل عليها أن تندثر أو تفنى أو تموت.

وهكذا أعطى الأستاذ محمد عزة دروزة، خلال مجموعاته التاريخية، هذا السلاح الحاد بني قومه

والمستمد من أصول الشعب العربي العميقة، ومن قيمه الحضارية الخالدة : ((وكل هذا مما يحقق القصد الذي قصدنا اليه، ومما يجعل الكتاب، كما نرجو، مفيدا لمن يريد أن يلم بمختلف حلقات وحركات وتاريخ ومآثر الجنس العربي من أقدم الأزمنة الى الآن، متصل بعضها ببعض)).

وللأستاذ دروزة رأيه الخاص في أصل النهضة الفكرية العربية الحديثة، والرد على من يرجعون هذه النهضة الى الحملة الفرنسية على مصر، وما أحدثته هذه الحملة من مؤسسات علمية ونشر الكتب، وفي ذلك يقول :

((مع التسليم باحتمال أن يكون لذلك أثر في نهضة العرب الحديثة، فاننا نعتقد أن فيما يقوله القائلون شيئا غير قليل من الغلو)) وعلى اعتبار أن النهضة بدأت من العرب أنفسهم ومن بلادهم أيضا، ومن ثقافتهم العربية الاسلامية التي استمرت على الدوام عن طريق تعليم اللغة العربية، والتفقه بالدين الاسلامي ودراسة التاريخ العربي الاسلامي، لان هذه العوامل الثقافية لبثت تعمل عملها دون أن ينالها طغيان التركية أو نفوذ اللغات الاجنبية وثقافتها التي انتشرت في الاوساط العربية. وهذا يعني أن النهضة العربية خرجت من هذه الاستمرارية للثقافة العربية الاسلامية، وان الأرض العربية كانت وتظل مستعدة للنهوض، لان النهضة العربية بدأت بدعوة اسلامية عامة في البدء، ومنها الى دعوة اسلامية عربية الى أن انتهت بالدعوة القومية العربية.

وفي الحقيقة، وجدت في البلاد العربية، بالرغم من كل ما قيل ويقال، أمة عربية تعتز بلغتها وأدبها وثقافتها، وتقاليدها العربية وتاريخها ومقدساتها وحيويتها، رغم الوهن الذي أصابها، ولكن كان ينقصها المنبه الذي يوقظها، وقد أتى هذا من الداخل العربي ومن الخارج الاجنبي، عندما عبقت في أجواء العروبة نسمات الحرية والحركات القومية، فاستيقظت وبدأت بحركتها القومية.

وملاحظ أن الأستاذ محمد عزة دروزة كان يتطور في تفكيره القومي ويتكامل حسب مقتضيات الظروف والحاجات العربية الملحقة. واذا بنى الفكرة القومية بادئ بدء، على اساس وحدة الدعم والجنس والدين فقد استدرك قوله هذا، وجعل نظرية القومية العربية أكثر شمولا، وبنائها على الاساس القومي المفهوم، والمعتبر حديثا بصورة عامة وهو وحدة الوطن واللغة والمصلحة والعادات :

((وظاهر أن هذا الاساس أوسع شمولا وأرحب صدرا» من نظرية الدم والجنس والدين، لانه يعتبره عربيا قوميا كل متكلم باللغة العربية وليس له لغة أم غيرها، ومستقر بالوطن العربي، ومندمج في بيئته وعاداته وتقاليد ومصالحه وليس لرحلة وهوى ببلاد وقومية أخرى، مهما اختلفت الاصول والاديان والمذاهب)).

إن مارصده الأستاذ محمد عزة دروزة وسجله في أوراقه، وفي مخططاته الكثيرة، وفي مؤلفاته العديدة من كتب تاريخية أو دينية أو اجتماعية أو سياسية، يحوم حول موضوع واحد وهو الفكرة القومية العربية بكل مقوماتها ومبادئها، وانه يرمى من ورائها الى هدف علمي، وهو خدمة الحقيقة التاريخية العربية، والى هدف تربوي، وهو نشر فكرة القومية العربية في الاجيال العربية، وتحقيقها سياسيا في وحدة عربية متكاملة الاجزاء في ظروفها التاريخي والجغرافي من الخليج الى المحيط.

وكان طوال حياته يتطور ويتكامل، فاذا سجل حادثاً قومياً وأبدى رأيه في حينه، لا يلبث أن يبدل هذا الرأي بما هو أفضل اذا بدا له ذلك، أو اذا غاب عن ذهنه وذكره به صديق، أو اذا أشار عليه رفيق شهد هذا الحادث، وطالب بتصحيحه اذا كان مغايراً لما حدث، أو اذا وقع على وثيقة جديدة لم يطلع عليها من قبل، وكانت تجدد معلوماته ونظريته باسهام جديد، ولذلك كانت مؤلفاته القومية في تجدد دائم، هذا فضلا عن انه كان دائب الاطلاع على ما يجري حوله من حوادث تتعلق بالعالم العربي، أو القضية العربية بعامة والقضية الفلسطينية بخاصة، ويعتبر من وجهة النظر هذه سندا» يركن اليه ويعتمد عليه. وهكذا نرى في مؤلفاته وفي وجهات نظره حداثة دائمة وتصحيحا مستمرا بغية الوصول الى الحقيقة الاقرب للصواب.

وعلى ضوء هذا التطور الفكري تتبين أهداف الفكرة العربية الحديثة بقوله :

((تستهدف الفكرة العربية الحديثة قيام كيان عربي قومي عام، يضم مختلف الاقطار العربية، ويكون موحد الشعور والثقافة والاهداف والمصالح والجهاز السياسي والاقتصادي والعسكري، ويكون من القوة ما يضمن للامة العربية الحرية والكرامة والسيادة والوصول الى مصاف الامم الراقية المتقدمة الحية، وتبوء المركز اللائق لخصائصها وما تشغله من خير جغرافي عظيم في ساحته وموقعة وثرواته ومركزه الممتاز وما لها من نفوذ معنوي قومي في مختلف أنحاء الارض، مع قيام مجتمع متكامل متعاون، يتحقق في العدل الاقتصادي والاجتماعي وتكافؤ الفرص لجميع من يعيش فيه)).

ويرى أن الفكرة العربية ليست حادثاً طارئاً في حياة العرب ((فهي منهم واليههم وعناصرها مفورة وأقوى مما هي في كثير من البلاد التي تحررت واستقلت بعد قيام الحركات القومية في أوروبا، وما ذلك الا لأنها تعتمد على وحده تاريخية قديمة ووحدة روحية، ووحدة ثقافية، ووحدة تشريعية ووحدة اجتماعية ووحدة اقتصادية، اشتملت الوطن العربي منذ أكثر ألف عام دون انقطاع حقيقي)).....

والأستاذ محمد عزة دروزة مسلم مؤمن، والمؤمن هين لين، بعيد عن التعصب الديني الذميمة والعصبية الجاهلية، لانه يعتقد أن الديانات رسالات علوية، وأن العرب المؤمنين ماكانوا في سائر بلادهم، وفي يوم من الأيام، متعصبين لدين من الاديان. وان كانت أكثريتهم تدين بالاسلام :

(والدعوة العربية تهدف الى قوة الامه العربية ووحدتها ونهوضها وتكاملها وازدهارها وتحريرها من الطامعين وعدوان المعتدين، وتمتعها بالعز والكرامة، وكل هذا من صميم مادة الاسلام الاولى. وما دامت عزة الاسلام وانتشاره تحت رايتهم، وما دامت عزة الاسلام تظل رهنا بعزة العرب وقوتهم ووحدتهم، وكلما كانوا أقوياء متحدين وأصحاب عزة وكرامة وحضارة متحررين من العوائق، كان ذلك خدمة للاسلام ونشره وقوته. وهذا فضلا على ان الدعوة العربية لاتخرج عن كونها دعوة اسلامية من حيث أن الاكثرية الساحقة من الجنس العربي تدين بالاسلام).

د. نور الدين حاطوم

((المصدر السابق ص 15_ 22 بتصرف))

((وقد دون دروزة ما شهد وما تيسر له الاطلاع عليه من جهود ومشاهد في مذكرات مفصلة، وهي عادة لم تتأصل بعد في كبار سياسيينا الذين قاموا بدور كبير على امتداد عدة عقود من الزمن. فأهمل كثير منهم تسجيل ما حقق، ولم يحرصوا على جمع وثائقهم أو اوراقهم، أو أنهم لجؤوا الى اخفائها. ونشر دروزة بعض مادون في كتابه ((القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها (1951))) واحتوى صورة واقعية لما جرى في مختلف ادوار القضية الفلسطينية حتى عام 1984 بأسلوب صادق سلس متميز بعيد عن الانفعال والعبادات الانشائية. وظل الجزء الاكثر من مذكراته غير منشور، ولم يتح له أن يرى النور في حياته.

ولاشك ان نشر المذكرات الكاملة لعزة دروزة سوف يكشف جوانب خفية من القضية الفلسطينية يهم جميع الدارسين مطالعتها والاستفادة منها. ولو اتيح ايضا الكشف عن مجموعة الاوراق والمراسلات لدى رفاق دروزة العاملين في الحقل السياسي لأمكن سد كثير من الثغرات في تاريخنا العربي المعاصر)).

وكان عزة دروزة على اتصال بعصبة الشيخ عز الدين القسام في حيفا التي نظمت اولى الحلقات الجهادية ضد اليهود ومستعمراتهم في منطقة حيفا بعد أن أخذ الخطر يتفاقم باتساع الهجرة والبيوع، وشارك دروزة مع الوفود الكبيرة في الاحتفال بتشجيع جنازة القسام ورفاقه، وهو يعتبر حادث استشهاد القسام ((نموذجاً جديداً للجهاد ومثلاً عالياً على التضحية والاقدام... وكان الحادث من الحوافز النفسية القوية للاحداث التالية)).. وبعد تفجر الاحداث في نيسان / ابريل 1963 بين العرب واليهود قرب يافا كان عزة دروزة من بين الذين عقدوا اجتماعاً في نابلس قرروا فيه الاضراب والاستمرار فيه، وتألفت لجنة سميت باللجنة القومية من مختلف الاحزاب، وأبرقت للمدن بأن تحذو حذو نابلس وتعلن الاضراب والاستمرار فيه وتؤلف اللجان القومية، وعم الاضراب جميع مدن فلسطين. ويرى دروزة ((أن قضية الكفاح القومي قد دخلت مرحلة جديدة منبثقة من صميم الشعب).

وقد سعى مع سائر الاستقلاليين للعمل على تأليف قيادة مشتركة هي اللجنة العربية العليا من رؤساء الاحزاب، برئاسة الحاج أمين الحسيني رئيس المجلس الاسلامي، ومثل حزب الاستقلال عوني عبد الهادي، وسمى سكرتيراً أول للجنة، وأعلنت اللجنة استمرار الاضراب الى ان تغير الحكومة الإنجليزية سياستها، واعتقل العديد وزجوا في عوجة الحفير وفي صرفند لتحميلهم مسؤولية الاضراب وحوادث العنف، ((وكان أكثر اركان حزب الاستقلال واعضاء فروعهم من أوائل المعتقلين الذين ظل اعتقالهم يتجدد الى نهاية الاضراب)) ومن جملتهم عوني عبد الهادي الذي كان يشغل سكرتير اللجنة العربية العليا، فلما اعتقل حل محله في سكرتيرية اللجنة عزة دروزة، ولم يمض يومان عليه حتى اعتقل هو الآخر وكان قبل ذلك تابعاً لمراقبة البوليس. وفي محاولة من الادارة البريطانية لتخفيف الاضطرابات وتهيباً لقدم لجنة التحقيق الملكية، سعت الى اجراء لقاءات مع المعتقلين لتوسيطهم ومهادنتهم، كما حاولت ادخال الحكام العرب في اطار الاحداث فتدخلوا كوسطاء للتهديئة.

وفي آب 1963 قام وزير خارجية العراق نوري السعيد، الذي كان يقوم بمهمة الوساطة لحل القضية الفلسطينية، قام باجراء محادثات في صرفند مع عوني عبد الهادي وعزة دروزة، وذلك لحمل اللجنة

وأشهد _ وقد تعاونت معه منتدبا لشؤون الاعلام ومتخذاً من المكتب العربي القومي مركزاً لعمله ان عزة كان يبذل فوق الجهد في عمله، ويضطلع بتبعات جسام، يذلل العقبات، ويروض الجمحات، ويوجه سياسة القيادات. ولا أتحدث الان عن وقائع ثورتنا الكبرى وايفاد التقسيم وقولها باستحالة تنفيذ التقسيم، وما عقب ذلك من عقد مؤتمر سان جيمس وانبثاق الكتاب الأبيض عنه، وجهود الأستاذ دروزة في ذلك كله، حتى اذا نشبت الحرب العالمية الثانية تضامن الفرنسيون والإنكليز في مكافحة الثورة ومطاردة قادتها، وبادرت السلطات الفرنسية الى اعتقال عزة ومحاكمته امام محكمة عسكرية بتهمة تمويل الثورة وصنع متفجرات وترؤسه مشروع مصنع قتال، فحكمت عليه بالسجن خمس سنوات، قضى أربعة أشهر منها في قلعة المزة واثنى عشر شهراً في قلعة دمشق، وفي أثناء ذلك حفظ ثلثي القرآن الكريم وألف كتب : (عصر النبي وبيئته قبل البعثة) و (سيرة الرسول) (والدستور القرآني) .

أكرم زعيتر

الشرق الأوسط 1984/8/9.

((لا أذكر منذ سنوات طويلة أنني تغيبت أسبوعاً واحداً عن خميس أبي زهير (محمد عزة دروزة) الذي ينعقد في منزله بروضة دمشق من الساعة التاسعة صباحاً حتى موعد صلاة الجمعة. والذين زاروه ويزورونه يرون آثار فلسطين مجسدة شاحسة في اهاب المجاهد العالم، المؤرخ، والسياسي، والمفسر محمد عزة دروزة، وكلما ذهب اليه رفقة أحد الباحثين او الادباء العرب او الاجانب من المستشرقين تنبسط أساريه قائلاً ضاحكاً : ((أصبحت كالأثار يسعى اليها كل من شاقته الذكرى الى صفحة حية من تاريخ القضية الفلسطينية والعربية)) .

حسين عمر حمادة

الحرية 1984/8/5 العدد 77 / 1152

تاريخنا لم يكتب كاملاً « متكاملًا » بعد. وتاريخ الحركة العربية الحديثة. في القرن الذي يوشك أن تغرب شمس عقده الاخير، لايزال يحتاج الى جهود كثير من الباحثين المجددين والمجتهدين. وبعض رواد هذه الحركة يتعبك البحث عن معلومات متناثرة حوله، لم تجمع، ولم توثق.... والبعض الآخر يتعبك ان تكتب عنه في مثل هذه العجالة، بسبب وفرة المعلومات عنه. وقد يكون محمد عزة دروزة ابرز اسم في هذا الفريق الآخر. فقد ترك ميراثاً مكتوباً من الاف الصفحات، جزء كبير منه روى فيه وقائع وتاريخ الحركة العربية الحديثة بل التاريخ العربي بعامة، وسجل في هذا الميدان مبادرات رائعة، كما سجل تاريخ حياته مفصلاً..

ومع ذلك فان سيرة الرجل ((لم تدرس ولم تعمم)) كما يقول ناجي علوش، ولذلك ((كان عزة دروزة معروفاً، وغير معروف، لأن اسمه لم يكن سهلاً أن يغيب، ولكن حقيقة دروزة منذ سنة 1908، في ميداني السياسة العملية والنظرية، كان غائباً، وأفكاره كانت محصورة في كتب لم يهتم أحد بتعميمها. ولولا جاذبيتها الخاصة، ومادتها التاريخية والسياسية، وحاجة القارئ العربي الى مثلها، لما وصلت الى احد.

العربية العليا على انهاء الاضراب والاضطرابات باصدار بيان تطلب فيه من الاحزاب والاهالي الكف عن اعمال العنف، على ان تعلن الحكومة بعد مرور مدة لاتزيد على الخمسة عشر يوماً» وقف الهجرة وفقاً عاماً، وتعلن كذلك مبدأ العفو العام ورفع الغرامات. وصرح نوري السعيد بأنه لايقدم على هذا التوسط الا اذا وفق بنيل المطالب المذكورة مبدئياً. وقد طلب السكرتير العام لحكومة فلسطين السماح لعوني عبد الهادي وعزة دروزة بالحضور الى القدس للمعالجة وأن يجتمعا ببعض الزعماء، ويقول دروزة إنه تم الاتفاق بين اللجنة ونوري السعيد على قبول الوساطة ((... وانتعشت آمال عرب فلسطين خاصة لانهم رأوا في تدخل ملوك العرب وامرائهم وموافقة الإنكليز عليه تطوراً عظيم الخطورة في قضيتهم اذ بعيدا الى نطاق الحركة العربية العامة)).

د. خيرية قاسمية

((المصدر السابق ص 22 _ 41 بتصرف)) .

((ومما أذكر أنه في حين قررت مدينة نابلس في 20 نيسان 1926 الدعوة الى اضراب عام يستمر حتى تقف الهجرة اليهودية والى تأليف لجان قومية في سائر البلاد للاشراف على سير الاضراب وتنظيم الحركة أنني تلقيت هاتفاً من الأستاذ عزة من القدس _ يشجعنا فيه على المضي في حركتنا ويعلمنا أنه أعد بياناً باسمه، وعوني عبد الهادي، وشومان، ونويهض ينددون فيه بالسياسية البريطانية الغاشمة ويؤيدون دعوة نابلس الى الاضراب والى تأليف اللجان القومية، والاستمرار في الكفاح حتى تتغير السياسة التي أدت الى هذه الفواجع.... واستجابت البلاد لدعوة نابلس، وتألقت اللجان القومية في المدن والقرى ثم تألفت اللجنة العربية العليا من ممثلي الاحزاب برئاسة المفتي وكان للأستاذ دروزة جهد في تأليفها واشتدت الحركة، وشرعت السلطة تعتقل العاملين..... وحين اعتقل عوني عبد الهادي عميد الاستقلاليين حل عزة دروزة محله في أمانة سر اللجنة العليا، ثم مالبثنا في معتقل صرفند حتى استقبلنا عزة دروزة نفسه معتقلاً، وأشهد أنه كان في المعتقل، رحب الصدر، طويل الاناة، وقد فوجئ ذات يوم بضابط المعتقل يقول له : (لقد أذنت السلطة لك بترك المعتقل يوماً كاملاً تذهب فيه الى القدس وتعود غداً) وأدركنا أن سماحة رئيس اللجنة العليا هو الذي طالب باستدعائه لاستشارته في أمر مفاوضات تجري مع نوري السعدي وزير خارجية العراق، فزودناه بوجهة نظرنا ورجواناه أن يطلعنا على مسيرة الثورة، وأنباء القائد القاقجي القادم من العراق ليقود الثورة، وفي اليوم التالي عاد الينا يخبرنا بالعجب العجاب من ضرواة المقاومة وانتصارات القاقجي، ومما علمناه ان الإنكليز أوفدوا اليه وهو في القدس الضابط راييس يقول له : (علمنا ان والدتك مريضة وأنها بحاجة الى بقائك بجانبها، فاذا أردت ابقيناك في القدس) فأجابهم بالرفض مؤكداً أن والدته تتمتع بصحة جيدة، وأن العودة الى المعتقل أحب اليه من اللجوء الى هذه الاكذوبة.

وأطلق سراح عزة بعد ثلاثة أشهر من الاعتقال، وعلى أثر وقف الاضراب أوفدت الحكومة البريطانية لجنة ملكية للبحث في أسباب الثورة وتقديم توصيات لمعالجة الحال، وأوفدت اللجنة العليا الى السعودية والعراق للمشاورة في الموقف مع المرحومين، عزة دروزة وعوني عبد الهادي والشيخ كامل القصاب، ومعين الماضي، وقد استنفر الوفد السعودية والعراق لمساعدة الثورة في حالة أمين فقد أستطاع الهروب الى لبنان، والاقامة في بيروت، كما أقام عزة في دمشق يدير شؤون الثورة ويضمن تمويلها وتغذيتها

وفي حياة هذا الرجل، تمتزج السياسة بالثقافة، ويتداخل النشاط والممارسة بالفكر والكتابة، فاذا هو من القلعة النادرة التي توصف بأنها رجال الحركة والفكر، وأن كان الأخير قد طغى على الأول، خاصة منذ 1984، عام النكبة الأولى، فبرز المؤلف على حساب السياسي، والكاتب على حساب الحركي، دون أن يقتل الأول الثاني أو يدفنه بشكل كامل. فقد ظل الرجل قريبا من الحياة السياسية، حتى أواخر أيام حياته. ولد محمد عزة دروزة في منتصف عام 1887، في نابلس، مدينة جبل النار الفلسطينية المعروفة، والتي كتب عنها صفحات ضافية في مذكراته، أوضح فيها معالم المدينة الجغرافية والعمرانية، وعادات أهلها وتقاليدها، واقتصادهم، ومختلف شؤون حياتهم...

وبالرغم من أن والده كان يعمل بتجارة الأقمشة، فإنه لم يملك القدرة المالية التي تمكنه من إرسال ابنه لإكمال دراسته في الاستانة أو أي مدينة أخرى غير نابلس، ومما اضطره إلى الالتحاق بالعمل وهو في سن التاسعة عشرة. ولكن انقطاعه عن الدراسة لم يصرفه عن مواصلة تثقيف نفسه بشكل جعله يتفوق على أنداده الذين واصلوا دراستهم العلمية في الاستانة أو في غيرها.

ويروى هو هذا الفصل من حياته، فيقول: ((وكان الطلاب يذهبون إلى بيروت والأستانة يأتون في عطلة الصيف، فيكون لهم موسم في نابلس، ويذهب الناس للسلام عليهم، ويسمعون منهم الأحاديث عن مدارسهم وحياتهم.. ولقد كنت أنا متفوقا في المدرسة فحفظتني حالتهم على تلاقي ما ضاع علي من فرصة إتمام الدراسة في المدارس مثلهم، بالقراءة والمطالعة والدراسة... وصرت أقرأ ما يقع في يدي من كتب مختلفة عربية وتركية، وأدبية وشعرية وتاريخية وروايات ورياضيات وحقوق واقتصاد... الخ... وصرت في موسم مجيء الطلاب من الخارج، أذهب للقائهم سواء من كنت أعرفه قبل، وأتداول معهم الأحاديث المتنوعة، وأسمع منهم وأسمعهم. وكان ذلك أحيانا في حضور آبائهم وغيرهم، حتى لقد كنت ندا لهم بل ومتفوقا على بعضهم، مما كان يرضي غروري، ويسد ما جدد من ثغرة سوء حظي في عدم ذهائي لإتمام الدراسة خارج نابلس.)

عبد المال الباقوري

الاتحاد، الامارات العربية المتحدة، ديسمبر / كانون أول 1991

((ويرى الأستاذ دروزة أن الطريقة الثالثة (من طرق تحقيق الوحدة العربية). قد تكون: ((الأكثر انطباقا على حالة الأمة والبلاد العربية اليوم)). كما يرى ((ضرورة تبني إحدى الدولة العربية الدعوة إلى الوحدة، وحمل رايتها)). وهو يرشح مصر وسوريا لذلك، موضحا «كيف راهنت الحركة القومية على العراق الفيصلي في البدء، وكيف كان هو من دعاة هذا الاتجاه. إلا أن وجود دولة تتبنى الوحدة لا يكفي، فهناك حاجة ماسة لوجود جهاز شعبي. ((ومهما يكن من أمر فإن الحاجة إلى جهاز قومي، يتفرغ للدعوة إلى الوحدة، ويعمل في سبيلها، ويقوم بمختلف المساعي والاتصالات في مختلف أجزاء الوطن، ومع مختلف هيئاته الشعبية والحكومية، تظل شديدة كحاجتها إلى دولة تتبناها، حيث يكون الجهاز عضدا» شعبيا لهذه الدولة. ويقترح ثلاث صيغ لسد هذا الفراغ :

الأول : أن يأخذ الكتب الدائم لمؤتمر الخريجين الجامعيين على عاتقه ذلك، ويتفرغ له.

الثاني : أن يتألف لجنة في البرلمان السوري من كل الاتجاهات لخدمة هذه الغاية.

الثالث : أن تتألف ((لجنة الوحدة العربية)) في مصر أو سوريا، من عدد غير كبير من القوميين البارزين وتختار مكتبا «دائما»، وتكون له فروع في الاقطار.

ولقد سعى الأستاذ محمد عزة دروزة إلى بناء هذا التنظيم بعد النكبة، وعلى أساس الدعوة لاتحاد سوريا والعراق. ثم تبني الدعوة لوحدة سوريا ومصر، وشجعه على ذلك قيام ثورة الثالث والعشرين من يوليو (تموز). واتصل من أجل ذلك بالعديد من زملائه في الحركة القومية ومنهم أحمد قذافي وبهجت الشهابي وعبد القادر الميداني وغيرهم. ولكن الجهود لم تؤد إلى تحقيق هذه الغاية. وعلى الرغم من قناعة محمد عزة دروزة بالوحدة الكاملة، وإصراره عليها، طوال حياته، فإنه كان يرى أن الظروف لا تسمح بتحقيق الوحدة الشاملة، ولذلك دعا إلى الاتحاد، وقدم مشروعا اتحاديا.

ولقد كان يرى في الاتحاد خطوة على طريق الوحدة، ولم يكن يراه حلا نهائيا، ولا كان يعتبره مشروعه، وأنها كان يلجأ إليه، لزيادة التفاعل القومي، ورد المخاطر الخارجية.

ومن هذا المنطلق أيد مشروع الاتحاد بين سوريا والعراق في أوائل الخمسينات، وأيد مشروع الاتحاد بين مصر وسوريا سنة 1956، وأيد وحدة مصر وسوريا سنة 1958، معتبرا أنها تجاوزت كل ما كان متوقعا. وظل وفيا للوحدة، عند حدوث الانفصال، حتى أنه قاطع زميلا «عزيزا» عليه، مثل شكري القوتلي، لأنه أيد الانفصال سنة 1961)).

ناجي علوش

((مختصرات قومية... مراكز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1988م، ص 37))

((شاب من شباب نابلس يحق لكل عربي متنور أن يفخر بمثله، كيف وهو ذلك الشاب المفكر عزة دروزة الذي يسعى سعيا «حثيثا» لإحياء اللغة العربية، وبث روح الوطنية، وينبه الشبيبة للعلم، ويحرض كبار القوم لافتتاح المعاهد العلمية.....))

عبد الغنى العريسي وفؤاد حنتس،

في عدد 11/11/1911، و 29/11/1911.

الأستاذ محمد عزة دروزة من المفكرين الفلسطينيين البارزين، ولد في مدينة نابلس سنة 1888م، وأكمل دراسته الابتدائية والاعدادية سنة 1906م، وعمل في مطلع حياته في دائرة البرق والبريد حتى صار سكرتيرا لديوان المديرية العامة في بيروت، ثم تركيا ليصبح مديرا لمدرسة النجاح الوطنية في نابلس سنة 1922_1927 م ثم صار مديرا للاوقاف الاسلامية في فلسطين من سنة 1933 م إلى خريف 1937 م فأقالوه ولم يعد بعد ذلك موظفا وذلك بسبب مشاركته الفعالة في هذه الثورة.

كان دروزة منذ مطلع حياته واعيا حر الفكر واسع الأفق. فهو من المفكرين القلائل الذين قدر لهم أن يعيشوا أحداث قرن كامل، وأن يسهموا في مجريات الأحداث حيث عمل لفترة طويلة مع المرحوم الحاج أمين الحسيني في الهيئة العربية العليا ولجانها المتعددة كما أنه من المفكرين القلائل أيضا الذين لم يعملوا في تكوين ثقافتهم على المدارس أو المعاهد أو الجامعات، ولم يعتمدوا على الأساتذة الذين يخرجون تلاميذهم بنظام محدد، ومنهج رتيب، بل كون معظم ثقافته بجهده وعصاميته ومطالعاته وملاقاته كبار العلماء والادباء والباحثين. وربما أمكن القول أن الطابع الغالب على ذهنيته وبالتالي على

كتبه ومؤلفاته هو الطابع التاريخي، فهو إلى جانب كونه أحد المفكرين العرب المسلمين معروف كمؤرخ مرموق، فقد كان مقررا للجنة التاريخية في مجمع اللغة العربية بالقاهرة وعضوا «مرسلا» فيه. ويمتاز الأستاذ دروزة بغزارة انتاجه حتى بلغ ماكتبه حوالي 50 ألف صفحة طبع منها أكثر من عشرين ألف صفحة ولا يزال الباقي مخطوطا « قيد الطبع الآن». ومن بين كتبه المطبوعة التي لاقت صدى واهتماما كبيرين في أوساط المثقفين : حول الحركة العربية الحديثة، الوحدة العربية، تاريخ الجنس العربي، مأساة فلسطين، في سبيل قضية فلسطين، عصر النبي وبيئته قبل البعثة، سيرة الرسول، التفسير الحديث، القرآن والملحدون، القرآن والمبشرون، الدستور القرآني في شئون الحياة.

وجدير بالذكر أن الأستاذ المفكر محمد عزة دروزة انتقل الى جوار ربه صيف 1984 م ووري جثمانه في مدينة دمشق وكنت قد أجريت معه قبيل وفاته لقاء شيقا دام أكثر من ساعتين وتناول أهم منجزاته الفكرية والعلمية. وقد ترددت طويلا في نشر ما دار في هذا اللقاء لأن الرجل ومنجزاته أصبحا بعد وفاته في ذمة التاريخ، ولكنني أدركت فيما بعد حاجة القراءة لمعرفة ما قدمه هذا المفكر العربي الكبير الذي يحتل قمة شامخة من قمم الفكر الفلسطيني المعاصر من جهود وإسهامات في حقول المعرفة عامة وفي حقلي التاريخ والسياسة بوجه خاص. وهما الحقلان اللذان ميزا ذهنيته العلمية خلال سني حياته الحافلة بالاحداث والاعمال، وربما كان هذا هو السبب الذي تم من أجله هذا اللقاء)).

د. حسن السلوادي

((الإبداع والفهم الواعي)) جولة في رحاب التاريخ، القدس 1989 م ص 72_74

عمله في مدرسة النجاح

((منقولا بحرفه من الجزء الاول من مذكراته منشورات دار العرب الاسلامي / بيروت المجلد الاول ص 520_522)).

ارتباك حالة المدرسة :

لما عدت من المؤتمر الرابع اتصلت بمدرسة النجاح لأعرف حقيقة الموقف الذي جعلهم يستدعونني، فعرفت أن المدرسة تمر في ظرف ارتباك. لأن أديب مهيار الذي عين مديرا بعد انسحاب علاء الدين حلاوة عجز عن المهمة، وأن المؤسسين كانوا فريقين : فريق يمارس التعليم في الوقت نفسه وهم داود طوقان والشيخ فهمي هاشم وجميل كمال وفارس السخن بالإضافة الى أديب مهيار. وفريق مناصر وهم إبراهيم القاسم عبد الهادي وكامل هاشم والحاج قاسم كمال.

قرار المؤسسين بتوسيع نطاق هيئتهم وتعييني مديرا:

وقد اتفقوا أولا على توسيع نطاق المؤسسين، فقرروا أولا ضمي وضم الدكتور مصطفى بشناق وحلمي المهندس وعبد السلام البرقاوي اليهم كمؤسسين، والأخير كان شابا ذكيا نشيطا، يقيم في جنين، فأروا فائدة في ضمه حيث يمكن أن يقوم بالدعاية للمدرسة في جنين وقراها. أما الدكتور بشناق وحلمي المهندس فقد أختيرا لثقافتهما وجدتهما. وثانيا على عرض مديرية المدرسة علي بأمل أن أنهض بها.

صلاحي السابقة بالمدرسة :

وكانوا عرفوا نشاطي وبروزي في العهد الفيصلي في دمشق وقبله في فلسطين في الحركة الوطنية، ولم أكن غريبا، عن المدرسة لأنني كما ذكرت قبل راقني قيام المدرسة حين عدت من بيروت ورأيتها قائمة، وصرت كأني أحد مؤسسيها أتردد عليها دائما، وأسهم في التفكير في كيفية نهوضها ومنهجها، بل وكنت أعقد أحاديث اجتماعية وتاريخية ووطنية وإسلامية للطلاب، فكان هذا على الأغلب ما جعلهم يقررون ضمي الى هيئة التأسيس وعرض مهمة المديرية علي.

الشروط التي أشرت عليها للقيام بالمهمة ومبرراتها وقبولها :

وقد رأيت أن أشرت شروطا « لتولي هذه المهمة، وهي أن تتجمد صلاحيات المعلمين المؤسسين لأنهم يجب أن يكونوا ملتزمين واجب التعليم ومقتضياته، وهي مراقبتهم من قبل المدير وتوجيههم وكبحهم، أما إذا ظلوا أصحاب حق في القرارات الادارية والمالية فان ذلك يؤثر في هذا الواجب ومقتضياته، ويحول دون حزم الادارة وكبحها نحوهم فمن لا يجب ان تتجمد صلاحياته كمؤسس فعليه ان يتخلى عن التعليم، على ان أكون أنا مستثنى من هذا التجميد، لأنني مدير المدرسة المستهدف لنهوضها وتحسين أمورها فلا بد من أن يكون لي حق في المشاركة في القرارات الادارية والمالية. ومن الشروط التي أشرت عليها ان يكون المعلمون متفرغين للمدرسة، حيث كان بعضهم أي وصفي عبد الهادي وعزة عبده السجدي موظفين في حكومة فلسطين ومعلمين في المدرسة في الوقت نفسه، ورأيت أن هذا مما يؤثر على سير التعليم وترتيب

المنهج اليومي، فيخيران بين الاحتفاظ بعلمهم في المدرسة والتفرغ له أو التخلي عنه وتعيين بديلين عنهما متفرغين.

وقد قبلت أكثرية هيئة التأسيس شروطي، وجرى التخيير فوافق كل من أديب مهيار وفهمي هاشم وفارس السخن وجميل كمال على تجميد صلاحياتهم في التأسيس والتفرغ للتعليم وواجباته. وأختار داود طوقان أن يحتفظ بصلاحيه التأسيس ويتخلى عن التعليم، وأختار وصفي وعزة البقاء في وظائفهم الحكومية والتخلي عن التدريس في المدرسة.

نشاطي في أثناء عطلة سنة ١٩٢١ م لإعداد العمل في أول السنة الدراسية:

وفي أثناء العطلة المدرسية أي حزيران وتموز وأب سنة 1921، هيأت نظاما لإدارة المدرسة والمعلمين وتعليمات للدراسة، وتعاقدت مع معلمين جدد لسد فراغ المنسحبين من التعليم في صف جديد استعدادي كان قد تقرر إحداثة وهو الصف الاستعدادي الرابع، وكان ممن تعاقدت معهم جورج بارودي (لبناني) وهو خريج من الجامعة الأميركية ومتخصص في تعليم الرياضيات والطبيعات، وأسبر يدون شاهين (لبناني) الذي رشح لنا لتعليم اللغة الإنكليزية، وكان قد درس سنتين زيادة عن التعليم الثانوي في الجامعة الأميركية، وخليل خماش من نابلس الذي كان ضابطا في الجيش الإنكليزي لتعليم بعض حصص في الرياضيات من جهة والقيام بمهمة مراقب عام للطلاب من جهة أخرى، وكان صارما ومطيعا للتعليمات ومنضبطا، وساعد كثيرا في ضبط سلوك الطلاب وخروجهم ودخولهم ودوامهم.

واستحضرت ما تحتاج اليه الصفوف من كتب مدرسية عربية وإنكليزية من بيروت ومصر، حيث رأيت هذا جوهريا لانتظام الدراسة والتأثير على المعلمين والطلاب في بدء السنة الدراسية، ورتبت ميزانية للمدرسة، وكل ذلك لم يكن موطدا مستقرا، وطبعت منشور وزعت في نابلس وقراها، وفي مدن فلسطين الأخرى، مبشرة بعهد جديد للمدرسة العربية الإسلامية الوطنية، وداعية للاقبال عليها ولم يخيب الأمل، فما حل وقت بدء الدراسة وهو أيلول 1921، حتى كان الاقبال حسنا من أهل نابلس وقراها والمدن الأخرى، وزاد عدد الطلاب زيادة حسنة داخليين وخارجيين على السواء، وقد جددت بعض المقاعد، والألواح والأسرة والأدوات المتنوعة للمطعم والمنامة وغرف الدرس، واجتهدت ليكون أول يوم البدء يوما دراسيا، وعينته باصرار ودقة أوقات بدء الحصص ونهايتها والفرص أثناءها، وألزمت المعلمين بأن يكونوا على رأس عملهم بكل دقة، وكنت أتي للمدرسة مبكرا قبل أن يأتي أحد وأظل الى ساعة متأخرة في الاعداد والتحضير، وعهدت لأديب مهيار الأعمال الحسابية، مع بعض ساعات تدريس وسميته مديرا ثانيا لحفظ اسمه، وأخذت أنا أيضا بعض حصص تدريس، وما حل أول يوم للدراسة المعين وهو أول أيلول 1921 م حتى كان كل شيء مهيا للدراسة والنوم والطعام والمعلمين والنظام والخروج والدخول، وأسبغ كل هذا على المدرسة جوا مهيبا وجادا للمعلمين والطلاب وأهلهم على السواء، وكل ما تقدم صار تقليديا مستمرا محافظا عليه طيلة السنوات الست الدراسية التي توليت إدارة المدرسة فيها، من بدء السنة الدراسية 1921 / 1922 م الى نهاية السنة الدراسية 1926، 1927 م.

أحمد صدقي الدجاني

د. بسمه أحمد صدقي الدجاني

د. فاطمة محمد أمين العمري

أحمد صدقي الدجاني المفكر الأديب

الملخص:

أحمد صدقي الدجاني مُفكّر شجاع وأديب بليغ معطاء ومُجدد ذو بيان طَوَّع اللغة العربية كتابةً، وما نطق بغير الفصيحة الجزلة تحدثاً لمدةِ إثنتين وخمسين عاماً، فكان نموذجاً فريداً جاذباً يُقتضى تعميمه للذود عن العربية الفُصحى وخدمتها.

ينهض هذا البحث لدراسة أعمال الأستاذ الكبير «الدكتور» أحمد صدقي الدجاني «الأديبة» المتعددة التي تركها للمكتبة العربية، واستقرائها بغية رسم ملامح هويته «كأديب» والتي يفترض هذا البحث أنها تتقاطع مع عددٍ من أعلام الأدباء العرب.

فكتابات الدجاني «الفكرية والسياسية والتاريخية والنضالية التي تربو على خمسين كتاباً ومئات المقالات والأبحاث»، وإن كانت تُصاغ بأسلوب رفيع، ولُغة بليغة إلا أن هذا لا يُعطيها صفة الأدب، غير أن الدجاني أبدع إنتاجات أدبية صرفة تجعلنا نضعه في صفوف الأدباء دون مُجاملة.

فللدجاني مسرحية لطيفة لا تخلو من سُخرية مُبطنة تقترب من سُخرية الحكيم. وكتاب «رحلات ولحظات مُمتدة» يتعلّق بأدب الخواطر والسفر والسياحة في أرجاء المعمورة تضمن تعريفاً للإشراق واللحظة الممتدة التي يعيشها الإنسان طويلاً وعرضاً وعمقاً فيُقاس عُمره الحقيقي بها.

وللدجاني «رسائل إلى ولده» «تقف إلى جانب رسائل أحمد أمين إلى أولاده».

وللدجاني مُراجعات في مُذكراته «لقاء الكهل بالشاب الذي كانه» وهي عمل أدبي فريد يجمع بين ذاكرته المتصلة بفن السينما بما فيها من استرجاع، بالإضافة إلى أنها شيء من السيرة الذاتية. كما أن للدجاني مُراجعات أدبية ونقدية لعددٍ غير يسير من الأفلام العالمية والروايات التي يعرضها أو يُعيد النظر فيها بعين الأديب الناقد.

هذه الأعمال وغيرها تُرشح أحمد صدقي الدجاني لدراسة من هذا النوع. وهذا ما حدا بهذه الدراسة إلى اتخاذه موضوعاً لتكشف النقاب عن جانب أدبي مُشرق لم يتم الكشف عنه حتّى الآن في أعمال المفكر العربي «الراحل» أحمد صدقي الدجاني رحمه الله.

حياته:

وُلِدَ الْمُفَكِّرُ أحمد صدقي بن محمد الطيب الدجاني في يافا في السابع من أيار عام 1936م العام الذي شهد ثورة القسام وبداية النضال، فكان مولده فيه علامة فارقة حكمت عليه بالمقاومة طيلة عمره النبيل، إذ قضى حياته مُناضلاً سواءً أكان ذلك على مُستوى الأعمال الطلابية، ولجان العمل والمنتديات الصغيرة أم كان على مُستوى المجالس الوطنية والمركزية التي شارك في أعمالها.

تلقى الدجاني تعليمه الابتدائي في مدرستي النهضة الإسلامية والمدرسة العامرية بيافا حتى عام 1948م ثم انتقل بعدها إلى اللاذقية بسوريا ليتلقى تعليمه المدرسي المتوسط ويحصل على شهادة الثانوية التي أهلته لنيل الإجازة في الآداب من قسم التاريخ في جامعة دمشق بسوريا التي غادرها إلى مصر ليحصل فيها على درجة الماجستير في التاريخ من جامعة القاهرة، ثم الدكتوراه من الجامعة نفسها عام 1970م. هذه المثابرة على التحصيل العلمي لم تقف بين الدجاني والمشاركة في الحياة الاجتماعية والسياسية والأكاديمية؛ إذ عمل الدجاني مُدرّساً في مدارس إعدادية وثانوية ومعاهد مُعلمين في سوريا ولبنان، وعمل في التدريس الجامعي في معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة، وكلية التربية بجامعة طرابلس الغرب، وكلية الإعلام بالجامعة اللبنانية، بالإضافة إلى مشاركته في تأسيس لجنة العمل الفلسطيني بطرابلس الغرب، وإسهامه في نشاطات مُنظمة التحرير ونشاطات العمل العربي المشترك، وفي الحوار العربي الأوروبي الشمالي، والحوار العربي اللاتيني.

كما أنه كان عضواً فاعلاً في المؤتمر الفلسطيني التأسيسي والمجلس الوطني والمجلس المركزي، والصندوق القومي، واللجنة التنفيذية، وكان عضواً في الوفد الفلسطيني للأمم المتحدة بين عامي 1977م و1984م، وعضواً مؤسساً في المؤتمر القومي العربي.

كما أنه شغل منصب مدير عام دائرة التنظيم الشعبي والشباب، ومسؤول الحوار العربي الأوروبي بين عامي 1975م و 1985م، ورئيس المجلس الأعلى للتربية والثقافة والعلوم، ورئيس المشارك العربي للجنة الثقافة والعمل والشؤون الاجتماعية في الحوار العربي الأوروبي بين عامي 1975م و 1989م، ونائب رئيس المنظمة العربية لحقوق الإنسان، والمنسق العام الأول للمؤتمر القومي الإسلامي بين عامي 1994م و 1997م.

غير أن كل هذا النشاط الاجتماعي السياسي الأكاديمي لم يَحُلْ دون تشكُّل الملامح المُميزة لشخصية الأكاديمي الباحث، والسياسي المثقف، والاجتماعي المرن التي أفرزت باجتماعها شخصية مُفكر مُثقف لا تكاد تشبهها شخصية أخرى بأبعادها النضالية والعروبية والإسلامية.

ونعني بتلك الملامح المُميزة الشخصية الإبداعية المنتجة على صعيد الفكري والأكاديمي والثقافي والحضاري ثم الأدبي على حدٍّ سواء ذلك أنَّ الدجاني مؤلَّف مُتخصِّص وكاتبٌ مُبدع وأديبٌ رقيق رَفَدَ المكتبة العربية بأكثر من خمسين كتاباً في التاريخ والفكر السياسي، والدراسات المستقبلية والتاريخية، والتأملات التي يمكن أن نسميها سيرة ذاتية، ومسرحية، ورسائل إلى ولده بل أولاده، وعدد من الأبحاث

والدراسات في التاريخ والعلوم الإنسانية في الصحف والمجلات، ومداخلات مُتعددة في المنتديات والمؤتمرات التي شارك فيها.

عاش الدجاني حياته الحافلة مسكوناً بِهُموم المُثقف والمُناضل التي رافقته في كل مكان فكانت واحداً من أفراد أسرته التي ضُمّت بالإضافة إلى السيدة حرمه الفاضلة سنا الدجاني أربعة من الأولاد هم مزنة والطيب وبسمة ومهدي واثنا عشرة من الأحفاد والأسباط عاشوا في كنفه ورافقوا رحلته إلى جوار ربه في التاسع والعشرين من كانون الأول عام 2003م رحمه الله.

مؤلفاته:

- 2003 زلزلة في العولمة وسعي نحو العالمية
- 2002 القدس وانتفاضة الأقصى وحرب العولمة
- 2001 انتفاضة الأقصى وتفجر الحل العنصري في فلسطين
- 2001 الخطر يتهدد بيت المقدس
- 2000 عرب ومسلمون وعولمة
- 1999 مسلمون ومسيحيون في الحضارة العربية الإسلامية
- 1999 لقاء الكهل بالشاب الذي كانه
- 1999 أزمة الحل العنصري لفلسطين وسبيل تحريرها
- 1998 تفاعلات حضارية وأفكار للنهوض
- 1996 تجديد الفكر استجابة لتحديات العصر
- 1994 لا للحل العنصري في فلسطين - شهادة على مدريد وأوسلو
- 1994 في مواجهة نظام الشرق الأوسط
- 1994 عمران لا طغيان
- 1993 الحوار العربي الأوروبي - النشأة والمسار
- 1991 عن المستقبل برؤية مؤمنة مسلمة
- 1991 الانتفاضة وزلزال الخليج
- 1990 وحدة التنوع وحضارة عربية إسلامية
- 1990 في الطريق إلى حطين والقدس
- 1990 الانتفاضة وإدارة الصراع
- 1989 مدرسة عربية في علم السياسة
- 1989 الانتفاضة والتحرير
- 1988 مستقبل الصراع العربي الصهيوني
- 1988 الانتفاضة الفلسطينية والصحة العربية
- 1987 نظرات في قضايا معاصرة
- 1987 العلاقات العربية الأوروبية
- 1986 وثائق الحوار العربي والأوروبي

1986 عن شعب فلسطين العربي

1986 بداية الصحوة العربية في مواجهة الغزوة الصهيونية

1985 فكر وفعل

1985 حوار ومطارات

1984 نحو استراتيجية عربية للمواجهة

1984 صبرا وشاتيلا

1983 رؤى مستقبلية عربية للثمانينات

1981 عروبة وإسلام ومعاصرة

1980 منظمة التحرير الفلسطينية والحوار العربي الأوروبي

1980 الصراع العربي الإسرائيلي ومسيرة الشعب الفلسطيني في الثمانينات

1979 رحلات ولحظات ممتدة

1979 العرب في مواجهة عالم متغير

1978 نظرات في تاريخ فلسطين - نشر فصولاً

1978 الفلسطينيون في الوطن العربي - مشاركة في الإشراف

1976 وثائق من تاريخ ليبيا - الوثائق العثمانية

1976 بداية اليقظة العربية الحديثة في ليبيا - وثائق

1976 العرب وتحديات المستقبل

1976 السنوسية: نشأتها ونموها في القرن التاسع عشر

1976 الحوار العربي الأوروبي - وجهة نظر عربية

1974 ماذا بعد حرب رمضان

1973 عبد الناصر والثورة العربية

1972 هذه الليلة الطويلة - مسرحية

1971 عبد الحميد الثاني في التاريخ - نشر فصولاً

1970 ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالي

1969 من المقاومة إلى الثورة الشعبية في فلسطين

1968 أحاديث عن تاريخ ليبيا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر

لاشك أن هوية المفكر مرهونة بعلامها التي يرسمها هو دون سواه، وأشد ما يجعل من الدجاني مفكراً ذا ملامح خاصة التزامه بمفهوم وضعه وحدود رسمها لمفهوم الفكر؛ فهو يرى أن الفكر أعمال النظر في شيء، وأنه يطرح أفكاراً من خلال التفكير في الأمور، وهو التأمل الذي يعتمد على التفكير¹.

والدجاني ملتزم بهذا المفهوم إلى حد بعيد فعلاً، ذلك أنه يُعْمَلُ نظره في كل قضية يطرحها مفكراً متأملاً مفكراً، فيطرح أفكاراً كثيرة يُدرك مُتْلَقِها تمام الإدراك أنها نتيجة تأمل وتدبر، ذلك أن رجلاً كتب في السنوسية ونشأتها ونموها، وفي تاريخ ليبيا، وفي المقاومة الشعبية، والاحتلال الإيطالي لليبيا، وفي عبد الحميد الثاني، وعبد الناصر، والحوار العربي الأوروبي، والصراع العربي الإسرائيلي، وصبرا وشاتيلا، وفي

1- انظر أحمد صدقي الدجاني، ص 18، تجديد الفكر استجابة لتحديات العصر.

نظرات في تاريخ فلسطين، ورؤى مستقبلية للثمانينات، ومجموعات من وثائق الحوار، والوثائق التاريخية، وغيرها الكثير لأبد أن يكون مفكراً من طراز خاص، يجعل من إمكانيات الرجل الثقافية كتاباً بين يدي القراء، وحديثاً شائقاً مُنَمِّقاً فصيحاً ينطلق على لسانه.

فهموم المفكر المثقف تُسيطر على الدجاني أينما ذهب، ولكنها هُوموم مُرتبطة بالطموحات الكبيرة² التي تُقدم له حوافز مُتعددة من أجل المثابرة في الوصول إلى علاقة راقية مثالية تربط المفكر بمُجتمعهِ وحضارته. لذا نجد الدجاني مُصرّاً دائماً على أن يؤكد دور المثقفين والمُفكرين عملياً من خلال مشروعه الثقافي العام الذي قَدَّمه في مُجمل إنتاجه الذي وَسَّمَهُ بالمفكر الموسوعي. فللدجاني مُطارات في الفكر الثقافي، والفكر السياسي، والفكر الاجتماعي، والفكر الديني قَدَّمها كلها في سياقات مُتعددة ضمن إطار واحد ربط هذا التنوع بخيط متين من صدق المسعى وشمولية الرؤية، « فبهذا المعنى لا تدري من أين تبدأ بتعريف أحمد صدقي الدجاني، أتعرفه بسيرته الغنية الجامعة بين الفكر والنضال، بين الالتزام والحوار، بين الصلابة والمرونة، بين التشدد في الثوابت والدمائة في العلاقات بين مشرق الوطن ومغرب، أم أتعرفه بكتبه المُتعددة وقد بلغ عددها العشرات، وفيها إطلاقات وإضاءات في فلسطين العُروبة والإسلام، في الفكر والسياسة، في التاريخ العام والسيرة الذاتية، أم أتعرفه من خلال المؤسسات التي ساهم في تأسيسها لتشمل العديد من مجالات العمل الفلسطيني والعربي والإسلامي والعالمي، والتي تولى مسؤوليات بارزة فيها »³.

والدجاني المفكر العربي العروبي القومي الإسلامي يُقَدِّم مشروعه مُستلهمًا التاريخ الذي له أن يتحدث فيه بوحى من تخصصه الأكاديمي الذي تميَّز فيه فأهله ليكون عضواً في مجمع الخالدين، ثم ليستشرف المستقبل الحافل بالأحداث لأنه قارئ مُميز وعضو فاعل في عدد كبير من المنظمات والمؤتمرات والهيئات جعلت منه ناطقاً مُبيناً وصاحب رأيٍ قَرَّر فيما بعد أن يحتج على اتفاق أوسلو بالخروج من المنظمة. وهو الأمر الذي يجعل من الدجاني قادراً دون شك على أن يستشرف المستقبل بدقة، ويكتب في شؤون العرب والمسلمين والعولمة، وفي الواقع الثقافي وثقافة الديمقراطية، وقضايا السلم العالمي، وحوارات الأديان، ومسائل المقاومة والصمود⁴.

كل هذا وغيره يكشف - كما قال فاروق شوشة⁵ - عن معدنه الانساني النبيل، وهمه القومي العميق، وتوجهاته النضالية في كل مراحل حياته وفي كل كتاباته.

إن هذا الفكر الشامل، والثقافة الواسعة لاتقف بصاحبها عند حدٍّ أبداً، إذ لا يتسع وعاءٌ لفكر يُرَفَّد دائماً ويُعزَّز بالخبرات واللقاءات، فلا بد له من أن يفيض فينتج تَمَثُّلات أخرى تجلّت عند صاحبنا بالإبداع الأدبي؛ إذ رَفَدَ المكتبة العربية علاوة على ما سبق بمسرحية «هذه الليلة الطويلة» وكتاب «رحلات ولحظات

2- ص 65. تجديد الفكر استجابة لتحديات العصر.

3- ص 187. حبيبنا سلام في رثاء أبي الطيب. تأبين معن بشور.

4- راجع على سبيل المثال: أحمد صدقي الدجاني. عرب ومسلمون وعولمة. وأيضاً: أحمد صدقي الدجاني. زلزلة في العولمة وسعي نحو العالمية.

5- راجع، ص 133. د. أحمد صدقي الدجاني. حبيبنا سلام في رثاء أبي الطيب. مركز الحضارة العربية.

ممتدة « وكتاب « لقاء الكهل بالشاب الذي كانه « وكتاب « بُني الحبيب .. سلام » وهي مجموعة من الإنتاجات الأدبية الرفيعة على صعيد المضمون واللغة من شأنها أن تضيف إلى الدجاني بُعداً آخر فتجعل منه مُفكراً مثقفاً أدبياً، فتؤهله ليوضع بين صفوف الأدباء المفكرين بوصفه مُفكراً أولاً ثم أدبياً ثانياً.

وإن كانت هذه الدراسة تُركز على الجانب الإبداعي الأدبي من مؤلفات هذا المُفكر المُتميز بلغته وأسلوبه وعلمه من خلال دراسة وتحليل أربعة نماذج من كتبه هي: مسرحية « هذه الليلة الطويلة » و كتاب « رحلات ولحظات ممتدة » و كتاب « لقاء الكهل بالشاب الذي كانه « وكتاب « بُني الحبيب .. سلام »، إلا أنها ستقدم شيئاً عن إنجازاته الأوسع، وستبرز الناحية الأدبية في مؤلفاته الفكرية الثقافية العامة التي تجاوزت الخمسين كتاباً.

رأى الشيخ الأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي المُفكر أحمد صدقي الدجاني قائلاً: « إنه رجل يُحبه العلماء والباحثون لأنه عالم بحاثة يحترم نفسه وقراءه بفكر يجعله العالم الذي يعيش في عصره، ويُحبه الأدباء لأنه أديب، يكتب بأسلوب الأديب، وبيان الأديب، ولغة الأديب، ويُحبه العروبيون لأنه عربي مُخلص، يعتز بعروبيته وبقومه وبلغته فلا يتكلم إلا بالعربية الفصحى ».

هذه الليلة الطويلة

تجسد التفاعل بين شخصية الدجاني مُفكراً وأديباً بوضوح في مسرحيته « هذه الليلة الطويلة »، والتي وصف بنفسه مكانها بين أعماله الأخرى قائلاً: « في رحلة الكتابة كنت أستشعر دائماً حاجتي إلى الكتابة الأدبية الوجدانية وسط انشغالي بالكتابة التاريخية، والمستقبلية، والكتابة السياسية.. وكانت لي محاولة في كتابة مسرحية سياسية أثر نكسة 1967م، ولعل أهم ما حققته بالنسبة لي أنها ساعدتني على أن أحقق التوازن لنفسي بعد تلك الهزة العنيفة التي أصبنا بها »⁶.

فقد حفلت مسرحية « هذه الليلة الطويلة » بالأفكار والخواطر والتأملات التي عَبَّرت عن نظرات كاتبها وفلسفته في الحياة. وكانت هذه المسرحية قد نُشرت على حلقات في مجلة الكواكب التي كان يتولى الناقد الأديب رجاء النقاش رئاسة تحريرها، وذلك في النصف الأول من عام 1968. ثم نشرها مؤلفها في كتاب عام 1972، وقال في مُقدمته: « هذه مسرحية تُناقش بعض قضايا معركة المصير التي نخوضها، باشرت كتابتها في مطلع عام 1968، بعد مُضي سبعة شهور على هزيمتنا في حزيران، وفرغت من الكتابة في حزيران 1968 ».

ثم قال الدجاني في مُقدمته للطبعة الثانية من « هذه الليلة الطويلة » عام 1992: « إنني رأيت أن المسرحية عمل فني فكري يتضمن جوانب أخرى تتفاعل مع الزمن إيجابياً، فبالرغم مما شهدته السنوات الخمس والعشرون بين الطبعتين الأولى والثانية - من أحداث كثيرة، وبجانب التطور الذي حدث في رؤية المؤلف، إلا أن هذا التطور بقي محكوماً بثوابت لم تتغير ».

6- الحوار أجراه معه الأستاذ عبد القادر ياسين. مقدمة الطبعة الثانية لمسرحية هذه الليلة الطويلة، ص 7.

يُجمع كثير من دارسي الأدب ونُقاده على أن للمسرح مكانة خاصة بين فنون الأدب باعتباره من أرقى الفنون في عملية التربية الشعبية. فصحيح أن الفنون عامة تُساعد على صقل أذواق الناس، إلا أن المسرح بشكل خاص يزيد في تهيئة المجال للحوار والبناء الفكري العميق وإثارة الرأي. وتذكر كتب الأدب ما أشار إليه أرسطو عندما تحدث عن نظريته (التطهير) التي أبدى فيها دور المأساة في تطهير القلوب من الأمراض النفسية حيث كان اليونانيون القدماء ينظرون إلى المسرح كمؤسسة ثقافية لخدمة الوطن والشعب، مثله مثل الجامعة والمدرسة والمعبد، وليس مُجرد مكان لهو أو عبث⁷.

فقد انضمت مسرحية « هذه الليلة الطويلة » لمجموعة المسرحيات التاريخية السياسية التي تُعالج موضوعاً من واقع الحياة كان له الصدى الكبير في نفوس الشعوب العربية. ومما كتبه النقاد عنها إثر نشرها: أنها تناول جديد للتاريخ، لأن من يقرأ المسرحية ويغوص بين سطورها سيصل مع انتهاء قراءة آخر صفحاتها إلى الإلمام بالقضية الفلسطينية دون تقريرية، ودون سرد تاريخي مُمل.. ويرجع ذلك إلى تخصص كاتبها، وإحاطته الشاملة بجوانب القضية التي عَبَّر عنها هذا العمل الفني⁸.

وفي تقديم ناشر الطبعة الثانية لهذا العمل المسرحي أبدى رأيَه النقدي قائلاً: « إننا أمام عمل إبداعي يستحق منا الجهد المُميز لإبرازه وتقديره في صورته المثلى. فهذه المسرحية تتضمن كل العناصر والمبادئ الأساسية للعمل الدرامي من وحدة المكان والزمان والإيهام والشخصيات والصراع... ولكنها وقبل كل شيء تُعالج قضية سياسية وفكرية تمثل جوهر قضايانا العربية بل والإسلامية، إنها قضية فلسطين.. وهو الأمر الذي يؤكد التزام الدجاني بمفهومه الخاص لمعنى المُفكر، الذي يجعله يعود دائماً نحو هَمِّه الأهم المُتمثل بقضايا الأمة وعلى رأسها القضية الفلسطينية.

كما فسّر نقاد آخرون سبب اختيار المؤلف الإطار المسرحي لطرح أفكاره: « ولاشك أن تعقيدات القضية ورُوح العصر والحروب المُتتالية التي خاضها العرب بكل ظلالها ونتائجها عملت على أن يتجاوز الكُتّاب القوالب التقليدية التي كانت تسمح في رأي الكثيرين بالمباشرة والصراخ الأجوف والحماس المُصطنع إلى القصة والرواية والمسرحية، كما فعل الدجاني في « هذه الليلة الطويلة »¹⁰.

وورد في بعض الآراء النقدية لأسلوب المسرحية الأدبي: « إذا كان أسلوب الرجل هو الرجل نفسه، فلقد كان أسلوب أحمد صدقي الدجاني صادقاً في تناول هذا العمل الفني وصادقاً مع نفسه، ومع وطنه، ومع قضية العرب الأولى... قضية التحرير والوحدة. فالمباشرة هي الأسلوب في هذا العمل المسرحي حيث جاءت الجملة القصيرة مُتناسقة تمنح القارئ شعوراً بالقوة والوضوح »¹¹.

تجري أحداث هذه المسرحية على مدى ليلة طويلة من الغسق مُروراً مُنتصفاً الليل حتّى الفجر. وهي تقع في منزل أسرة فلسطينية بمنطقة القدس وتضم أربعة أبطال يُثلون أجيالاً أربعة وهم: الفتى

7- د. الملاح ياسر. الحياة المسرحية في فلسطين. مجموعة بحوث عربية، ص 256.

8- أبو كف. أحمد. مجلة المصور العدد 2504، كتاب جديد ص 39، أكتوبر 1972.

9- الناشر: مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر، القاهرة، 1993.

10- وحيد علاء الدين. مجلة الكواكب. مسرحية فلسطينية ص 44.

11- أبو كف. أحمد. مجلة المصور العدد 2504، كتاب جديد ص 39، أكتوبر 1972.

يحيى الذي وُلِدَ إثر نكبة فلسطين عام 1948، وأمه زينب الشابة التي تقترب من الكهولة، وأبوه حسن الذي يكبرها بجيل، وجده لأبيه علي الشيخ الطاعن في السن. ومن خلال التعامل الجاري بينهم نعيش نبض تاريخ مأساة فلسطين في بداياتها منذ أن نضج الجد إبان الحرب العالمية الأولى إلى معاشته لنكسة حزيران عام 1967، وابتلاء الحفيد الشاب بنتائجها الصعبة. وقد عالجت المسرحية موضوعها معتمدة على الوحدات الثلاث من مكان وزمان وحدث. فهي محاولة جادة لموضوع جاد، وتتميز بالتشويق. وما تزال القضايا التي عرض لها هذا العمل الأدبي الفكري مطروحة، مما يؤكد أهمية المسرح السياسي في حفظ الوثائق التاريخية عن المراحل والأحداث التي يتناولها¹².

والمسرحية غنية بالأفكار المتنوعة، ونجحت في إبراز الصراع خلالها على عدة صُعد. فهناك صراع بين العدو وبين الشعب العربي، وآخر داخل الأمة الواحدة، وثالث بين الأجيال في الأمة الواحدة. ومما يلفت النظر عمق الشخصيات فهي رموز لها أغوارها، فزينب هي الأرض العربية وأحياناً الشعب العربي، وأحياناً أخرى فلسطين. أما حسن فهو جيل المحافظين المعتدلين الذين حاولوا أن يتفاعلوا مع واقعهم بصراحة. ويأتي الجد بكل روعته ليمثل التاريخ أو القوة العليا فهو لا يتحدث إلا من جوامع الكلم أو من آيات الذكر الحكيم، فهو الحاضر والمستقبل. وأخيراً يحيى البطل الذي مثل رموزاً عدة، فهو تارة حركة التحرير العربية، وهو الثورة بكل قوتها، ونضوجها بكل مآسيها. ومما يلفت النظر حرص المؤلف على أن يغيب يحيى في الفصل الثالث، وهنا أعطاه رمز قائد الثورة الذي رحل بعد أن شق طريق الثورة، ليُتابع بعده مجموعة الشبان الفدائيين الذين هم نتاج جهد الأمة العربية وكفاحها. وكأن المؤلف تشوّف المستقبل الذي سيشهد هذا الرحيل¹³.

ونجح الدجاني في هذا العمل الفني بصفحاته المئة والستين بشد قرائه ليعيشوا معه أحداث هذه الليلة الطويلة. وأبدع بتقديم رؤيته الأيديولوجية وتوصيل أفكاره العميقة من خلال منظور أدبي مُمتع وبشكل فني مُتكاملاً. ذلك أن هويته الحضارية واضحة لديه « فموضوع الهوية الحضارية بثوابها ينهي أي تناقض مُصطنع بين دوائر الانتماء، ويوفر نظرة موضوعية للواقع القائم تأخذ جميع حقائقه في اعتبارها»¹⁴. وهذا ما وفر للدجاني تلك النظرة الواقعية التي أفرزت هذا العمل المسرحي الهادف.

لقد اختص الدجاني في كتاباته التحليلية السياسية والفكرية بالنظرة المستقبلية. وتميزت دراساته وآراؤه بها حتى صدرت له مجموعة من الكتب التي تحمل عنوان المستقبل مثل: «العرب وتحديات المستقبل»، و«رؤى مستقبلية عربية للثمانينات»، و«مُستقبل الصراع العربي الصهيوني»، و«عن المستقبل برؤية مؤمنة مُسلمة». وكان الدجاني يتحدث عن المستقبل من خلال دراساته التاريخية، وتعمقه في تحليل الأوضاع المعاصرة له بمنطق بِن، ليصل مع القراء إلى درجة الإقناع اليسير والوضوح في الرؤية. وهذا أمر من الطبيعي أن يصدر عن مُفكر مثل الدجاني ظلت مُواكبة العصر وقراءة تطورات شغله الشاغل فجعلته « فارساً مُميزاً للفكر المُستنير، والموضوعية في تناول مُشكلات الأمة، والرؤية الثاقبة المُستشرقة لمُستقبل مُشرق لأجيالنا القادمة. لقد عاش الأستاذ الدكتور أحمد صدقي الدجاني حياته من أجل وطنه

الكبير وأُمته، وستظل مآثره وآثاره شاهداً على إخلاصه وتفانيه وبعد نظره»¹⁵.

فقد « كان أحمد صدقي الدجاني حاضراً في كل أوجه العمل السياسي العربي فهو المُفكر، والإعلامي، والأديب، والباحث، والمُحاور، والمُناضل. وهب حياته لأهداف كُبرى فكان إنتاجه الفكري الغزير تأصيلاً وتنظيراً لهذه الأحلام الكبرى »¹⁶.

رحلات ولحظات مُمتدة

ثم تجسّد التفاعل بين شخصية الدجاني المُفكر السياسي والأديب في كتابه « رحلات ولحظات مُمتدة » الذي صدر عام 1979، ليُقدم فيه شكلاً مُميزاً من أشكال السيرة الذاتية الأدبية، حيث خص كتابه هذا بمجموعة من الخواطر التي سجلها في رحلات عمله. ولأنه من أولئك الحريصين على مُلازمة القلم والورقة والتعبير في كل مُناسبة، فقد جمع ما يتناسب من موضوعات مُتصلة بحياته العملية التي انعكست على حياته الشخصية وأخرجها في قالب أدبي قصصي ممتع. إذ قصّ الدجاني على قرائه في صفحات الكتاب الممتئين والأربعين قصصاً مُتنوعة نابعة من تخصصه في التاريخ، ومن عمله السياسي، ومن علاقته بالفصحى وارتباطه بها. وقد ضُمّت صفحات الكتاب ثلاثة وثلاثين عنواناً لفصول قصيرة مثلت الخواطر المُعبرة عن أحداث بعينها، والتي تركت آثارها على كاتبها.

وقد اختار الدجاني - صراحة - أن يكون انتقائياً في سرده الجميل لسيرته الذاتية، فقد ابتعد عن الرصد العشوائي للأحداث، وانتخب أن يكون اختياره قائماً على جامع تعدّد المكان واختلافه، فتراوحت محطاته بين الشرق والغرب، كما أنها تنوعت بين المكان الحقيقي الذي يمثل موقعاً جغرافياً، والمكان الآخر ذي الأبعاد المُمتدة حضارياً. فزاه يطوف بالقارئ في القدس والخرطوم ونيويورك والكويت وغيرها، كما يطوف به في المُستقبل والعلم والمعرفة والصداقة والتجربة.

وبعد اطلاع القارئ وتجوّله مع الكاتب في رحلاته وزياراته لأماكن عديدة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً من عالمنا الممتد، يشعر وكأنه رأى تلك المدن التي وردت فيها الحكايات مثل روما وسمرقند والخرطوم ونيويورك ومكة المكرمة والمدينة المنورة. فكاتبنا الأديب الدجاني يستطرد بوصف المكان وجمالياته وتسجيل أهم ما شاهده فيه وعرف عنه. ومن ذلك قوله: «على عادي حرصت على أن أكتشف المدينة الكبيرة بنفسي، وأن أتححر من قيود المواصلات الرسمية وبدأت بقلب المدينة وما أُسرّع ما تعرفت إلى منطقة الفندق في وسط جزيرة مانهاتن. وفندق بلازا الذي نزل فيه يتميز بموقعه المطل على الشارع الخامس وعلى الحديقة المركزية، كما يتميز بطراز بنائه القديم»¹⁷.

والحق أن الدجاني يُوظف عدداً من تقنيات السرد التي من شأنها أن تُضيف قيمة نوعية للعمل الأدبي، فهو يُوظف الاسترجاع على نحو ذكي يطرد الرتابة عن العمل، ويُبقيه نامياً في ذهن المُتلقي، ومن

15- جاء هذا في كلمة رثاء سمو الأمير حمزة بن الحسين الرئيس الأعلى لمؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي للدجاني. حبيبنا سلام ص 38.

16- من مداخلة فتحي بالحاج في ندوة «الدجاني المفكر والمقاوم» في أربعينية الدجاني التي نظمها المنتدى الثقافي العربي بفرنسا في كانون الثاني 2004.

17- الدجاني. رحلات ولحظات مُمتدة. ط 2، 1987، ص 174.

12- الدجاني. مزنة. قراءة منهجية في مسرحية الدجاني. 1986.

13- الدجاني. مزنة. قراءة منهجية في مسرحية الدجاني. 1986.

14- الدجاني. عمران لاطفيان. دار المستقبل العربي. ص 15.

ذلك قوله في ختام إحدى الرحلات: ¹⁸ «وقفت ألتقبل تحيات العديد من الأعضاء وتهانئهم وتمنياتهم واسترجعت شريط أحداث هذا المجلس، والصدى الذي لاقاه حديثي في المناقشة العامة. وكنت قد عكفت ساعات طوال قبل انعقاده على إعداد تصور للمرحلة الراهنة من نضالنا. وتداعى إلى خاطري يوم شاركت في اللجنة التنفيذية لأول مرة قبل أكثر من عشر سنوات، ويوم شاركت في المؤتمر التأسيسي لمنظمة التحرير الفلسطينية قبل ذلك بعامين. وخطر على بالي أن الرحلة طويلة، وأنها ستصل بنا إلى تحرير وطننا، وأني الآن أقدر على القيام بواجبي...»

والدجاني في هذه السيرة يراوح في تقديم الأحداث فتارة يركز على الأحداث الأكبر والأهم التي تضيف بُعداً تاريخياً، وتسرد قصة الحدث التي أراد لها أن تبقى ومن ذلك قوله: «ما أودّ تسجيله في هذه الخاطرة هو فكرة ألحّت عليّ من وحي زيارتي لسمرقند. الفكرة هي أن الوحدة الحضارية هي المقياس الأفضل والأصح لتقسيم الشعوب والمجتمعات في عالمنا» ¹⁹. وتارة أخرى يركز على أحداث يومية عابرة قد لا تضيف قيمة فكرية أو بُعداً ثقافياً للنص لكنها تضيف روحاً أدبية تجعل من التفاصيل دافعا قويا لعجلة السرد يكشف عن الانتقال ويُعطي انطباعاً صادقا بالعفوية المحببة، كقوله: «أنا الآن في غرفتي بالفندق تناولت فطورتي قبل قليل في قاعة الطعام وعدت أجلس إليك» ²⁰.

كما أنه يتعد في كثير من الأحيان عن السرد الرتيب الذي يجعل من الكاتب مُرسلاً أوحد ويكبل المُتلقي بالاستقبال القسري؛ إذ يخرج من عباءة السارد إلى سحر المحاور فيتحدث إلى المُتلقي مباشرة حتى يُخيل إليه أنه معه في المكان نفسه يُشاركه الفعل والحدث، ومن هذا قوله مخاطباً المُتلقي مباشرة: ²¹ «هل أكرر لك الحديث عن معاناة الكتابة، لقد سمعته مني مرات.»

كما أبدع في هذا الكتاب بوصفه للعلاقات الإنسانية. فللتعارف البشري أهمية كبرى في حياة الدجاني اشتهر به، وكانت له نظرته الفلسفية الخاصة فيه. فكما قال في كتابه هذا: «أرجو أن يتسع وقتي لعرض هذه الصور في كتاب تنطلق فكرته من أن الإنسان يُقبل على التعارف إذا ترك على سجيته، وأن التربية التي يتلقاها هي التي تضع حواجز بينه وبين الآخرين، وفي الأسفار تسقط هذه الحواجز، ويعود المرء إلى سجيته فيكشف خبيئة نفسه لإنسان آخر يبيته بدوره شجونه ويحدثه حديث النجوى. وقد يفترقان ولم يعرف أحدهما اسم صاحبه، ولكن كلا منهما يكون قد عرف الكثير عن الآخر» ²².

فأتى بخصص حدثت معه خلال رحلاته، وأثناء عمله، وفي تجواله، وتمثلت روعتها بدقة روايته للمواقف وتجسيدها للقارئ في قالب فني شائق ولغة سلسة، ولكونها موضوعات تمس العامة والخاصة، ولكن الأديب فقط هو من يُحسن نقلها وتصويرها فنياً. ففي هذا الكتاب تجلّت موهبة الدجاني الأدبي في إخضاع اللغة.

إن الدجاني من أولئك الموهوبين الذين يُتقنون التعامل مع الحدث بأشكاله المختلفة، وكان رحمه الله

18- السابق، ص 153.

19- رحلات ولحظات ممتدة، ص 97.

20- السابق، ص 139.

21- السابق، ص 139.

22- أحمد صدقي الدجاني، رحلات ولحظات ممتدة، ص 185.

يُحسن التعبير عن الحدث بأسلوب أدبي فريد. لذلك استفتح كتابه «رحلات ولحظات ممتدة» بتعريفه الخاص لمُدلول «اللحظة الممتدة» قائلا: «اللحظة الممتدة عندي هي لحظة تمتد طويلاً وعرضاً وعمقاً، فإذا بالحياة خلالها طويلة عريضة عميقة... هي لحظة تألق تُضيء فيها النفس... يتناغم الإنسان خلالها مع ما حوله ومن حوله» ²³.

كما يعكس تعريفه تقديمه لنفسه أمام قارئه، وسهولة التواصل بينهما بكلمات دالة ومُوحية. يستشعر القارئ منذ اللحظات الأولى والسطور الاستفتاحية في المقدمة أنه مع كاتب أديب مُتأمل ومؤمن بوجوده، ويُقدّر قيمة كل لحظة في حياته. فمما جاء كذلك في تعريف المؤلف للحظة في بداية المقدمة: «هي لحظة تدبر في الوجود والواجد والموجود، وهي لحظة عطاء وشفافية وصفاء، ما عشتها مرة إلا ولهجت بالثناء على خالق الحياة والدعاء له: رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين» ²⁴. ولعل هذا يعكس صدق رؤية الدجاني التي تجعله يتمثل كل ما يُقدمه نظرياً، فيضعه بين يدي المُتلقي أمراً واقعياً مُطبّقاً.

وتقديرًا لقيمة هذه اللحظة الممتدة فقد استعارها الشاعر عبد الرحمن يوسف عنواناً لقصيدته الرثائية للدجاني وقال فيها:

أم مُحب بالفقد يفقد رشده	جزع ذاك؟ أم ترى تلك رده؟
لا أوفيك حق تلك المودة	لو ذرفت البحار بعدك دمعاً
منك كانت أنوارنا مستدة	كنت في ليلنا الطويل كشمس
وبدا مثل درعنا في الشدة	فكرك الحر كان مرجع شعب
بحوث أصيلة مستجة	نقطة الوصل بين ماضٍ وآت
ومضى... مثل لحظة ممتدة	عمرك اليوم قد بدا لي خلوداً

«هو العلم الفلسطيني البارز في سماء الفكر العربي والإنساني، والذي يُشكل بما قدّمه للعلم والمعرفة في مجالات الفكر الفلسطيني والعربي والإنساني المعاصر ظاهرةً جديرةً بالدراسة؛ فهو باحث أصيل، ومُحلل مُتروّ، ومؤرخ بارع، ومُفكر مُبدع، وسياسي مُحنك، وعالم مُتمكن، وبفقدانه يكون الشعب العربي بصفة عامة قد فقد علماً بارزاً كسب احترام مُعاصريه من عرب وغيرهم، وسيظل يكسب تقدير قرائه وثناءهم، إذ كان نجماً ساطعاً في سماء الفكر والمعرفة» ²⁵.

كما تميّز الدجاني في حديثه وفي كتاباته بالأخذ بالتعبيرات القرآنية والاستدلال بها في كلامه دائماً. وقد أضاف هذا إلى أسلوبه الأدبي بياناً له رونقه، ودلالة لها جمالها، وعمقاً له تأثيره. «كان أحمد صدقي الدجاني يُوظف القرآن الكريم كأداة تربوية بشكل مُنصب مُباشرة على أمور الحياة، فكان يتعامل مع القرآن باعتباره كائناً حياً يُشارك بشكل مُباشر في صياغة حياتنا. فإذا اختلفت مثلاً مع أخي أو أختي وطال

23- السابق، المقدمة ص 7.

24- أحمد صدقي الدجاني، رحلات ولحظات ممتدة.

25- جاء هذا فيما كتبه د. صادق عبد الله أبو سليمان عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية سابقاً في جامعة الأزهر بغزة في رثاء الدجاني، حبیبنا سلام ص 169.

الخصام صليّ بي العشاء تالياً:» ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم» (فصلت آية 34) صدق الله العظيم²⁶.

لقاء الكهل بالشاب الذي كانه

وبعد عقدين من نشر تلك المُقتطفات الأدبية من سيرته الذاتية المتمثلة في «رحلات ولحظات ممتدة»، نشر الأديب أحمد صدقي الدجاني المزيد من التأملات والخواطر في سياق رواية ذكرياته في كتاب بعنوان «لقاء الكهل بالشاب الذي كانه» عام 1999. وهو كتاب مُتميز رائد بفكرته حيث يُبدع أديبنا فيه بإدارة اللقاء بين جيلين بينهما الكثير من القضايا المحورية، ويُعالج من خلاله وصولهما أحياناً إلى طريق مسدود في ذلك الحوار. ولأنه الخبير في فن الحوار والوصول إلى نقاط اللقاء بأسلوبه اللطيف وبأدبه الظريف، نجده راغباً بإنقاذ تلك العلاقة التنافسية الأزلية بين الكهول والشباب. «والحوار عند أحمد صدقي الدجاني هو قُدر الأقداس ولذة اللذات.. فيه تتلاقى العقول وتتعارف الأرواح، والحوار عنده علم قائم بذاته»²⁷.

وقد أوضح الدجاني هدفه التربوي من هذا الكتاب بقوله: «إن هذا الموضوع الذي يبدو للبعض جديداً هو موضوع قديم يتجدد جيلاً بعد جيل، ويقع في إطار تدافع الأجيال وتواصلها... وتداعى إلى خاطري ما جاء في بُردية قديمة عليّ لسان كهل من نقد «لشباب اليوم» يُعده «أخطاءهم» وينعى عليهم أموراً عدة يفعلونها، وما قابله بالمقابل شباب ضاقوا بضغوط مُجتمعاتهم عليهم من أمثال الشنفري وطرفة وأبطال «ساتاريكون» في روما القديمة وأمثال رامبو وفارلين في الغرب الحديث»²⁸.

وزاد من إقبال الكاتب في مرحلته تلك من العمر على الخوض في الموضوع مُعاصرتة لقضايا أبنائه الشباب الأربعة ومُريديه من الشباب، بالإضافة إلى رغبة جار صديق له مُناقشة قضية «الآباء والأبناء» معاً في جلسات حوارية. فأبدع الدجاني هذا اللون الأدبي بشكل شيق، وبلغة سلسلة تجذب القراء من الشباب والكهول. وضم في صفحات كتابه المئة قسماً جمع فيه خواطر من يومياته التي سجّلها في مرحلة شبابه في سبعة دفاتر من صيف عام 1958 إلى صيف عام 1965، وقسماً لذكرياته عن السينما والتثقيف. وعلل ذلك قائلاً: «رأيت أن أجمع القسمين معاً لوجود علاقة وثيقة بينهما في الفكرة والهدف وزمن الكتابة وأسلوبها ومُناسبتها»²⁹.

والحق أن هذا الكتاب يجمع بالإضافة إلى قيمته التربوية قيمة فنية تعكس اهتمام الكاتب بالسينما والنقد السينمائي وتكشف عن «جوانب أخرى طريفة في فكره ومسلكه الثقافي، من بينها اطلاعه الواسع في السينما والمسرح والموسيقى والرواية، وفضوله العلمي الذي لا حدود له، وطريقته الخاصة المُبتكرة في تربية أبنائه التي تعكس رسائله إليهم التي نشر بعضها ابنه مهدي»³⁰.

ويبدو من مُجمل إنتاج الدجاني الفكري والأدبي أن النقد الأدبي جزءٌ مهم من حياته إذ عوّد الدجاني أبنائه على ممارسة فن النقد الأدبي منذ طفولتهم، فبعد قراءة أي كتاب، ومُشاهدة أي فيلم، وسماع أي أغنية يأخذ الحوار مجراه حول المضمون والمُسْتَوَى والإبداع، وعلى كل فرد تقدير علامة لذاك العمل الفني.³¹ فحقق في تربيته للجيل الصاعد أهدافاً عديدة منها المُشاركة، وضرورة إبداء الرأي، والتمييز بين الغث والسمين، والاستفادة من الوقت بما ينفع ويُمتع. كما كان يُشارك الشباب والأطفال ممن يلتقي بتوجيه أسئلة لهم حول ما يُعجبهم مُشاهدته ومُتابعته فنياً بأسلوبه الراقي في الحوار والاهتمام بمن أمامه باختلاف نوعياتهم البشرية، فيستميلهم ويسعد بتجاوبهم الكبير معه وسماع آرائهم المختلفة.

وفي «لقاء الكهل بالشاب الذي كانه» يُدرك القارئ موسوعية ثقافة الكاتب السينمائية وحرصه في مراحل عمره المُختلفة على مُتابعة الفن السينمائي العالمي، وأهمية نقده لما يشاهد، وإلمامه بالمعلومات الكاملة للعمل الفني الذي يشاهده. وقد حباه الله بذاكرة تسجيلية دقيقة لفتت أنظار من حوله عندما كان يذكر شخصية مُخرج العمل، ومؤلفه، ومُمثليه، وعام ظهوره، وأبرز ما فيه من حوارات ولقطات. وكثيراً ما كان يستمتع بتمثيل بعض المشاهد مع أبنائه وترديد العبارات المؤثرة في هذا العمل أو ذاك.³²

واحتفظ الدجاني بمكتبة سينمائية هائلة ضمت روائع الأعمال العالمية. وشهدت ندواته ولقاءاته ومُحاضراته بُدخالته الفنية الناقدة، وتقديره لدور الفنون المؤثر على مختلف الأجيال الإنسانية.

قدّم الدجاني في «لقاء الكهل بالشاب الذي كانه» حواراً لطيفاً مع أُرشيفه الشخصي الذي لم يُهاجمه غبار السنين على ما يبدو لأن صاحبه ظل يحيا به. ولكنّ اللطيف في هذا الكتاب أن الدجاني الكهل قَادَر على محاورة الدجاني الشاب بروح الشاب وعقل الكهل، وهو الأمر الذي ينقل إلى قارئه قيمةً تربوية عالية تستوعب الهفوات، وتقدر صغر العمر وتواضع التجربة، فهو «يلاحظ أن الشاب لم يكن قد طوّع أسلوبه في التعبير، ويغضّ النظر عن ذلك، ولكنه حين يمضي في قراءة الحديث يجد أن الشاب قد فرّغ فيه ما اختزنه من عواطف ومشاعر ورغبات....»³³

و«يبتسم الكهل حين يمضي في القراءة فيجد أن الشاب سرعان ما انتهى إلى تسجيل أفكاره هو الذاتية التي توصل إليها في موضوع القومية وفي قضية الوحدة من خلال إمعان الفكر في ضوء ما قرأ»³⁴. والدجاني في كل هذا سارداً موضوعي مُستقل عن الكهل والشاب يروي لنا بتجرد كيف يكون اللقاء فيصف ردة فعل الكهل تجاه الشاب تارة كقوله: «يردد الكهل عند هذا الحد: (يا لقوة عاطفة المحبة عند الشاب....)»³⁵ ويتبع خُطى الكهل تارة أخرى كقوله: «ثم يقرأ الكهل»³⁶.

كذلك كانت لديه حصيلة غنائية يشهد له بها من رفاقه وجلس إليه، فيضفي على جلسات صالوناته الفكرية لمسات فنية بإعطاء الجانب الموسيقي حقه. مع اهتمامه بالمُشاركة بحضور حفلات الموسيقى

31- لقاء خاص مع السيدة سنا الدجاني (أم الطيب) في 2009/8/27 عمان.

32- لقاء خاص مع السيدة سنا الدجاني (أم الطيب).

33- لقاء الكهل بالشاب الذي كانه. ص 34.

34- السابق. ص 23.

35- لقاء الكهل بالشاب الذي كانه. ص 43.

36- السابق. ص 47.

26- مهدي أحمد صدقي الدجاني. مقدمة كتاب «من رسائل والدي إلي في مرحلة النفتح. بني الحبيب..سلام» القاهرة. 2000.

27- مهدي أحمد صدقي الدجاني. مقدمة كتاب «من رسائل والدي إلي في مرحلة النفتح».

28- بتصرف. لقاء الكهل بالشاب الذي كانه. ص 5.

29- لقاء الكهل بالشاب الذي كانه. ص 1.

30- حبيبنا سلام. ص 196. وهذا ما جاء في رثاء السيد ولد أباه للدجاني.

العربية، وتقديره للأصوات المميزة، وتشجيعه للأطفال والشباب على حفظ ما يستحق من التراث ومن الأغاني الحديثة. فقد « سرت في كلامه أيضاً روح لغة بلغاء الأقدمين وبلغاء المعاصرين الناضرة ... وقد كان دائماً الإبحار في مكتوباتهم الزاخرة. وكم كان يطيب له أن يناول مُحبيه من لؤلؤ التوحيد ... ومرجان القلقشندي ... وزمرد ابن خلدون ... وياقوت المتنبي وأي تمام ... وفيروز ومحمود شاكر وصلاح عبد الصبور»³⁷.

بني الحبيب .. سلام

قَصَى الدجاني حياته مُمسكاً بقلمه، ومُعبراً عن قضاياها الشاغلة على الورق أولاً. فاتخذ من الرسائل وسيلة أساسية في إيصال ما يُريد. « فالكتابة حرفته وهوايته ومُتعتة أساساً، فقد كتب في الفكر، والأدب، والتاريخ، والسياسة، والثقافة، والمُستقبل، وعن النفس الإنسانية، وعن العلوم... وكان يرى أن التواصل من خلال المداد أمر طبيعي ومُحبب للنفس البشرية»³⁸.

وهكذا توافرت مع السنين أعداد لا حصر لها من رسائله لمن حوله في كل المناسبات وحول كل الأمور. وهذه ما دَعَى ابنه مهدي أن يقرر جمع بعض ما استلمه من رسائل خاصة تُناقش قضايا عديدة مُهمة ومُمتعة ومُفيدة في كتاب بعنوان: « بني الحبيب .. سلام، من رسائل والدي إلي في مرحلة التفتح ». « قلت إن أي كتب هذه الرسائل لعدد من الأغراض .. فبعضها جاء على سبيل التواصل اليومي العادي الذي يتضمن إخطاري ببعض الأمور... بينما جاء البعض الثاني على سبيل تسجيل مواقف وأحداث تستحق التسجيل... في حين جاء البعض الثالث لإثارة الفكر في بعض القضايا... وأحياناً أتت الرسائل على سبيل اللوم والدعوة لمراجعة النفس... وأحياناً أخرى أتت تشجيعاً على عمل محمود يستحق التشجيع... وفي بعض المناسبات شكلت الرسائل استكمالاً لبعض المناقشات التي بدأت شفهاً لكن حبل الحوار الشفهي انقطع.. فكانت الرسالة استبدالاً لما هو مكتوب بما هو شفهي »³⁹.

يأتي هذا الكتاب « بني الحبيب .. سلام » الذي صدر عام 2000 مُكملاً لحوار الأجيال الذي برز في كتاب « لقاء الكهل بالشباب الذي كانه ». ففي هذه الرسائل انعكاس طبيعي وتلقائي وواقعي لجل ما يُعرض للعلاقة بين الابن وأبيه، وهذه العلاقة جزء من العلاقات الأخرى المذكورة في الكتاب التي تجمع الأب بالزوجة والأب بالأخوة الآخرين، فهي جزء من رسائله إلى الأسرة ككل؛ إذ يحتفظ كل فرد من آل الدجاني برسائل خاصة وجهها الراحل الدجاني إليه⁴⁰ غير أن المهدي هو الوحيد الذي نشر الرسائل خاصته.

وكثيراً ما عالج الدجاني برائله التي تميزت بأسلوبها الأدبي، وبلغتها الرقيقة أصعب المُشكلات بين أطراف استعانوا به حكماً وقاضياً، فكان يكتب لكل طرف مُعبراً عن موقف الطرف الآخر بطريقته التي لا بد وأن يستجيب لها الطرفان فينقذ ما يمكن إنقاذه. وكان يجد الوقت ليقوم بهذا الدور المحبب إلى

نفسه وسط انشغالاته التي لا تنتهي في خضم العمل العام، وعضويته في مؤسسات عديدة.

كما حرص الدجاني على تسجيل رأيه الأدبي النقدي على ما يقرأ وما يُشاهد، فكان من بين ما كتب بحث نقدي عن رواية « شرف » لصنع الله إبراهيم وضمَّنه كتابه « عرب ومسلمون وعولمة » إذ خصص الفصل الثاني من هذا الكتاب لتحليل رواية (شرف) وبيان أحداثها وتطوراتها مُستفيداً من مُعالجة صنع الله إبراهيم لقضايا العولمة والثقافة من خلال سرد لحكاية تدور في السجن تحفل بكثير من القضايا الفكرية والسياسية التي تُمثل انعكاساً صريحاً لتأثير العولمة.

فقد وظف الدجاني هذه الرواية بما فيها من مُداخلات وإضافات في سياق كتابه نحو اكتمال النظر في تقديم طروحاته في المسألة. وهو استثمار ذكي للأدبي في المجال السياسي، وللمُمتع في السياق الجاد أكد من خلالها الدجاني على شمولية رؤيته وانسجامه في كل ما يقرأ ويُقدم مع هدفه العام المُتمثل بالهم القومي والحضاري⁴¹.

خاتمة:

في هذه الدراسة حاولت الباحثتان تسليط الضوء على نماذج من أعمال أدبية لمُفكر عربي ذاع صيته مُفكراً وسياسياً وصاحب قلم ولم يُقرأ أديباً. وتطرقنا الدراسة إلى ثلاثة أشكال أدبية هي: المسرحية وأدب السيرة الذاتية وأدب الرسائل ممزوجة بومضات من النقد الفني السينمائي تحديداً. فأحمد صدقي الدجاني كان ظاهرة أجمع عليها كل من عرفها عن قُرب وعن بُعد، حقق المعادلة الصعبة بين جدل الفكري والأدبي بإبداع قل نظيره ترجمه مداداً على الورق، ونطق به عربية فصيحة سليمة جميلة على لسانه في المحافل وفي حياته الخاصة. « كان بحق وسيظل شجرة برتقال يافاوية معطاءة حباً وعلماً ومعرفة وخلقاً ومدرسة ستبقى أبوابها مفتوحة كرمًا، وعُمق تأثير لا يتلاشى مع تلاشي الزمان »⁴².

37- مهدي أحمد صدقي الدجاني. في مقدمة كتاب « بني الحبيب سلام » ص 2.

38- مهدي أحمد صدقي الدجاني. كتاب بني الحبيب سلام، ص 2.

39- السابق، ص 3.

40- لقاء خاص مع السيدة سنا الدجاني (أم الطيب).

41- انظر: عرب ومسلمون وعولمة، ص 49 - 63.

42- من كلمة رثاء فضل شرورو مشرف عام إذاعة القدس في أحمد صدقي الدجاني في 2004/1/2. كتاب الرثاء ص 127.

المراجع:

1. أحمد صدقي الدجاني، مسرحية هذه الليلة الطويلة، مركز الحضارة العربية للإعلام والنشر، القاهرة، 1993.
2. أحمد صدقي الدجاني، رحلات وخطات ممتدة، القاهرة، 1979.
3. أحمد صدقي الدجاني، لقاء الكهل بالشاب الذي كانه، مركز يافا للدراسات والأبحاث، القاهرة، 1999.
4. أحمد صدقي الدجاني، زلزلة في العولة وسعي نحو العالمية، دار المستقبل العربي، القاهرة، 2003.
5. أحمد صدقي الدجاني، عرب ومسلمون وعولة، دار المستقبل العربي، القاهرة، 2000.
6. أحمد صدقي الدجاني، عمران لا طغيان، دار المستقبل العربي، 1994.
7. مزنة الدجاني، قراءة منهجية في مسرحية الدجاني، 1986.
8. المهدي أحمد صدقي الدجاني، بني الحبيب سلام، من رسائل والذي إلي في مرحلة التفتح، القاهرة، 2000.
9. حبيينا... سلام، في رثاء أحمد صدقي الدجاني «أبي الطيب»، مركز الحضارة العربية، القاهرة، 2004.
10. د. العشري أحمد، المسرحية السياسية في الوطن العربي.
11. د. ياسر الملاح، الحياة المسرحية في فلسطين، مجموعة بحوث عربية.
12. مجلة المصور العدد 2504، كتاب جديد ص 39، أكتوبر 1972.
13. مجلة الكواكب، مسرحية فلسطينية، ص 44، عن مقدمة المسرحية، ط2.
14. لقاء خاص مع السيدة سنا الدجاني في 27/8/2009 في عمان.
15. www.arabthinker.org

عبد القادر الحسيني 1908 - 1948م

تأليف: أ. أحمد سعيد

عبد القادر الحسيني

١٩٠٨ - ١٩٤٨ م

مقدمة

ليس سهلاً أن يصبح المرء رمزاً حياً في ضمير شعبه، تكلمه الذاكرة الشعبية بهالة المجد والفخر، وتجعله موضوع حكاياتها وأغنياتها. أمثال هؤلاء، ولا سيما في حالات تشتت الشعوب وضياع استقلالها الوطني، يصبحون السدى واللحم التي تشد عرى الشعب الواحد، وتحميه من التبدد، وتجعل من طموحاته المستقبلية إمكانية واقعية، وإن بدت في بعض اللحظات الصعبة إمكانية بعيدة.

أمثال هؤلاء ننسى في العادة نقاط ضعفهم، أي ما يجمعهم ببني جلدتهم من البشر، ونضعهم في مصاف الخالدين، ويتضاءل أمامهم أي نقد مهما كبر، ومن هؤلاء القائد الفلسطيني الشهيد "عبد القادر الحسيني" الذي ما أن يتفتح الطفل الفلسطيني على وعي مأساته حتى يسمع باسمه وبتضحيته الفذة في معركة القسطل، هذه المعركة المفصلية في التاريخ الفلسطيني المعاصر، ففي هذه القرية المنثورة كآلاف القرى غيرها على تلال وسهول فلسطين صاغ عبد القادر خامّة تراجيدية لحياة حافلة بالكفاح والعطاء.

لنقرأ معظم المصادر التاريخية التي أيدينا وهي ترسم النهاية التالية: وبقي القائد وليس معه سوى مقاتل واحد من رجاله، استمر الاثنان يشغلان العدو ريثما يعود رفاقهما بالخيرة، وفي أثناء ذلك أصيب المقاتل بجراح اضطرته إلى الاختباء في طابون، وقد طلب من قائده أن يختبئ معه حتى يصل الرفاق فرفض، واستمر القائد يقاتل بمفرده ويتبادل قذف القنابل اليدوية مع العدو حتى استشهد^(١).

ولكن من هو عبد القادر الحسيني؟ وما الدور الذي لعبه هو وعائلته في التاريخ الفلسطيني؟ إن تتبع سيرة حياة عبد القادر يعني على نحو أو آخر تتبعاً لسيرة فلسطين، التي حيكت ضدها في المحافل الاستعمارية، مكائد شيطانية أدت إلى استشهادها هي الأخرى وتشتت شعبها في المنافي، فهو سليل عائلة الحسيني، هذه العائلة التي قادت نضال الشعب الفلسطيني، طوال ثلاثة عقود تقريباً، بكل ما حفل به ذلك التاريخ من إنجازات أو إخفاقات... العائلة التي ظل شبح أساليبها في القيادة وصياغة العلاقات والتحالف يلاحق الفلسطينيين في ثورتهم المعاصرة التي انطلقت عام 1964 حتى بعد أن انعدم أي دور مباشر لتلك العائلة في قيادة النضال الفلسطيني.

ولد عبد القادر عام 1908، وتختلف المصادر التي بين أيدينا في تحديد مكان ولادته، فبعضها يجعل ولادته في استانبول، في تركيا "حيث كان والده عضواً في مجلس المبعوثان"^(٢)، وبعضها يجعلها في القدس^(٣) مسقط رأس آبائه وأجداده، وعندما ولد عبد القادر كانت فلسطين، التي لم يكن حتى ذلك الحين أي كينونة سياسية مستقلة، تتململ كغيرها من بلدان المشرق العربي وتستعد لتنفذ عن نفسها أدران الحكم التركي البغيض كما شاطر الفلسطينيون أشقاءهم العرب أحلامهم القومية فقد تقاسموا معهم، بالمثل، الظلم والتنكيل الذي الحقه العثمانيون بقيادة الحركة القومية العربية ونشطاءها، فكان أن تدلت رقاب العديد من الفلسطينيين من أعواد المشانق التي نصب للقوميين الأحرار في ساحات دمشق وبيروت

وكما تضطرب مصادرها التاريخية فيما يتعلق بزمان ومكان ولادة الشهيد عبد القادر، فهي تضطرب بالمثل في تحديد السنة التي حقق فيها إحدى الخطوات الهامة في حياته، أعني انتقاله إلى القاهرة لمتابعة دراسته الجامعية، وفي حين تحدد الدكتور خيرية قاسمية عام 1925 موعداً لذلك الانتقال⁽⁶⁾ فإن الموسوعة الفلسطينية، وبعض الدراسات الأخرى تحدد عام 1927 موعداً لتلك الخطوة.

ذهب عبد القادر الحسيني إلى القاهرة لمتابعة دراساته العليا في الجامعة الأمريكية هناك، وسجل في قسم العلوم لدراسة الرياضيات، وعام 1932 تخرج من الجامعة، وعاد إلى موطنه مع بداية عام 1933 ليستلم وظيفته كمأمور في "دائرة تسوية الأراضي" في فلسطين.

لقد عاد عبد القادر الحسيني إلى فلسطين مطروداً، فقد كان سجل سنواته في مصر حافلاً بالنشاط السياسي والدعائية لقضية فلسطين وجمع الأنصار من حولها، فقد ألف هناك "أول رابطة للطلبة الفلسطينيين"⁽⁷⁾ واحتك بالحركة الوطنية المصرية ممثلة بحزب الوفد، وتجمع المصادر على أنه جعل من حفلة تخرجه مناسبة للنيل من الجامعة الأمريكية لـ "خطورة الدور السياسي الذي تلعبه"⁽⁸⁾ وكان ذلك سبباً في إصدار الحكومة المصرية برئاسة إسماعيل صدقي باشا أمراً بطرده من مصر.

عندما عاد عبد القادر إلى فلسطين كانت القضية تدخل واحداً من أخطر منعطفاتها، ففي ذلك العام، أي عام 1933، صعد هتلر إلى السلطة في ألمانيا، وقد وجد ذلك الحدث انعكاساته المباشرة في فلسطين، على هيئة تكثيف لم يسبق له مثيل في الهجرة اليهودية، فقد دخل فلسطين في ذلك العام 30.327 مهاجر صهيوني أي ثلاثة أضعاف الذين دخلوا في العام الذي سقه، هذه الهجرة المكثفة كانت أيضاً هجرة نوعية.

إزاء هذه التحديات التي بدأت نذرها تتكاثر منذ بداية الثلاثينات كان على الفلسطينيين أن يتحركوا سريعاً وأن يغيروا إلى حد ما من أساليبهم النضالية.

ومنذ الأيام الأولى للاحتلال البريطاني لفلسطين راح شعبنا الفلسطيني يعبر بشتى الأشكال عن رفضه لذلك الاحتلال، وهدفه المتمثل بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين، غير أن الضعف والفرقة ظلا سمتين أساسيتين من سمات الحركة الوطنية الفلسطينية وقيادتها، ومع اقتراب العشرينات من نهايتها كانت هذه الحركة قد انشطرت إلى جناحين متصارعين، شكل النزاع بينهما امتداداً لذلك النزاع العائلي الذي كان سائداً إبان الحكم التركي، وقد أفاد البريطانيون، ومن ورائهم الصهاينة بالطبع، من هذا النزاع الذي اتخذ فيما بعد طابعاً دموياً، إفادة كبيرة، فكثيراً ما كان أحد الطرفين يلجأ إلى مبالأة البريطانيين للنيل من الطرف الآخر.

في هذا الجو المشحون بقطيعة لا عودة عنها بين العرب والأتراك ولد وترعرع شهيدنا عبد القادر الحسيني، ولم يكن هو أو غيره يعرف أي مصير مروع يرسم خلف الكواليس لفلسطين، وأن الصراع مع الأتراك يهون آلاف المرات عن ذلك الذي سينشأ إثر وعد بلفور المشؤم في 2 تشرين الثاني 1917.

قبل ذلك التاريخ كانت معالم الهجمة الصهيونية على فلسطين قد بدأت تتضح؛ إلا أن الذي لم يكن واضحاً تماماً هو أن الانكليز الذين مد لهم العرب يد العون في الحرب ضد الأتراك، ونظروا لهم كمخلصين قد تأمروا مع الفرنسيين لاستعمار بلاد الشام والعراق، ومع زعماء اليهود لإعطائهم حق تأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين.

هذا الخطر المزدوج ترك على الفلسطينيين تحديات من نوع خاص، وهذه التحديات لم تتضح إلا بعد حين، مع تكشف المشروع الصهيوني على حقيقته، وحجم العلاقة بين هذا المشروع والاحتلال البريطاني، كان مطلوباً بروز قيادة وطنية فلسطينية تجابه التحديات وتكون نداً لها فكان أن برزت، ولأسباب كثيرة، عائلة الحسيني على رأس الحركة الوطنية، أو بشكل أدق على رأس جناحها الأكثر تصلباً، والأكثر معاداة للبريطانيين والمخططات الصهاينة.

ورغم أن موسى كاظم الحسيني، والد الشهيد عبد القادر، يوصف في العادة باعتباره "الأب الجليل للحركة الوطنية الفلسطينية" منذ أوائل العشرينات وحتى وفاته عام 1934، إلا أن القطب الأبرز في العائلة، ومهندس النضال الفلسطيني لعقود طويلة كان الحاج محمد أمين الحسيني.

إذاً فقد نشأ عبد القادر منذ نعومة سنه في بيت من بيوتات فلسطين الكبرى، الأمر الذي أتاح له فرصة لتحقيق قدر كبير من التعليم، ومشاركة في القيادة الفلسطينية من داخلها، فقد كان والده قائماً ومتصرفاً في عدد من المدن الفلسطينية والعربية إبان الحكم العثماني، وظل كذلك إلى أن أُحيل للتقاعد عام 1914، ومع بداية الاحتلال البريطاني لفلسطين تسلم موسى كاظم الحسيني رئاسة بلدية القدس بدلاً عن شقيقه المتوفى حسين سليم الحسيني، وحسب المصادر التي بين أيدينا فقد "اشتد عليه سلطات الاحتلال ألا يشتغل بالسياسة ولكنه لم يتقيد بذلك فاستقال من رئاسة البلدية سنة 1920، وقاد في آذار من تلك السنة مظاهرات ضخمة كانت تطالب بانضمام فلسطين إلى سورية وتهاجم الاستعمار الصهيوني"⁽⁴⁾.

في ذلك الوقت كان عبد القادر ما يزال فتى صغيراً، وقد مكنه انتماءؤه إلى أسرة ذات نفوذ من الالتفات إلى العلم وتلقيه من أفضل ينابيعه، أنهى عبد القادر دراسته في روضة المعرف⁽⁵⁾، وهي مدرسة أقامها أهل القدس عام 190 "في الجهة الشمالية من صحن مسجد قبة الصخرة".

تابع عبد القادر الحسيني دراسته في مدرسة صهيون في القدس، وهي مدرسة تبشيرية انجليزية أنشئت في العهد العثماني، ومن هذه المدرسة نال عبد القادر عام 1927 شهادة المتريكوليشن.

الأحزاب الفلسطينية

مع بداية الثلاثينات واشتداد الخطر الصهيوني نشأت الحاجة إلى تغيير في طرائق العمل السياسي، وكان من نتائج ذلك قيام أحزاب سياسية في فلسطين، ورغم أن معظم تلك الأحزاب لم تغادر أشكال العمل العشائرية التي صبغت نشاط أفرادها في العشرينات إلا أن مجرد قيام تلك الأحزاب كان يعني انفتاح النضال الفلسطيني على آفاق جديدة، إذ في الوقت الذي كان فيه نشاط الأحزاب الفلسطينية يجوبون المدن والقرية بحثاً عن مقرات ومشايخين لأحزابهم كانت تعمل في الخفاء عصابة مجاهدة، ستلعب دوراً مادياً ومعنوياً خطيراً في التاريخ الفلسطيني، هي عصابة القسام.

أقام الحسينيون حزباً خاصاً بهم هو "الحزب العربي الفلسطيني"، وقد تم الاعلان عن ذلك الحزب في 27 آذار 1935، برئاسة جمال الحسيني، وجد عبد القادر الحسيني نفسه تلقائياً في صفوف ذلك الحزب، ويبدو أن صغر سنه لم يؤهله آنذاك لتولي منصب كبير في حزب حرص من أجل إضفاء الطابع الوطني الشامل على نشاطه أن يضم في صفوفه شخصيات وطنية معروفة، ومع ذلك فقد تولى عبد القادر إدارة مكتب الحزب في القدس كما ساهم في تحرير جريدة اللواء التي أصدرها الحزب عام 1935 وكان يرأس تحريرها خالد الفرخ (9)، والواقع أن موهبته الصحفية كانت قد تفجرت قبلاً على صفحات مجلة "الجامعة الإسلامية" التي كان يرأس تحريرها سليمان الفاروقي.

غير أن تطورات القضية الفلسطينية كانت تعد الشهيد عبد القادر الحسيني لما هو أخطر من الكتابة، والعمل الوظيفي، كانت تعده لأن يكون قائداً عسكرياً، وعام 1936 كانت الثورة تغلّى في النفوس ولم يتبق سوى الشرارة، وقد جاءت تلك الشرارة في 15 نيسان 1936 إثر مقتل يهوديين وجرح آخر في كمين نصبه بعض القساميين لقافلة يهودية على الطريق العام بين نابلس وطولكرم، وفي اليوم التالي رد اليهود باغتيال فلسطيني في بيرة على الطريق بين مستعمرة ملبس وعنابا، ولم يكتف الصهاينة بذلك بل حولوا جنازة أحد قتلاهم بعد يومين إلى تظاهرة صاخبة اندفعت من تل أبيب باتجاه يافا، ونجم عنها سقوط العديد من القتلى والجرحى من الطرفين فأضربت يافا احتجاجاً على اعتداءات الصهيونية، وعلى تواطؤ السلطات البريطانية مع تلك الاعتداءات.

تلك كانت بداية الاضراب الكبير الذي دام قرابة ستة أشهر وتوقف في 11 تشرين الأول 1936، لتبدأ بعده ثورة مجيدة في التاريخ الفلسطيني امتدت حتى عام 1939. كان القساميون على قلة عددهم قد اختطوا للفلسطينيين درباً جديداً في النضال هو درب الكفاح المسلح. لم يكن لهؤلاء جرائد أو مقرات أو إذاعات، مما يلزم للدعاية، كانت لديهم أرواح متوثبة لمصارعة المحتل، وقد أرخصوا تلك الأرواح في سبل الوطن، فكان أن غدوا أمثلة تحتذى في النضال والعتاء.

الشرارة التي أطلقها القساميون في 15 نيسان 1936م لم تكن الأولى من نوعها، فقد سبق لهذه العصابة في حياة قائدها الشهيد عز الدين القسام، وبعد استشهاده أن قامت بالعديد من العمليات العسكرية ضد قوات الاحتلال البريطاني، والمستوطنات الصهيونية، وهكذا ما أن جاء عام 1936 حتى كان شكل

الكفاح الذي اختطته هذه العصابة نموذجاً يحتذى، ومن الثابت أن الجماعات المسلحة الأولى قد نشأت على نحو غير مخطط، ومن أفراد متحمسين، ولم تفكر القيادة السياسية في اللجوء إلى هذا الشكل إلا في وقت متأخر، وحتى عندما فكرت في ذلك ظلت تنأى بنفسها عن المشاركة المباشرة في القتال، الوحيد الذي شذ عن هؤلاء كان شهيدنا عبد القادر الحسيني، فرغم انتمائه إلى عائلة واسعة النفوذ إلا أنه أثر أن ينخرط في القتال بشخصه.

كان أول ظهور عسكري لعبد القادر في معركة الخضر التي استشهد فيها القائد السوري سعيد العاص، وكان ذلك في السادس من تشرين الأول 1936 أي قبل نهاية الاضراب البطولي الكبير بخمسة أيام، ويصف أكرم زعيتر في يومياته وقائع تلك المعركة على النحو التالي: "وقعت المعركة بين قريتي نحالين ورأس أبو عمار على طريق القدس - الخليل؛ إذ قامت قوة من الجند البريطاني تقدر بثلاثة آلاف جندي منذ ثلاثة أيام بتطويق منطقة واسعة من الجبال والأراضي الواقعة بين القدس والخليل على خط طويل تبتدئ حدوده من خطوط السكك الحديدية وتنتهي إلى سلسلة من الجبال الداخلية، وكانت المنطقة المحاصرة تضم 120 ثائراً وعلى رأسهم القائد المجاهد سعيد العاص".

ويتابع زعيتر: "وزع سعيد رجاله على أماكن مختلفة، وفي مساء أمس الأول شعر بتضييق الجند في حركتهم التطويقية، فوزع بقية رجاله ولم يبق منهم إلا 10-15 من الأشداء الذين أبوا مفارقتهم وظل رجاله ساهرين الليلة كلها خشية مفاجأة الجنود، ثم برز الجنود ونشبت المعركة وجهاً لوجه واحتدمت وكان سعيد واقفاً يطلق الرصاص ويصدر الأوامر وأصيب بثلاث رصاصات ولكنه ظل واقفاً رابط الجأش مستمراً في كفاحه إلى أن أصابته رابعة فسقط شهيد الدفاع عن فلسطين كما أصيب مساعده الباسل السيد عبد القادر بن كاظم الحسيني بطعنة حربة في إتيته".⁽¹⁰⁾

انتهت معركة الخضر، التي تشبه إلى حد كبير معركة أحراش يعبد التي استشهد فيها عز الدين القسام، انتهت باستشهاد سعيد العاص، وجرح مساعده عبد القادر الحسيني، وقد قامت قوات الاحتلال البريطاني بألقاء القبض على عبد القادر، ووضعته "في مستشفى الحكومة في القدس وبالتعاون مع بعض الشباب نقل سراً إلى دمشق عن طريق الأردن حيث عولج حتى شفي".⁽¹¹⁾

والواقع أن بعضاً من القادة الفلسطينيين وفي مقدمتهم الحاج أمين الحسيني، رأس النضال الفلسطيني آنذاك، اضطروا بعد أن اشتد ساعد الثورة في فلسطين إلى الهرب إلى بيروت، ودمشق، وبالأخص دمشق، تجنباً لبطش سلطات الاحتلال البريطاني، ولكن في حين أن البعض راقه أن يمارس القيادة من بعيد، ومن مكاتب وبيوت مرتاحة لا تزعجها المداهمات أو القنابل المتساقطة على الرؤوس إلا أن عبد القادر الحسيني أثر أن يظل الاقتحام والتوثب طابع روحه، وهكذا عاد سراً إلى فلسطين أكثر من مرة، ليقود المجاهدين في معاركهم ضد قوات الاحتلال البريطاني، ولنستمع ثانية غلى أكرم زعيتر، الذي كان شاهداً حياً على معظم ما كتب يروي لنا أبناء هذه المعركة التي جرت في جبال بني نعيم في القدس في الأيام الأولى من عام 1939 "بدأت (المعركة) بتطويق آلاف الجند البريطاني لقرى وجبال جنوبي القدس في بيت لحم والخليل، ونشب قتال بين القوات البريطانية في جبال بني نعيم، وقد اشتركت فيها نجدات من

في النفي العراقي

وأياً كان تقييمنا لأسلوب القيادة الفلسطينية، ممثلة بالحاج أمين الحسيني، في إدارة الثورة الفلسطينية وتوجيه أنشطتها وأولوياتها، إلا أن تلك الثورة كانت بداية قطيعة نهائية بين المفتي وأعوانه وبين البريطانيين، وهي قطيعة حالت بين بعضهم وبين العودة إلى فلسطين، وإبان الثورة كانت دمشق وبيروت المنفيين الأقرب، أما مع بدء الحرب العالمية الثانية فقد شق الكثيرون طريقهم إلى بغداد، ليجدوا أنفسهم بعد حين في قتال مع الانكليز، وهو قتال اضطر معظمهم إلى البحث عن منافٍ جديدة.

كان عبد القادر الحسيني ممن التجأوا إلى العراق، و "في بغداد عمل عبد القادر مدرساً للرياضيات في المدرسة العسكرية في معسكر الرشيد، وفي إحدى المدارس المتوسطة. ثم التحق في أول نيسان سنة 1940 بدورة لضباط الاحتياط في الكلية العسكرية مدتها ستة أشهر" (16) وعام 1941 نشب القتال في العراق بين الجيش العراقي وقوات الاحتلال البريطاني، ووجد اللاجئون العرب المقيمون في العراق، وفيهم فلسطينيون وسوريون ولبنانيون، وجدوا أنفسهم في خندق واحد إلى جانب حكومة رشيد عالي الكيلاني الوطنية، وقد لعب الحاج أمين الحسيني، الذي كان قد اتخذ العراق مقراً له منذ أن وصلها سراً في 1939/10/13، دوراً بارزاً في تحشيد المنفيين العرب حول ثورة رشيد عالي الكيلاني، وحول هذا الموضوع تقول بيان نويهض الحوت: "وعلى صعيد الفعل السياسي والعسكري اشترك المفتي في الثورة بكل رصيده، وحشد لها المئات من الفلسطينيين والعرب الملتفين حوله، فقد عهدت إليه حكومة العراق بمنصب قوة البادية الوطنية، وتتألف هذه القوة من فلسطينيين وأردنيين وسوريين، ومن قادتها فوزي القاوقجي وعبد القادر الحسيني، وعارف عبد الرزاق وحسن سلامة، والعديد من القساميين.

وبعد فشل الثورة في العراق، واستعادة البريطاني لسيطرتهم على كامل العراق، غادر المفتي والكيلاني العراق سراً، إلى تركيا وإيران، ومنها إلى ألمانيا التي كان المفتي قد أجرى معها بعض الاتصالات للوقوف على حقيقة موقفها من موضوع استقلال البلاد العربية.

خلف المفتي عدداً من أنصاره في العراق، ومن هؤلاء عبد القادر الحسيني الذي بذل مع مجموعة من خمسة وثلاثين شخصاً محاولة غير ناجحة للتسلل إلى إيران، بعد ذلك تعرض عبد القادر إلى محاكمة دامت ستة شهور، ثم وضع تحت الإقامة الجبرية في مدينة زاخو بشمال العراق، ثم انتهى به الأمر نزيراً في سجن العمارة "مع كل الفلسطينيين والعراقيين ذوي الصلة بهم مدة ثلاث سنوات ونصف" (17).

وعام 1944 تم الافراج عن عبد القادر فانتقل من العراق إلى السعودية حيث أقام مدة عامين، وحسب خيرية قاسمية فقد أفرج العراقيون عن عبد القادر نتيجة وساطة مصرية، أما حسب الموسوعة الفلسطينية فقد "أفرجت الحكومة العراقية عنه في أواخر سنة 1943 بعد تدخل الملك عبد العزيز آل سعود، ملك العربية السعودية".

وقبل الانتقال إلى الفصل الختامي من حياة عبد القادر ودوره في حرب عام 1948، وهو الدور الذي قاد إلى استشهاده في مية بطولية تخلده في الوجدان الفلسطيني والعربي كواحد من رموز الإلهام التي لا تنسى، لا بد من التخرج على موضوع سفره إلى ألمانيا.

مجاهدي الخليل بقيادة عبد الحكيم الجولاني جاءت لمساعدة المجاهدين الذين يقودهم عبد القادر الحسيني، كانت المعركة ضارية قتل فيها عدد من الجند البريطاني واستشهد بعض المجاهدين المغاوير، وفي مقدمتهم المهندس عمر الحسيني "ابن عم عبد القادر)... كما استشهد ابراهيم خليف قائد فصيل بيت لحم وعيسى أبو قدوم قائد فصيل عرب التعامرة.. والقائد عبد الله مشعل" ويختم زعيتر حديثه عن المعركة بالقول "ونحمد الله لأن جرح القائد عبد القادر كان بسيطاً" (12).

كان عبد القادر في تلك الفترة مسؤولاً عن نشاط الثوار في منطقة الخليل، والواقع أن نفي السلطات البريطانية لبعض القادة الفلسطينيين، وهرب البعض الآخر إلى دمشق، فضلاً عن الفرقة التي حكمت جناحي الحركة الوطنية الفلسطينية قد حالت دون أن يكون للثورة الفلسطينية قيادة موحدة، تضبط إيقاعها العسكري وتجعله أكثر تأثيراً على قوى العدو، ورغم ذلك فقد استطاعت الثورة أن تنتزع الإعجاب حتى من الأعداء الصهاينة، ففي معرض تقييمه لما حدث في فلسطين في الأعوام من 1935 حتى 1936 يقول بن غوريون، أول رئيس لوزراء العدو: "اتضح لي، منذ أيام الشيخ القسام، أننا نتعامل مع ظاهرة جديدة في الوسط العربي، فهو غير النشاشيبي، وغير المفتي، وليست القضية بالنسبة إليه مسألة ممارسة عمل سياسي أو كسب مادي، فقد أظهر الشيخ القسام أنه مستعد للتضحية بحياته في سبيل عقيدته الدينية، والآن لا يوجد شخص واحد فحسب، وإنما عشرات ومئات بل ربما آلاف مثله والشعب العربي يقف وراءهم" (13).

ويتابع مؤلفو كتاب "الثورة العربية الكبرى في فلسطين (1936 - 1939) الرواية الاسرائيلية الرسمية" الذي اقتطفنا منه قول بن غوريون السالف: "ومن الجدير بالذكر أن المشاركين في حركة العصابات كانوا، بصورة رئيسية، من الطبقات الشعبية في المجتمع العربي، أما المثقفون والأفندية العرب، الذين عملوا أعواماً عديدة في التحريض وإشعال فتيل الثورة فقد انكشفوا بكل عارهم وعجزهم عندما حان وقت العمل، إذ لم يخرجوا إلى الجبال، ولا حملوا السلاح، واحد من أبناء الوجهاء فقط، هو عبد القادر الحسيني، قام شخصياً بواجب الجهاد" (14).

ولكن رغم البطولات العظيمة ومئات إن لم نقل آلاف الشهداء والمعتقلين، فقد وصلت الثورة أواخر عام 1939 إلى ما يشابه الطريق المسدود، بعد أن راحت تستهلك نفسها وأبناءها. "ومهما يكن من أمر، فإن أحداث الحرب العالمية الثانية، التي اندلعت في سبتمبر 1939، وتحويل فلسطين إلى قاعدة عسكرية بريطانية، والدعوة إلى الوقوف بجانب الحلفاء، وبدء حملة التطوع في الجيش البريطاني، كل ذلك قد طغى - إلى حد كبير - على أخبار الثورة، التي أخذت تخبو شيئاً فشيئاً، حتى تلاشت نهائياً، ودخلت البلاد في طور جديد، اختلف في كثير من سماته، عن الفترة ما بين الحربين العالميتين" (15).

ففي العام 1944 سافر عبد القادر إلى ألمانيا، أما المرة الأخرى التي تدعي بعض المراجع أنها تمت عام 1936 فما هي على الأرجح إلا نتيجة من نتائج الخلط في الأحداث التاريخية، وضبابية الذكريات لدى البعض، ولا سيما بعد مرور عقود على تلك الأحداث، والأرجح أن ذهاب الفلسطينيين إلى ألمانيا لتلقي دورات عسكرية تم ابتداءً من الأربعينات ومع بداية توطد العلاقة بين المفتي والقيادة الألمانية، أما لماذا ألمانيا وهي الهتلرية؟ فإن ذلك يفسره السلوك الوحشي الذي اتبعه البريطانيون فيما يتعلق بتصفية الحركة الوطنية الفلسطينية، واستفحال الخطر الصهيوني في فلسطين، واتخاذ أشكالاً قاعدية مرعبة، في وقت نشطت فيه الدعاية الألمانية، تماماً كما فعل الانكليز والفرنسيون في الحرب العالمية الأولى، في تصوير الألمان كمخلصين للشعوب الرازحة تحت حكم الاستعمار، ليست سبة أو عاراً أن يلجأ الفلسطينيون إلى الألمان، بعد أن سد الانكليز المنافذ أمامهم، صحيح أن الألمان كانوا نازيين، ولكن عن أي شيء تمخض الصهاينة؟

إذاً، مع بداية عام 1944 غادر عبد القادر الحسيني السعودية سراً إلى ألمانيا لتلقي دورة عسكرية "على صنع المتفجرات وتركيبها" وعاد بعدها إلى السعودية، وانتقل منها عام 1946 إلى مصر، التي لم تحسن حكومتها برئاسة إبراهيم عبد الهادي استقباله، لا في المطار، ولا أثناء إقامته، وظل شبح المضايقات والإبعاد يلاحقه حتى عام 1947، حينما دخلت القضية الفلسطينية في منعطف حاسم وخطير. أثناء وجوده في مصر كان عبد القادر يفكر بفلسطين، وبكيفية الانتقال إليها، لإشعال الثورة فيها، وتخليصها من المحتلين الانكليز، والصهاينة المغتصبين، وهكذا راح "يعمل وبالتعاون مع قيادة الحركة الوطنية على إقامة معسكر تدريب خاص في مرسى مطروح لصنع الألغام وتعبئتها وجمع الأسلحة سراً من كل مكان (وخاصة من ليبيا من مخلفات الحرب العالمية الثانية) كما عمد إلى إعداد خريطة فلسطين وعليها تحديد المواقع الحيوية والأهداف العسكرية، وذلك من أجل وضع خطة لتنظيم الثورة المقبلة على أسس مدروسة"⁽¹⁸⁾ وحسب رواية عبد الرحمن علي لمراسل مجلة شؤون فلسطينية في القاهرة، في العدد 21 فقد كان عبد القادر الحسيني يرسل الأسلحة التي يشتريها إلى مركزين في فلسطين لتخزينها "الأول في صوريث" والثاني في "بير زيت" وقد اختار هذين الموقعين نظراً لبعدهما عن المستعمرات الصهيونية والقدس معاً، أما شهادة عبد الله مهنا في ذات العدد، فيستشمن منها أن علاقة عبد القادر بالمفتي لم تكن آنذاك على ما يرام.

يقول عبد الله مهنا "ومن يومها انقطعت علاقتي بالحاج أمين الحسيني، وإن ظلت علاقتي بالمرحوم عبد القادر الحسيني على ما يرام، وأذكر أن عبد القادر طلب إلي أن انسى ما وقع لي مع الحاج أمين لأن عبد القادر مقهور منه أكثر مني"⁽¹⁹⁾. ويبدو أن الغضب الذي كان يعتلم داخل عبد القادر من القيادات الفلسطينية التقليدية كان حقيقياً. وحقيق بروح متوثبة كروحه أن تحزن وهي ترى الوطن يضيع يوماً بعد يوم تحت سمع قادة العرب وأبصارهم دون أن يفعل أحد ما من شأنه أن يمنع ذلك الضياع.

كانت الحرب العالمية الثانية قد وضعت أوزارها، وكان من جملة نتائج تلك الحرب بداية انهيار الاستعمار التقليدي في العالم، وفي الأقطار العربية المجاورة لفلسطين راحت الحركات الوطنية العربية

تجهز بلادها لخوض معركة الاستقلال، التي بدت أكيدة وحقيقية إلا فلسطين التي رسمت لها الدوائر الاستعمارية مصيراً أسود عنوانه الضياع، وانتهاز اليهود في العالم فرصة الحرب فكثفوا هجرتهم إلى فلسطين، كما صار لهم، على الصعيد العالمي، يتمثل في الولايات المتحدة التي خرجت من الحرب باعتبارها أكثر دول العالم انتصاراً.

أما على الصعيد الفلسطيني فقد شهدت السنوات من 1939 حتى عام 1946 تشتت القيادة الفلسطينية واضمحلال أي دور لها على صعيد الشارع، وهكذا عندما نشأت الظروف من جديد عام 1946 لإعادة تشكيل الهيئة العربية العليا كانت الدنيا قد غدت غير دنيا، وشروط العمل غير تلك التي كانت متاحة في العشرينات والثلاثينات.

تم الاعلان عن تشكيل الهيئة العربية العليا بقرار صادر عن مؤتمر بلودان لجامعة الدول العربية 12 حزيران 1946، والواقع أن تشكيل الهيئة والتطورات اللاحقة للقضية الفلسطينية غدت منذ هذا التاريخ وحتى سقوط فلسطين محكومة على نحو كبير بتدخلات الدول العربية، التي كان لبعضها مطامع في أرض فلسطين، وكان لبعضها الآخر علاقات وثيقة بالمخططات البريطانية في المنطقة.

وعام 1947 وصل الحكم البريطاني إلى مأزق فيما يتعلق بمستقبل فلسطين، فالبريطانيون وبعد أن مهدوا الأرضية المادية لقيام الوطن القومي اليهودي شاؤوا أن يختتموا سيرتهم الشنيعة في فلسطين في الظهور بمظهر المحايدين بين طرفين يضمن وعد بلفور لكل منهما حقوقاً في فلسطين، وهكذا وفي 4/2 من ذلك العام أحالت بريطانيا القضية الفلسطينية إلى الأمم المتحدة كي تقرر هذه مستقبل فلسطين.

قامت الأمم المتحدة بتأليف لجنة للنظر في فلسطين، وإزاء هذا التطور الخطير اجتمع مجلس جامعة الدول العربية في عالية بلبنان في 7 - 10 - 1947 "لدراسة ما يجب اتخاذه من اجراءات للوقوف في وجه المؤامرة على عروبة فلسطين والتي تبلورت ملامحها بشكل جلي واضح في توصيات اللجنة الدولية"⁽²⁰⁾ والمضحك المبكي في أمر الجامعة العربية أنها اجتمعت لبحث المشكلة الفلسطينية بغياب مندوبي تلك القضية.

كان من نتائج اجتماع مجلس الجامعة تأليف لجنة عسكرية عربية دائمة تشرف "على القوات غير النظامية العاملة في كافة ميادين فلسطين، والتي ضمت 1- قوات جيش الانقاذ بقيادة القاوقجي، 2- قوات الجهاد المقدسي بقيادة عبد القادر الحسيني و-3 حاميات فلسطينية محلية، 4- القوات العاملة في الجنوب (مصر)"⁽²¹⁾.

ويومها قبلت بعنف جميع محاولات الفلسطينيين لاعلان دولة مستقلة، وأخذ زمام المبادرة بتحرير بلادهم بأيديهم، وقد سعى الحاج أمين الحسيني كي تكون له الكلمة الفصل في تعيين قادة جيش الانقاذ الذي تألف بأغليته من متطوعين عرب، ولما انعقدت نية الزعماء العرب على عقد لواء ذلك الجيش لفوزي القاوقجي، المحسوب على الهاشميين، قرر المفتي انشاء قوات مقاتلة فلسطينية هي قوات الجهاد المقدس، وأسلم قيادتها لعبد القادر الحسيني.

وتعلق بيان نويهض الحوت على هذا التعيين بالقول "والحق يقال في أنه إن يكن إصرار المفتي على تعيين عبد القادر، يعود لكونه "حسينياً" فإن عبد القادر لم يكن يتصرف مع رفاقه في السلاح بما يوحي إليهم بأنه "حسيني"، وذلك بمعنى التعصب العائلي، وقد شابه عبد القادر أباه الشيخ موسى كاظم الحسيني بمقدرته على إشعار كل من حوله بأن الرابط الوطني هو المقياس الأوحد للعلاقات بين الجميع"⁽²²⁾.

وفي البدء لم يكن عدد هذه القوات يتجاوز خمسة وعشرين مقاتلاً، وكان واضحاً لكل ذي بصيرة أن هذه الشروط الفقيرة لن تقود إلى نصر مؤزر على اليهود الذين كانت لهم آنذاك جيوش مدربة جيداً، ومسلحة بأحدث العتاد، ومع ذلك فقد استبسل شعب فلسطين في الدفاع عن قراه ومدنه، وسجل الناس على بساطة تدريبهم وركاكة سلاحهم وانعدامه أحياناً آيات في البطولة لا تنسى.

كانت قوات الجهاد المقدس برئاسة عبد القادر الحسيني من بين القوة غير النظامية في فلسطين، والتي كان أمر تسليحها والانفاق عليها من مسؤولية اللجنة العسكرية العربية الدائمة، والتابعة لجامعة الدول العربية، ورغم ذلك فقد نظرت تلك اللجنة إلى قوات الجهاد المقدس باستخفاف شديد، وظل طابع الشك والحذر يحكم علاقات الطرفين، والفصل الختامي في حياة الشهيد عبد القادر الحسيني، وهو فصل يصلح خاتمة لشخصية تراجيدية عظيمة نذرت نفسها لقهر شر لا يقهر، يوضح هذا الأمر أيما إيضاح.

فبعد صدور قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة في 29 تشرين الثاني 1947 بتقسيم فلسطين، أعلنت بريطانيا أنها ستسحب من فلسطين بحلول الخامس عشر من أيار، وقررت الدول العربية التي رفضت بمجموعها قرار التقسيم، أنها ستمنع بالقوة، قيام دولة يهودية في فلسطين، ولكنها لن تفعل ذلك قبل خروج البريطانيين، وفي نيسان وقبل حوالي الشهر والنصف على الانسحاب البريطاني قرر اليهود استغلال فرصة وجود البريطانيين وتوسيع، رقعة انتشارهم فقاموا بسلسلة هجمات للاستيلاء على العديد من المدن والقرى في فلسطين.

كان الشهيد عبد القادر الحسيني في دمشق يتوسل من اللجنة العسكرية العربية السلاح والمال لمجاهدي فلسطين عندما وردت أنباء عن سقوط قرية القسطل القريبة من القدس بأيدي القوات اليهودية، كان احتلال القسطل جزءاً من خطة يهودية أوسع تستهدف وصل تل أبيب بالقدس، التي كان الحي اليهودي فيها يعيش شروط حصار قاتل.

كل المراجع التي بين أيدينا تنقل الحوار التالي الذي دار بين عبد القادر ومسؤولي اللجنة، نقلاً عن كتاب "النكبة" لعارف العارف: كان الشهيد عبد القادر في اجتماع مع اللجنة العسكرية بحضور عبد الرحمن عزام الأمين العام للجامعة العربية، ورياض الصلح رئيس وزراء لبنان، والحاج أمين الحسيني، عندما جاءت الأنباء بسقوط القسطل.

"التفت اللواء الركن اسماعيل صفوت (رئيس اللجنة العسكرية العربية) للقائد عبد القادر وقال له:

"ها قد سقطت القسطل، عليك أن تسترجعها يا عبد القادر، وإذا كنت عاجزاً عن استرجاعها فقل لنا لنعهد بهذه المهمة إلى القاوقجي".
فغضب عبد القادر وأجابه قائلاً:

"القسطل يا باشا مأخوذة من كلمة Castle الافرنجية ومعناها الحصن، وليس من السهل فتح الحصن بالبندق الايطالية والذخيرة القليلة التي بين أيدينا، أعطني السلاح الذي طلبته منك وأنا استردها، لقد كانت خطتي إلى الآن أن أحاصر القدس والمستعمرات اليهودية وباب الواد، وأن أمنع وصول النجيدات المؤمن إلى اليهود، ونجحت هذه الخطة حتى أن اليهود شرعوا يموتون رجالهم بالقدس وفي المستعمرات بالطائرات، وأما الآن فقد تطورت الحال وأصبح لدى اليهود مدافع وطائرات ورجال وليس باستطاعتي أن احتل القسطل إلا بالمدافع.. أعطني ما طلبت وأنا كفيل بالنصر"

فقال له الباشا: "شونو عبد القادر؟ ما آكو مدافع!..."

وقال له الشرباتي وزير الدفاع (السوري): "إذا احتل اليهود القدس فسنأتي ونخرجهم منها، أو نقتل فيها.."

(وعندها) رمى (عبد القادر) بالخارطة في وجه الباشا والوزير، وقال بصوت سمعه الحاضرون "أنتم خائنون، أنتم مجرمون، سيسجل التاريخ أنكم أضعتم فلسطين، سأحتل القسطل" وسأموث أنا وجميع أخواني المجاهدين..⁽²³⁾

هذه الروح المتوثبة التي رأت الخيانة متجسدة في هيئة مسؤولين يعبثون بالقضية، ويهزأون بها، ولا يقدرون حقيقة الخطر، هذه الروح لم تكن في تلك اللحظة، لترضى أن تظل في أرض البشر، مع أمثال هؤلاء فقررت أن تحلق في الأعالي، وقبل أن تفعل ذلك فعلت شيئاً أقرب إلى المعجزة.

وبهمة نفر قليل من الرجال قاد عبد القادر الحسيني هجوماً شبه مستحيل على القسطل التي كان اليهود قد احتلوها وحصنوها بالرجال والعتاد، كانت المهمة أكبر من طاقة عبد القادر ورفاقه، فطلب عبد القادر من رجاله أن يعودوا إلى مراكزهم لاستدعاء نجيدات، وذخيرة، ومداداة الجرحى، وظل القائد ومعه رفيق واحد يقاقلان.

وصبيحة اليوم التالي، يوم 8 نيسان 1948، وصلت النجيدات واحتلت القرية ورفعت العلم العربي في ساحتها، وبحث الرجال عن عبد القادر، ولكن عبد القادر، الذي قرر أن يلحق الجبناء درساً في العطاء والتضحية، كان قد لفظ أنفاسه الأخيرة أثناء الليل إثر إصابته بجراح قاتلة، ليدخل في ضمير شعبه كرمز دائم لحياة شعبه الذي لم ينساه رغم المحن التي تتالت عليه منذ ذلك الوقت وحتى الآن.

الهوامش:

1. بيان نويهض الخوت، القيادات... ص 625
2. الموسوعة الفلسطينية، القسم الأول/ الجزء 3 ص 168
3. د. خيرية قاسمية، شؤون فلسطينية عدد 20 ص 6
4. الموسوعة/ قسم أول، جزء ثالث ص 393
5. الموسوعة، جزء ثانٍ ص 490
6. د. خيرية قاسمية، مرجع سابق ص 6
7. د. خيرية قاسمية، مرجع سابق ص 6
8. الموسوعة، قسم أول، جزء ثالث، ص 168
9. د. خيرية قاسمية، مرجع سابق ص 7
10. د. أكرم زعيتير، يوميات، ص 201-202
11. د. خيرية قاسمية، مرجع سابق ص 8
12. أكرم زعيتير، يوميات ص 552
13. الثورة العربية الكبرى في فلسطين 1936 - 1939، الرواية الاسرائيلية ص 154
14. المرجع السابق، ص 154
15. د. كامل محمود خلة، مرجع سابق، ص 480
16. الموسوعة، القسم الأول، جزء ثالث، ص 169
17. د. خيرية قاسمية، مرجع سابق، ص 9
18. د. خيرية قاسمية، مرجع سابق، ص 11
19. مقابلة مع عبد الرحمن علي وعبدالله مهنا-شؤون فلسطينية عدد 21 ص 115
20. هاني الهندي، جيش الانقاذ ص 19
21. المرجع السابق ص 40
22. بيان نويهض الخوت، القيادات والمؤسسات... ص 615
23. المرجع السابق ص 624

المراجع الرئيسية للبحث:

1. الموسوعة الفلسطينية، القسم الأول، الأجزاء الأربعة.
2. د. عبد الوهاب الكيالي "تاريخ فلسطين الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1973
3. بيان نويهض الخوت "القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين 1917-1948" مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت 1981
4. الثورة العربية الكبرى في فلسطين 1936-1939، الرواية الاسرائيلية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت 1989.
5. حرب فلسطين 1947 - 1948، الرواية الاسرائيلية الرسمية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت 1984.
6. الحركة الوطنية الفلسطينية 1935 - 1939 يوميات أكرم زعيتير، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت 1980
7. الدكتور كامل محمود خلة، "فلسطين والانتداب البريطاني 1922 - 1939" مركز الأبحاث الفلسطيني، بيروت 1974
8. الدكتورة خيرية قاسمية "فلسطين مذكرات القوافي 1936 - 1948"، دار القدس، بيروت 1975.
9. هاني الهندي "جيش الانقاذ" دار القدس، بيروت 1974
10. شؤون فلسطينية، العدد 20، شهر نيسان 1973، العدد 21 شهر أيار 1973.

شريف صبوح

١٨٨٧ - ١٩٦٣

إعداد: أ. يوسف عارف

شريف صبوح

الحديث عن مدينة نابلس ممتع وشائق، لأنه حديث عن الأصالة والعراقة والحضارة. أما الحديث عن رجالات نابلس ورواد الفكر فيها، فهو المتعة بعينها، وهو الفائدة التي يسعى إليها كل محب للعلم والمعرفة. إنه الحديث عن الإبداع والإخلاص والطيبة بكل معانيها، وهو أيضاً حديث عن الصبر والكفاح ومواجهة الشدائد والصعاب والانتصار عليها.

لذلك كله أقدم للقارئ هذه الدراسة الموجزة عن أحد أعلام هذه المدينة، ورائد من أقدم رواد التربية والتعليم فيها وأشهرهم، إنه الأستاذ شريف أسعد صبوح، أول مدير للتربية والتعليم في تاريخ فلسطين. وأتقدم بالشكر لنجله الأستاذ أسعد شريف صبوح الذي تفضل مشكوراً بإعطائي كل ما لديه من أوراق ومستندات هي مادة هذا الكتيب، فلا أدعي أنني مؤلفة، ولكني رتبت المادة وبوبتها، ولم أكتب من عندي إلا الكلمة الأخيرة.

وأختم هذه المقدمة بالابتهال إلى الله جل جلاله أن يكثر في أمتنا من النابغين المخلصين، إنه سميع مجيب.

نابلس بين الماضي والحاضر:

نابلس هي ثاني مدينة في الضفة الغربية بعد القدس في حجمها وعدد سكانها وازدهارها الحضاري والعمراني، تبعد عن البحر الأبيض المتوسط شرقاً 42 كيلومتراً وعن القدس شمالاً 69 كيلومتراً، وترتفع عن سطح البحر 550 متراً.

يحيط بها من شمالها وجنوبها جبلان شاهقان، الجبل الشمالي وهو جبل عيبال، ويرتفع عن البحر 940 متراً، والجبل الجنوبي، وهو جبل جرزيم ويرتفع عن البحر 881 متراً، ولأن المدينة قليلة العرض، فهي تتسع طولاً من ناحية الشرق ومن ناحية الغرب. كان موقعها المتوسط بين مدن فلسطين سبباً في شهرتها، فقد كانت محط رحال القوافل القادمة من الشرق والغرب والمتجهة من الجنوب إلى الشمال، وربما كان لموقعها الحصين وبنائيتها الكثيرة الدور الأكيد في ذلك.

وتعتبر نابلس من أقدم مدن فلسطين، وقد أمكن معرفة كثير من المعلومات عن المدينة من الحفريات العديدة، وأعمال التنقيب المختلفة التي قامت منذ الحرب العالمية الأولى ولا تزال جارية، وتكشف عن مزيد من الحقائق التاريخية.

نابلس كلمة لاتينية الأصل، كانت تسمى نيابوليس، أي المدينة الجديدة، وتؤكد المصادر التاريخية أن نشأة مدينة نابلس تعود إلى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد.

اشتهرت مدينة نابلس على مرّ العصور بمركزها التجاري المرموق، وقد ارتبطت بسكة حديد الحجاز التي وصلتها مصر والشام، وظلت تجارة نابلس تنقل بواسطة هذا الخط حتى سنة 1936، حين أغلق الاحتلال البريطاني هذه المحطة إمعاناً منه في محاصرة المدينة.

وظلت مدينة نابلس تكبر وتزدهر وتتسع، ويزيد عدد سكانها الآن عن مائة وستين ألف نسمة، إنها مدينة الحضارة والعلم والمدارس التي تستوعب الآن جميع أبنائها وبناتها وما كان لهذا التقدم والازدهار أن يتحقق لولا توفيق الله تعالى وإرادته، إذ قيض لها أبناء عاملين مخلصين، وظفوا كفاءاتهم وخبراتهم وجهودهم من أجل الرقي بمدينتهم.

وشريف صبح واحد من هؤلاء الأفاضل الخيّرين، لذلك أقدم للقاري هذه النبذة الموجزة عنه، وفاءً له وتنوياً بفضلته، وتشجيعاً للباحثين كي يقتدوا بكرام السابقين.

لحة عن نشأة المدارس في نابلس:

فتحت أول مدرسة بنابلس في الجهة الغربية من سوق السلطان (سوق التجار) في المكان الذي كان يسمى حوش التركمان، وسميت تلك المدرسة: مكتب الخان واحتوى هذا المكتب على عشر غرف، كل غرفة تسمى فرقة وهي: صف الاحتياط، وكان للأطفال في بداية دخولهم المدرسة، ثم ثلاثة صفوف ابتدائية في نهايتها يختم التلميذ القرآن الكريم، ثم يعطى الشهادة الابتدائية، ويرفع الطالب بعد ذلك إلى مدرسة تسمى مكتب الرشادية، وقد تأسست عام 1315هـ وهي عبارة عن ثلاثة صفوف أخرى، وكانت في السراية القديمة (ساحة المنارة) ويرفع الطالب إلى مدرسة أخرى باسم مكتب الإعدادي، وهي نصف ثانوي، لأن الصف الثانوي كان في مركز الولاية واسمه: المكتب السلطاني.

وتغير النظام في عهد الانجليز، فصار التعليم مرحلتين: ابتدائي، وهو ستة صفوف، وثانوي، وهو خمسة صفوف من الأول الثانوي وحتى الخامس الثانوي، يحصل الطالب في نهايتها على شهادة المترك.

ثم تغير هذا النظام في العهد الأردني، فأصبح التعليم ستة صفوف ابتدائية ثم ثلاثة صفوف إعدادية تليها ثلاثة صفوف ثانوية.

وقامت وزارة التربية والتعليم الأردنية بإجراء تعديلات في الآونة الأخيرة، فصار التعليم عشرة صفوف أساسية ثم صفان ثانويان. وهذا هو النظام التعليمي المتبع في الضفة الغربية الآن.

شريف صبح:

ولد شريف أسعد صبح (أبو الطاهر) في مدينة نابلس عام 1303هـ الموافق عام 1887م، وحصل على الشهادة الإعدادية سنة 1320هـ بتفوق في كل الموضوعات، ثم عُين معلماً في المدرسة المأمونية بالقدس، فمعلماً للغة التركية في روضة المعارف على حساب وزارة المعارف التركية.

ثم نقل إلى نابلس ابتداءً من الأول من تشرين الثاني سنة 1330هـ حيث شغل وظائف رسمية عديدة في المعارف.

وعمل شريف صبح مديراً للمدرسة الدرويشية، والمدرسة الرشادية الشرقية، ومديراً لدار العلوم الليلية، ووكيلاً لمفتش التدريسيات الابتدائية.

وتشهد له وثيقة صادرة عن بلدية نابلس بأنه امتاز بالأمانة والنشاط والمثابرة في العمل. وظل يتقلب في هذه المناصب حتى نهاية الحرب العظمى.

أول مدير لدائرة المعارف:

قبل انسحاب المتصرف التركي من مدينة نابلس عام 1917 استدعى نفرًا من وجهاء المدينة وفضلائها، وعهد إليهم بأمانة القيام على شؤون المدينة المختلفة، فعهد إلى الشيخ عمر زعيتر، رئيس البلدية، بتصرف أمور المدينة، وعهد إلى الأستاذ شريف صبح ب إدارة شؤون المعارف.

وجاء الاحتلال البريطاني للمدينة عام 1918م، فقام القائد البريطاني باستدعاء الشيخ عمر زعيتر، وفوضه بتشكيل حكومة برئاسة الشيخ عمر، فعين الحاج نمر أفندي حماد مديراً للتحرير، ورئيساً لديوان المتصرفية، والشيخ رشيد البيطار قاضياً شرعياً، والدكتور مصطفى بك البشناق رئيساً للصحة، وشاكر أفندي الجوهري مديراً لدائرة المالية. وشريف أفندي صبح لإدارة المعارف، والشيخ نمر الداري للمحاكم النظامية، وفائق عنبتاوي وزهدي عنبتاوي وجميل كمال لدائرة الأمن.

واستمرت هذه الحكومة شهراً واحداً، ثم حلّها الحاكم العسكري البريطاني، فعاد الشيخ عمر إلى المجلس البلدي.

أما شريف صبح، فعُيّن فيما بعد مفتشاً لمعارف نابلس بالوكالة، ثم مفتشاً أصيلاً لمعارف هذا اللواء، ثم مفتشاً لمعارف يافا، ومفتشاً لمعارف القدس. وفي سنة 1941 أُحيل على التقاعد، فاختره المجلس الإسلامي الأعلى مفتشاً للمدارس التي تقع تحت إشرافه، وبعد نكبة 1948 انتقل شريف صبح مع أسرته من بيت المقدس إلى نابلس، وعين معتمداً للأوقاف الإسلامية في طولكرم وجنين.

وفي عام 1950م عُيّن مأموراً لأوقاف مدينة نابلس، وبعد عام أسس روضة الخديجية الأهلية للأطفال، بإدارة كريماته وإشرافه، فوقف يوم ذاك منشداً بني قومه:

بتعليم بنت الحي تحيا بلادنا
ولن ينجح النشء الجديد بغيرها
فتلك إلى نيل الترقى يدٌ طولى
إذن علموها فهي مدرسة أولى

جهوده في الخدمة الاجتماعية:

كان شريف صبح عضواً مؤسساً لمدرسة النجاح الوطنية بنابلس، وهي حرب فلسطين عام 1948م، وبعد ذلك، كانت له اليد الطولى في تأسيس اللجان الوطنية وتنظيم الدفاع عن بيت المقدس، والدعوة إلى مؤازرة الجمعيات الخيرية النسائية العاملة في الحقلين: القومي والاجتماعي، وفي عام 1950م أخي المرحومة الحاجة عندليب العمدة رئيسة جمعية الاتحاد النسائي العربي بنابلس فاشتركا معا في إنشاء دار اليتيمات بقصد رعاية بنات الشهداء الأبرار خاصة، وكل من فقدت أحد أبويها بشلل عام.

وكان الأستاذ شريف صبح المستشار التربوي والإداري للهيئة الإدارية لجمعية الاتحاد النسائي العربي بنابلس، وكان عضواً مؤسساً لجمعية التضامن الخيرية الإسلامية بنابلس، التي أنشأت المدرسة الثانوية الإسلامية. ولقد كرس وقته وجهده لخدمة الجمعيات الخيرية العديدة التي كان يضطلع بعضوية هيئاتها الإدارية. لقد عمل شريف صبح في حقل التربية والتعليم خمسين سنة، وإليه يعود الفضل الكبير في فتح المدارس في قرى نابلس، فأصبح هذا اللواء في طليعة ألوية فلسطين من حيث عدد مدارسه وانتشارها. لقد كانت ثقافته محدودة، لكن حماسه ونشاطه كانا كافيين لسد هذه الثغرة، فلم تقتصر خدماته ومآثره على حقل التربية والتعليم، بل تعدته إلى ميادين العمل الاجتماعي، ولكننا إذا نظرنا إلى ما قدم شريف صبح من خدمات للتربية والتعليم، أعطينا المرتبة الأولى وقصبة السبق في هذا الميدان.

وفاته:

في صباح 1963/11/14، أصابته نوبة قلبية حادة، ونُقل إلى المستشفى الوطني بنابلس حيث فاضت روحه هناك. رحمه الله رحمة واسعة.

تكريم:

تكريماً من مدينة نابلس لابنها البار، وعرفاناً بجهوده وفضله في مجال العلم والتعليم في هذا البلد، فقد أطلق اسمه على إحدى مدارسها الرسمية: مدرسة شريف صبح الأساسية للذكور في مدينة نابلس، وتقع قرب محكمة الصلح.

نموذج من نثره:

من الكلمة التي ألقاها شريف صبح في حفل التكريم الذي أقامته بلدية نابلس على شرفه بمناسبة اعتزاله العمل: "لا ريب أن المواقف التي تمثل فيها العواطف دورها لهي أخرج المواقف، وأي موقف تتحكم فيه العاطفة بالعقل وتظهر بأجلى مظاهرها، أعظم من هذا الموقف الذي أودع فيه قوماً أحمل لهم بين أضلعي ما يحمل الولد لوالده، والأخ لأخيه، والصديق لصديقه، من حُب خالص وودّ أكيد.

نابلس هي أمي الرؤوم، ومسقط رأسي، ففيها ولدت، وتربيت، وترعرعت، ولبانها تغذيت، فكيف أنساها وقد أنبتتني نباتاً طيباً. وفي معاهدها تعلمت بينما كنت أقاسي من شظف العيش وبؤس الحياة ما قاسيت.

قبل الحرب العظمى كنت في القدس، فشعرت مدينتي الكبرى بذبول نبتتها، فأثت بها إلى نابلس، وسقتها من موردها العذب، فأينعت النبتة، وعابدها اخضرارها وإشراقها. وإذا كان للمرء أن يعتز بأسرته، ويفتخر بأرومته، ويتيه بعشيرته، فإنني أعتز وأفاخر وأتبه بأبني ابن نابلس، ولن أتوانى لحظة عن خدمتها وخدمة كل بلد عربي.

شريف صبح الإنسان:

إن المهتم بأخبار الرجال لا يهمه ما تقلد الرجل من مناصب أو ما جمع من مال بمقدار ما يهمه من معرفة أخلاق الرجل وسلوكه في بيته وبين الناس وطريقته في مواجهة متطلبات الحياة ومشاكلها.

لذا توجهت إلى أسرة شريف صبح طالباً منهم إعطائي صورة اجتماعية واضحة عن المرحوم، فتبين لي من حديثي مع نجله أسعد أن والده كان يمثل أخلاق الرجال من الجيل السابق بما فيها من أصالة وورانة.

ففي مجال الأسرة كان شريف صبح أماً لأبنائه وأستاذاً في آن واحد، لم يكن يلجأ إلى أسلوب العقاب أو التفرغ إذا رأى هفوة، بل كان يؤثر أسلوب التوجيه بالتي هي أحسن. وكان يحرص دائماً على أن يحسب حساب التقلبات والمواقف الطارئة فيستعد لها بالعقلانية والقصد في الإنفاق من غير تقييد، وكان معجباً بالحكمة الشعبية: خبي قرشك الأبيض ليومك الأسود.

وهذا لا يعني أنه كان يبخل بأي مبلغ تحتاجه أسرته، أو يلزم للقيام بواجب، فعند وفاة أخيه الأستاذ محمد رشيد صبح عام 1938م، قام شريف صبح بواجب الكفالة والرعاية تجاه أبناء أخيه، فرباهم وعلمهم حتى كبروا واستقلوا بأمور حياتهم.

عرف عن المرحوم شريف صبح كظمه للغيظ ودفعه السيئة بالحسنة، أما أسلوبه في قضاء الوقت، فكان أسلوب الرجل العامل الذي نذر نفسه لخدمة بلده، فلم يكن ممن يألون الجلوس في المقاهي كما يفعل الغالبية العظمى من الرجال، شباباً وكهولاً، بل كان ينفق معظم وقته في بحث شؤون الجمعيات الخيرية والهيئات التعليمية التي كان يضطلع بعضوية مجالس إدارتها، وعرف عنه النشاط الدائم والحركة الدائبة من غير ملل.

أما مجلسه فكان للعلماء والفقهاء، ومن السهل علينا أن نتصور ما الذي كان يدور في المجلس الذي يضم مثل هؤلاء. وقد وصفه أحد أصدقائه وزملائه محمد البسطامي بقوله: إن هذا الفقيه العظيم الذي ظهر في المجتمع بعض مزاياه الكريمة، كان مصدر إحسان وموئل تقدير عند المسؤولين.

وإذا أردنا أن نبين ملامح عامة لهذا الرجل فهي صورة الرجل الجاد الوقور الناشط في خدمة مجتمعه وأمته. بعيداً عن الغرور والكبرياء أو عن تفاهاات التظاهر بالعظمة إلى هي داء عن كثير من الناس.

كلمة رثاء:

كتبت مديرة المدرسة العائشية الثانوية للبنات مقالة ابنته فيها، وأود أن أثبت بها بنصها لتكون بعض ما يستحق فقيده التربية والتعليم من حُسن الذكر والثناء؛ جاء فيها: "ففي صباح يوم 1963/11/14م، الموافق يوم الخميس، فجعت مدينة نابلس ومؤسساتها العلمية، وجمعياتها الخيرية، ورجال العلم والإدارة في مدن الأردن وقراها، بفقد رجل العلم والعمل والإنسانية: شريف صبح "أبو الطاهر" - رحمه الله -. فقد أصيب بنوبة فجائية، وبعد ساعات قليلة من قيامه بجولة إنسانية لمنفعة مؤسسات الاتحاد النسائي بنشاطه ومرحه المعروفين، لم تمهله أكثر من 24 ساعة، لبّي بعدها نداء ربه في المستشفى الوطني بنابلس، عن عمر يناهز الثالثة والثمانين. قضاه جاداً مخلصاً نزيهاً في ميادين العلم والعمل والبر والتقوى، وبذلك خبا ذلك النور المتدفق، وانطفأ ذلك المنار المرشد، وخمد ذلك القلب الجبار، وهوى المعلم، فَعَزَّ نعيه على جميع عارفه لما اتصف به من أخلاق طيبة وخصال حميدة وأدب رفيع، فقد كان - رحمه الله - ملاذاً المحتاج ورجاء البائس، وغوث الملهوف، لذلك لبّي نداء ربه وهو هادئ النفس، قريح العين، فقد أدى ما عليه من خدمة لأمته ولوطنه، وملاً صحيفته بالخلافة بجلائل الأعمال، ونال من الجميع ثناءً عاطراً وحمداً وافراً.

وإنه، وإن طواه الثرى، وفارقنا إلى دنيا غير دنيانا، فانه لا يزال حياً في أذهاننا، وإنه ماثل أمامنا، إنه كان ملء السمع والبصر، قضى عمراً مديداً في أعوامه، مجيداً في كل يوم من أيامه، فقد جعل حياته كلها وقفاً على جلائل الأعمال ونيل الفعّال، فكم تحمّل المشاق والعناء لخدمة أبناء وبنات أمته ووطنه، وما وهنت عزيمته، ولا ضعفت همته، رغم ما حلّ بجسمه أخيراً من المرض.

لقد تلقى الفقيه دراسته الابتدائية والثانوية في مدينة نابلس، في العهد التركي، وعُيّن أولاً كاتباً في دائرة المعارف، ثم معلماً، فمديراً لدار العلوم الإسلامية في القدس، ثم عُيّن مفتشاً للمدارس في لواء نابلس، وكان ذلك في عهد الانتداب، وبعد اعتزاله العمل وإحالاته على التقاعد، عُيّن مأموراً لدائرة الأوقاف في مدينة نابلس، ثم مفتشاً للمدارس الإسلامية، وأخيراً انتخب مستشاراً لجمعية الاتحاد النسائي بنابلس.

وما هي جمعية الاتحاد النسائي بنابلس، ومؤسساتها المختلفة الصحية والاجتماعية. والثقافية والإنسانية، تشهد بفضلها، وتخلّد مكارم أعماله، وتعتز بكونه مستشارها ومراقب معاهدها العلمية. هذه سطور من سجل حياته الحافلة بأعمال الخير، التي قام بها الراحل الكريم، وما تحلى به من خصال طيبة وأخلاق حميدة، تغمد الله بواسع رحمته، وأسكنه فسيح جناته."

نسخة من

مديرة مدرسة العائشية

1963/12/07م

وشهد شاهد من أهله:

كتب عنه الشيخ محمد البسطامي في صحيفة نابلس كلمة وفّاه فيها بعض حقه وجلّى عن كرم أخلاقه، وجعل عنوان الكلمة: قبسات من ذكريات النبوغ، جاء فيها: كان المرحوم شريف صبح مفتشاً لمعارف لواء نابلس منذ سنة 1915 م بأمر من الوالي العثماني، وفي سنة 1930 نقل إلى لواء القدس الشريف مفتشاً نظراً لثبوت كفاءته في الإدارة الممتازة، وذلك بسبب الأحوال الحزينة التي كانت تسود المجتمع الفلسطيني، وعين مكانه المرحوم عفيف العطوط.

في ذلك الحين كان كاتب هذه السطور - الشيخ محمد البسطامي - يبحث عن عمل في التربية بنابلس فلم يوفّق، فما كان مني إلا أن رجوته في رسالة خاصة بعثت بها إلى إدارة القدس، فسرعان ما استدعاني، وقرر تعييني في مدرسة بيت فجار قضاء بيت لحم مدة سنة واحدة، ثم طلبت أن ينقلني إلى قرية المزركة الشرقية قضاء رام الله، فمكثت فيها سنة واحدة حتى استدعيت إلى نابلس لأكون واعظاً مرشداً وقضائياً.

وكان المرحوم إبان وجودي معلماً في القريتين، مفتشاً على المدرستين ومن حسن حظي أنه كان يبيت عندي في الغرفة المتواضعة، فيجتمع أهل القرية ويتحلقون حولنا، وكان يتواضع ويتحفنا بألحان تنبعث من صوته الرقيق من نغمة نابلسية عذبة تتكون من قصائد المولد النبوي الشريف، أقام أهل نابلس لأجله حفل توديع تلوت فيه قصيدة متأثراً من نقله، ومنه ما يلي.

فأنك أنت أسمى القوم جاها	بنابلس أقمت أم سواها
أمامك حيث سرت بها اتجاها	وهايك الفضائل والمعالي
وآداب فلا عدمت فتّاها	فتّاها أنت في ذوق ولطف
بعطف ويرعى الله فضلاً من رعاها	شريف رعت نابلساً
براه الوجد لا يسلو سماها	تودّعها وتعلم أن قلباً
سلاها عن محب ماسلاها .	فلا والله لست لها بسال

كلمة أخيرة

من المؤسف أننا لا نجد لمثل هذا المرئي الرائد مؤلفات أو آثاراً تستفيد منها الأجيال. ولعل الظروف التي مرّ بها الوطن، منذ نشأة شريف صبوح إلى أن لقي ربه، كانت العائق الأول أمام حركة التأليف، فقد صرف كثيرين عن محاولة الكتابة والتأليف انشغالهم بالعمل الرسمي والعمل التطوعي، واهتمام الناس بالانجازات العملية أكثر من اهتمامهم بالانجازات العقلية، في وقت كان فيه التعليم يحبو حبواً، ولمّا يقف على رجليه.

كانت الأمية في آخر العهد التركي هي القاعدة، وكان العلم والثقافة استثناء نادراً مقصوراً في أغلب الأحيان على أبناء الذوات الذين لم تلجئهم الحاجة إلى اللهات وراء لقمة العيش منذ نعومة أظافرهم.

فكان الهم الأول لمن ذاقوا حلاوة العلم، أن يذيقوها أبناء شعبهم عن طريق المساعدة على فتح المدارس الابتدائية (الكتاتيب) لتستوعب الأطفال كافة، كي يتعلموا القراءة والكتابة وقراءة القرآن الكريم.

وهذا ما فعله شريف صبوح، إذ جاد بوقته في سبيل فتح المزيد من المدارس ونشر العلم في لواء نابلس بأوسع وأشمل ما يمكن.

ثم إن وقوع فلسطين في قبضة الاحتلال الانجليزي، وما واكبه من هجرة يهودية، والذي انتهى باستيلاء اليهود على الجزء الأكبر والأهم من فلسطين، كل ذلك كان داعياً لكل مخلص، إلى أن يكرس وقته وجهده وإمكاناته كلها لخدمة أبناء شعبه في ميادين الخدمة المختلفة، وهذا أيضاً ما فعله شريف صبوح، إذ يشهد له العمل التطوعي باليد البيضاء والجهد المشكور، نسأل الله أن يثيبه على جلائل أعماله وخدماته رحمة ومغفرة، انه سميع مجيب الدعاء.

الفهرس

3	تعريف بدائرة المعارف الفلسطينية
3	المحتوى
3	الهدف
4	الآلية
4	حدود المسؤولية
5	تصدير
7	مقدمة

عادل زعير

11	عادل زعير
11	تقديم
13	مقدمة الطبعة الأولى
15	العلامة عادل زعير
16	في بلاد الأناضول
17	الثورة العربية الكبرى
17	رحيله إلى مصر
21	المؤتمر السوري
23	بدء إنتاجه الثقافي
24	بينه وبين عبد الله المشنوق
25	برقية ورسالة
26	وفاة والده «وفاة زعيم فلسطيني»
27	الجنزة
27	عودته إلى فلسطين
27	أستاذه
28	أبناؤه
28	الرسالة الوصية
29	الدعابة الفكاهة
30	المحامي المثالي
31	تحقيقه للجواسيس
31	زواجه
31	صداقة مثالية
32	المرأة العربية
33	بعض نصائحه

محمد عزّة دروزة

91	محمد عزّة دروزة
91	مقدمة
93	مدخل
93	نسبه ونشأته
94	حياة محمد عزّة دروزة بقلمه
98	المجری العلمي
101	ثَبَّتْ مؤلفات محمد عزّة دروزة
101	الكتب الاسلامية
102	مؤلفات غير مطبوعة
102	الكتب الفلسطينية
103	الكتب التاريخية
104	الكتب القومية
104	مواضيع مختلفة
105	مقالات ومحاضرات غير مطبوعة
105	مقالات كتبت في وقت مبكر
106	تلخيصات وتعليقات وأبحاث متفرقة
107	مذكرات محمد عزّة دروزة
108	كتب ترجمت له وكتبت عنه
109	مقالات كتبت في تأبينه
110	قالوا فيه
121	عمله في مدرسة النجاح
	أحمد صدقي الدجاني
125	أحمد صدقي الدجاني المُفكّر الأديب
125	المُلخَص
126	حياته
127	مؤلفاته
130	هذه الليلة الطويلة
133	رحلات ولحظات مُمتدة
136	لقاء الكهل بالشاب الذي كانه
138	بُني الحبيب .. سلام
139	خاتمة
140	المراجع

33	وفاؤه
34	عوني عبد الهادي
34	اعتزازه بنفسه
35	أحكام جائزة
35	بعض رسائله
36	نكبة فلسطين
37	الوحدة العربية
37	الجامعة العربية
38	حديث مع فائزة عبد المجيد
39	درس في الأخلاق
39	بينه وبين زوجه
40	ذكريات أكرم زعيتر
40	مهرجان ابن سينا
40	شعراء الترك
41	تركه المحاماة
42	ناسك المعبد الثقافي
45	الهوامش
45	قالوا في عادل زعيتر
57	رسالة من الرئيس شكري القوتلي في تأبين المرحوم
57	ملحق
61	نكبة فلسطين (مذكرة وطنية)
69	الوحدة العربية
69	مقالات ودراسات حول عادل زعيتر
69	عادل زعيتر وفن الترجمة
70	تمهيد
72	غزارة إنتاجه
72	مجال الحقوق، حقل تخصصه الأساسي
72	اللغات التي ترجم عنها
81	نهجة في الترجمة
82	عادل زعيتر ومكانته بين المترجمين
82	حركة الترجمة العربية في العصر الحديث
88	عادل زعيتر مترجما
	المراجع

عبد القادر الحسيني

143	عبد القادر الحسيني
143	مقدمة
146	الأحزاب الفلسطينية
149	في المنفى العراقي
154	الهوامش
154	المراجع الرئيسية للبحث

شريف صبوح

157	شريف صبوح
157	نابلس بين الماضي والحاضر
158	لمحة عن نشأة المدارس في نابلس
158	شريف صبوح
159	أول مدير لدائرة المعارف
159	جهوده في الخدمة الاجتماعية
160	وفاته
160	تكريم
160	نموذج من نثره
161	شريف صبوح الإنسان
162	كلمة رثاء
163	وشهد شاهد من أهله
164	كلمة أخيرة